أحمد قريع
أبو علاء

على دروب الفتح

(٧)

فتح في زمن المفاوضات

فلسطين

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

أحمد قريع
أبو علاء

على دروب الفتح

(٧)

فتح في زمن المفاوضات

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

فتح في زمن المفاوضات،

الكتاب السـابع من سلسلة إصدارات "**على دروب الفتح**".

أحمد قريع (أبوعلاء) / مؤلف من فلسـطين.

الطبعـة الأولى - القدس، 1443 هـ - 2022 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنـع طبـع هـذا الكتـاب أو جـزء منـه بـكل طـرق الطبـع والتصويـر والنقـل والترجمـة والتسـجيل المـرئي والمسـموع والحاسـوبي وغيرهـا مـن الحقـوق إلا بـإذن خطـي مـن معهـد القـدس للدراسـات والأبحـاث / جامعـة القـدس.

القدس ، فلسطين

معهد القدس للدراسات والأبحاث

جامعة القدس

صندوق بريد: 51000

تلفاكس: 00972-02-2790666

الموقع الالكتروني: https://isr.alquds.edu

البريد الالكتروني: isr@alquds.edu

الرقم المعياري: ISBN 978-9950-364-41-7

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

ISBN 978-9950-364-41-7

9 789950 364417

الفهرس

المقدّمة..... ٥
الجزء الأوّل: مفاوضات أوسلو..... ٢٧
الجزء الثّاني: مفاوضات كامب ديفيد ١٠٧
الجزء الثالث: الطريق إلى خريطة الطريق..... ١٦٥
الجزء الرّابع: مفاوضات أنابوليس..... ١٧٩
الجزء الخامس: المفاوضات المتعدّدة الأطراف..... ٢٢٣
تقويم المفاوضات متعدّدة الأطراف ٢٤٥

المقدّمة

لا يشكّل هذا الكتاب إضافة جديدة إلى ما سبق أن نشرته تباعاً عن عمليّة المفاوضات الفلسطينيّة الإسرائيليّة على مدى نحو عقد ونصف العقد من تاريخ هذه العمليّة، ولا يتضمّن سرداً أو تحليلاً مختلفاً أو إعادة رواية إلى ما أصدرته من كتب رئيسة خمسة تناوَلت فيها المحطّات الكبرى الفارقة على هذا المسار، والّذي بدأته برواية مفصّلة عن محادثات أوسلو الاستهلاليّة المبكّرة لعمليّة السّلام المتعثّرة، واختتمتها بمفاوضات كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، ثمّ أتبعتها بمفاوضات الطّريق إلى خريطة الطّريق، ثمّ بمفاوضات أنابوليس عام٢٠٠٧، بالإضافة إلى المفاوضات المتعدّدة الأطراف.

أحسب أنّ هذا التّوضيح مهمّ للقارئ الّذي قد يعتقد منذ الوهلة الأولى أنّني بصدد إعادة كتابة الرّواية الأصليّة أو التّجديد في نصّها الّذي يقع في نحو ألفي صفحة صادرة جميعها عن مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة في بيروت. كما أنّ هذا الإصدار لا يتضمّن تحليلاً جديداً تكون قد اقتضته الخبرة اللّاحقة، وألحّت عليه ضرورات لم تكن قائمة في حينه لدى كتابة نصّ الرّواية الطّويلة في أجزائها الأربعة، وغير ذلك ممّا قد يخطر على بال من يبني استنتاجاتها من النّظرة الأولى والانطباع الأوّل.

إنّ كلّ في الأمر، وبناءً على مطالبات عدد من الأصدقاء، وبينهم صحفيّون وباحثون وأساتذة في الجامعات، أنّني قد عصرت مخزون ذاكرتي، ثمّ عقدتُ عزم أمري على إصدار هذا الكتاب كموجز في تاريخ المفاوضات الفلسطينيّة

الإسرائيليّة؛ وذلك تلبية لرغبات هؤلاء جميعاً ممن رأوا أنّ من المفيد للطّلّاب والدّارسين على وجه الخصوص ضمّ أجزاء الرّواية الأربعة في إصدار واحد يسهّل الرّجوع إليه والاستزادة منه لغايات البحث، لاسيّما وأنّ كثيرين من المعنيين بالأمر ليس لديهم إلّا كتاب واحد أو أكثر، فيما لا يتيسّر الحصول على بقيّة الكتب الأخرى الّتي تؤرّخ للرّواية الكاملة.

لذلك كلّه، كان إصداري الجديد هذا، وليس كتابي الجديد، والّذي أروي فيه الحكاية التّفاوضيّة من ألفها إلى يائها؛ من أوسلو وحتّى أنابوليس بإيجاز لا يخلّ بالمضمون التّاريخيّ، ولا يغمط الوقائع الأساسيّة، أو يخرج عن الخطّ النّاظم لتسلسل الأحداث المتعاقبة، وذلك بهدف اختصار النّصّ، وتكثيف التّفاصيل الضّروريّة، ووضعها في سياق يفي بالغرض، وأعني بذلك تقديم رواية المفاوضات بأسلوب أقرب ما يكون إلى النّصّ المدرسيّ الموسّع مع أقلّ القليل من الاختلافات اللآزمة لإضاءة بعض الجوانب الّتي قد لا تكون واضحة بما يكفي لطالب الجامعة أو أيّ باحث مبتدئ قد يتسنّى له الاطّلاع على هذا الإصدار في زمن بعيد عن وقائع المرحلة الرّاهنة.

لقد اجتهدت (ولكلّ مجتهد نصيب) في أن يأتي هذا الكتاب خاتمةً أتوّج بها سلسلة الكتب الّتي أصدرتها عن هذه الرّواية الطّويلة، بحيث يكون مختصرا ومفيدا ولائقا بثقافة أجيال لآحقة ومفاهيمها ممن سيبدو لهم تاريخ عمليّة المفاوضات جزءاً من ماضٍ بعيد لم يعيشوا أحداثه، ولم يتجرّعوا- كما تجرّع آباؤهم- مرارته، الأمر الّذي سيجعل من هذا الكتاب وكأنه صورة بانوراميّة تضمّ مجموعة من الصّور المتتابعة على هيئة شريط سينمائيّ يوّثق وقائع العمليّة التّفاوضيّة بالصّوت والصّورة، وذلك إذا ما تمكّنتُ من عرض هذه الرّواية بصورة حاذقة كما آمل وكما أرجو، بل وكما هو مطلوب.

إنّ ممّا يزيد من أهمّيّة ما أنا بصدده في هذا الإصدار القائم على السّرد التّاريخيّ أساساً، أنّه كلّما مرّ عليه مزيد من الوقت كلّما تباعد الزّمن عن عصر هذه المفاوضات، وتحوّل إلى ما يشبه الوثيقة المستنديّة الّتي تكتسب مادّتها المزيد من الأهمّيّة، كونها ستصبح مرجعا معتمدا للدّارسين والطّلاب والباحثين والكّتاب الرّاغبين في العودة إلى الجذور والينابيع الأولى للتّعرف على تاريخ شعبهم، والوقوف على حيثيات مفاصله التّاريخيّة، ناهيك عن الإجابة على سلسلة لا نهاية لها من علامات الاستفهام المتعلّقة بملابسات هذه المرحلة الّتي أعرفُ سلفاً أنّها مرحلة خلافيّة، وقد تظلّ خلافيّة إلى مستقبل بعيد.

وإذ أستهلّ روايتي بهذه المقدّمة الّتي تفيض بنبرة شخصيّة واثقة (على الأقلّ فيما يتّصل بالحقائق الكامنة في قلب رواية المفاوضات ذاتها) فذلك لأنّني أنا الشّاهد والرّاوي، وأنا الّذي وقف على كلّ الحقائق، وأسهم في تكوينها على هذا النّحو أو ذاك إلى الحدّ الّذي باتت فيه عمليّة التّفاوض هذه جزءاً لا يتجزّأ من تاريخي الوطنيّ والشّخصيّ، بل وأحسب أنّه عندما يتمّ التّطرّق إلى هذه العمليّة في أيّ زمن مستقبليّ- ولو بعد أجيال- فإنّه سيتمّ ذكر اسمي مقترناً بكلّ واقعة من وقائعها الكثيرة باعتبار أنّني الرّجل الّذي اختارته القيادة السّياسيّة الفلسطينيّة لقيادة عمليّة المفاوضات في محطّاتها الأربعة، ناهيك عن محطّة المفاوضات المتعدّدة السّابقة على هذه العمليّة.

لقد وددت لو أنّه كانت لديّ ملكة الرّوائيّ، وتقنيات صناعة هذا الجنس الأدبيّ الرّفيع الّذي لا يتقنه سوى قلّة قليلة من الكّتاب الكبار، لأنّني لو امتلكتُ ملكة الرّوائيّ لكنت قد استبدلت هذا النّصّ القائم على السّرد التّاريخيّ المجرّد، برواية مستمّدة أحداثها من التّاريخ دون أن تكون تاريخاً في حدّ ذاته، ولكنت

أيضاً قد أغنيت المكتبة الأدبيّة والمجال الثّقافيّ الفلسطينيّ بعمل روائيّ جديد بدلاً من إتخام رفوف المكتبة الوطنيّة هذه بمزيد من الإصدارات السّياسيّة التّاريخية... إنّه إصدار جديد، لكنّه لا جديد فيه من حيث الوقائع التّاريخيّة.

على أيّة حال، هذا هو كتابي الجديد دون تجديد، أضعه في عهدة القارئ المهتّم بتطوّرات مرحلة سياسيّة فلسطينيّة لم تختتم في واقع الأمر وقد لا تختتم في زمن قريب؛ لأنّ الماضي لا يزال ماثلاً ملء السّمع والبصر، يمضي ولا يمضي بآثاره الحسّيّة ونتائجه الّتي لا تزال على شكل مادّة أوّليّة نصف مُصنّعة، فيما المضارع مفتوح على كلّ الاحتمالات الممكنة بما في ذلك أشدّ هذه الاحتمالات بؤساً... أمّا المستقبل فهو ملك الأجيال المقبلة الّتي سوف تستأنف المسير من عند النّقطة التي صنعها جيل الآباء؛ أي جيل من أسهموا في الوصول إلى هذه النّقطة المفصلية في التاريخ الفلسطيني الحديث.

غير أنّ ما أودّ أن أوصي به كلّ قارئ لهذه المادّة ألا يتماشى في إصدار أحكامه القطعيّة على معطيات هذه المرحلة وفق مرجعيّات معرفيّة مكتسبة في وقت زمنيّ لا يمتّ بصلة قويّة إلى زمن عمليّة المفاوضات الفلسطينيّة الإسرائيليّة، والّتي جاءت مترافقة مع معطيات من بنت زمانها المحدّد بعد انهيار عالم القطبيّة الثّنائيّة، وانقسام العالم العربيّ إثر اجتياح العراق للكويت، وما أدّى إليه ذلك من ارتدادات سلبيّة أصابت الشّعب الفلسطينيّ قيادته، وحركة تحرير وطنيّ، ومجتمعاً: نصفه تحت الاحتلال العسكريّ البغيض، ونصفه الآخر في ديار الشّتات الّذي وقع تحت تأثير تلك الارتدادات السّلبيّة بصورة مباشرة. ذلك لأنّ لكلّ محطّة ظروفها الخاصّة، ولكلّ زمن رجاله، ولكلّ واقعة أسبابها.

وبالتّالي، فقد كانت مرحلة المفاوضات هذه (وهي الّتي تسمّى مرحلة

أوسلو) نقطة تحوّل كبرى في تاريخ النّضال الفلسطينيّ، والّتي كان لها ظروفها الاستثنائيّة غير المتكرّرة،وأتت في زمن ربما كان هو الأشدّ صعوبة في مسار الثّورة الفلسطينيّة الّتي وجدت نفسها آنذاك محاصرة ومعزولة وعرضة للتّبدّد تحت وطأة متغيّرات تلك الفترة العاصفة في الحياة السّياسيّة العربيّة، وهي متغيّرات شديدة السّلبيّة، حيث أحسبُ أنّ المقام هنا لا يتّسع لها في مثل هذه المقدّمة.

اود أن أشير الى أنّ الكلام السّابق لا يعني أنّنا في معرض تبرير كلّ ما انطوت عليه مرحلة ما بعد اتّفاق أوسلو، ولا الدّفاع حتّى عن هذا الاتّفاق الّذي لا يزال رغم عيوبه ونواقصه يشكّل الأرضيّة السّياسيّة الوحيدة للحالة الفلسطينيّة الّتي عبرت من خلال هذا الاتفاق إلى عهد بناء الكيان الوطنيّ، وإقامة المؤسّسات، وإجراء أوّل انتخابات عامّة مباشرة على أسس ديمقراطية. إنّ كلّ ما نودّ قوله في هذا السّياق الّذي لا يزال محلّ نقاش وسجالات لم تنقطع هو أنّ الحكم على مرحلة أوسلو لا يستقيم أبدا إلّا باستحضار كلّ تلك الظّروف والحقائق الّتي جعلت من خيار المفاوضات أقلّ الخيارات المتاحة سوءاً في تلك المرحلة.

بصراحة أكثر... لم يكن لدينا في أوائل عقد التّسعينات من القرن الماضي أي خيارات بديلة في واقع الأمر، إذ كانت قد مرّت في حينه نحو عشر سنوات قاسيّة على الثّورة الفلسطينيّة منذ آخر المعارك الكبرى الّتي خاضتها الثّورة ضدّ إسرائيل عام ١٩٨٢... فقد تشتّت مقاتلو الثّوره في عدد من البلدان العربيّة، ووجدت القيادة التّاريخيّة الفلسطينيّة نفسها في مقرّ يبعد الآف الكيلومترات عن فلسطين، وتعرّض الشّعب الفلسطينيّ في الخارج إلى مجزرة رهيبة في صبرا

وشـاتيلا، ثـمّ وقعت بعد ذلك سلسـلة طويلة مـن التّطورات السّـلبيّة بلغت ذروتها في حالـة الانقسـام العـربيّ في حـرب الكويت مطلع التّسـعينات عشـية مفاوضات أوسـلو، حيـث كنّـا قـد انتقلنـا مـن منـفى إلى منـفى أبعد، وتـمّ تهميشـنا سياسـيّاً إلى أبعـد الحـدود على نحـو مـا شـهدته وقائـع مؤتمـر القمّـة العربيّـة الّذي انعقـد في عمـان عام ١٩٨٧. كمـا تـمّ تجفيـف مصـادر دعمنـا المـاليّ وهـو أمـر ارتـدّ على الآف الأسر الفلسـطينيّة مـن ذوي الأسرى والجـرحى الّذيـن انقطعـت مخصصاتهم الشّـهريّة الضّئيلـة، وبتنا عاجزيـن عن تدبير أمورنـا، وتصحّرت حياتنا السّياسـيّة، وفقدنـا الأصدقـاء والحلفـاء تبـاعاً، حيـث كانـت الذّروة قـد حدثـت مـع انهيـار الاتّحـاد السّـوفيتيّ والمعسـكر الاشـتراكيّ لدى سـقوط حائـط برلـين، ثـمّ انفتحـت أبـواب الهجـرة اليهوديّة الكثيفة إلى بلادنـا من دول ذلك المعسـكر الّذي كان ظهيراً سياسـيّاً لنـا منذ عـدة عقود سـابقة.

كانـت الأوضـاع الفلسـطينيّه في الدّاخـل والخـارج تمضي من سيء إلى أسـوأ مـع مـرور مزيـد مـن الوقـت، وهبطـت القضيّـة الفلسـطينيّة إلى أدنى منزلـة على جـدول الاهتمامات العربيّـة والدّوليّة بعد أن كانـت القضيّة المركزيّـة الأولى للعالم العـربيّ، ثـمّ أخـذ وجـود الثّـورة يتحـولّ إلى عـبء على الدّول المضيفـة في المـشرق العـربيّ وشـمال إفريقيـا، وصرنـا نتحسّـس مـن ظلّنـا في هـذه الدّول الّتي سـبق أن اسـتقبلتنا بحفـاوة شـديدة، وحـدّث ولا حـرج عـن وضعنـا في أوروبا ومـا لحق بنا مـن خسـائر سياسـيّة. أمّا الولايـات المتّحدة الّـتي خرجت من الحرب البـاردة ظافرة مظفّـرة، فقـد كانـت عداوتهـا لنا تحصيـل حاصل.

بـكلام آخـر... فقـد انغلقـت الدّروب الّـتي لـم تكـن مفتوحة لنـا على أيّة حـال، وقلّـت الخيـارات المتاحـة وقـد كانـت قليلـة في واقـع الأمـر وصـارت كلّ

مكتسباتنا المتراكمة بفعل الثّورة معرضّة للتّبدّد التّدريجيّ، لدرجة أنّنا بتنا نخشى من ذهاب كلّ التّضحيات الثّمينة سدى مع الرّيح، ونتخوّف من موت الواقع الثّوريّ الفلسطينيّ دون إعلان ومن غير مراسم جنائزيّة، وذلك بعد أن انهار عالمنا السّابق، وتغيّرت سائر المعطيات الّتي ساهمت في إطلاق الثّورة والحفاظ عليها طوال الوقت. ومع أنّ مثل هذه المخاوف لم تظهر على السّطح، ولم تثر في النّقاشات الدّاخليّة إلّا أنّها كانت كامنة في النّفوس الواجمة، والصّدور المغلقة في ذلك الوقت.

لقد كانت بارقة الأمل الوحيده الّتي أضاءت لنا عتمة ذلك اللّيل الفلسطينيّ الطّويل، وتوهّجت بعد جهد جهيد، انطلاقَ ثورة الحجارة المجيدة أواخر العام ١٩٨٧، حيث رفعت تلك الانتفاضة الشّعبيّة المعنويّات الفلسطينيّة من جديد، وردّت الاعتبار للعنصر الذّاتيّ الفلسطينيّ بعد طول غياب، ووضعت بين يديّ القيادة الفلسطينيّة ورقة ثمينة كانت في أمسّ الحاجة إليها وهي تقاوم محاولات التّهميش والإلغاء، وذلك إلى الحدّ الّذي بدت فيه تلك الانتفاضة كفجر يوم فلسطينيّ جديد، خصوصاً بعد أن ملأت حجارة الأطفال شاشات التّلفزيون وصدر صفحات الصّحف في مختلف أنحاء العالم، وشكّلت رافعة سياسيّة كبرى للنّضال الوطنيّ الفلسطينيّ.

لقد أتت انتفاضة الحجارة في وقتها الملائم لإعادة إقلاع سفينة الثّورة من البرزخ الصّخري الّذي علقت فيه منذ عدّة سنوات سابقة، لا سيّما بعد أن أعلنت قيادة الانتفاضة أنّ مرجعيتها السّياسيّة هي منظمة التّحرير الفلسطينيّة الّتي كانت قد ذوت في منفاها البعيد في تونس، وكادت أن تشطب تماما في بعض عواصم المشرق العربيّ، وهو الأمر الّذي منح قياده المنظمة الفلسطينيّة شبه

المحاصرة قوّة إسناد هائلة، ووضع بين يديها ورقة سياسيّة لا تقدّر بثمن، الأمر الّذي اكسب الممثّل الشّرعيّ الوحيد حيويّة كبيرة، وأعاد المنظّمة إلى قلب المشهد السّياسيّ الشّرق أوسطيّ... ذلك المشهد الّذي كادت أن تخرج منه صفر اليدين.

إنّني وأناأستحضرُ فعل الانتفاضة الأولى في سياق هذه المقدّمة التّمهيديّة فذلك لكي أشير بكامل الثّقة أنّ هذه الانتفاضة قد شكّلتُ الرّافعة، وكوّنت الأرضيّة السّياسيّة الصّلبة لما سيلي من وقائع سياسيّة تالية، بما في ذلك مفاوضات أوسلو، حيث ردّت الانتفاضة إلى منظّمة التّحرير وقيادتها التّاريخيّة كلّ ما كانت تنتظره المنظّمة من ثمرات على أحرّ من الجمر، وزوّدتهابقوّة دفع جديدة، وكلّ ما كانت ترنو إليه من عوامل إسناد قادرة على استرداد أهليتها السّياسيّة ولياقتها كقائد معترف به للشّعب الفلسطينيّ، ناهيك عن الأهليّة اللآزمة للتّحدث باسم هذا الشّعب بثقة وجسارة بعد أن استعادت كامل صفتها التّمثيليّة الّتي كنّا نخشى أن يجري التّنازع عليها من جديد.

لا يخامرني أدنى شكّ- إن لم أقل أنّني على يقين شديد- بأنّه لولا اندلاع الانتفاضة الأولى، وتماشي قيادتها السّياسيّة والميدانيّة مع القيادة العليا الفلسطينيّة المنفيّة في تونس، لما جرت مفاوضات أوسلو من أساسها، ولما تمّ توقيع هذا الاتّفاق الّذي منحنا في القيادة السياسية قاعدة ارتكاز في فلسطين، وجعل كفاحنا أجدى من ذي قبل، وقرّبنا أكثر فأكثر من القدس وغزّة ونابلس ورام الله وجنين والخليل، ومكنّنا من بناء أسسّ كيان وطنيّ فلسطينيّ لأوّل مرّة في التّاريخ، ووفّر لنا مؤسّسات منتخبة وأجهزة، وجعلنا أقرب ما نكون من نيل حقّنا في تقرير المصير وتحقيق الاستقلال الوطنيّ المنشود.

إنّ هذه الانتفاضة الّتي جرت في عصر الفضائيّات، لحسن الحظّ، فرضت

نفسها بقوّة على الاحتلال الّذي بدا بلا نهاية مرئيّة حتّى ذلك الوقت، وهو الأمر الّذي أثار نقاشات داخليّة شملت سائر الأحزاب والمستويات السّياسيّة الإسرائيليّة، وشغلت الرّأي العامّ والصّحافة الإسرائيليّة، وأحدثت الحدّ الأدنى المطلوب من المراجعات السّياسيّة على المستوى القياديّ الإسرائيليّ لاسيّما لدى حزب العمل، الّذي كان لا يزال في مقاعد المعارضة البرلمانيّة، وهو ما شقّ طريقاً ضيقاً راح يتّسع مع الزّمن نحو إجراء نوع من الاتّصالات مع قيادة المنظّمة (قيادة الانتفاضة) بحثاً عن مخرج سياسيّ بديل عن استمرار الحرب والعنف الّذي لم يؤدِّ إلى شيء.

لقد أنهت الانتفاضة الأولى في واقع الأمر الاستخفاف الإسرائيليّ الطّويل بقدرة الشّعب الفلسطينيّ على اختراع سبيل كفاحيّ جديد أكثر فاعليّة وأشدّ مقبوليّة لدى الرّأي العام الدّوليّ، وأثمرت الانتفاضة عن غلّة سياسيّة وافرة في زمن الجدب والاستعصاء المديد، وهو ما تمثّل في تلك الانعطافة الّتي تجلّت في ما بعد لدى أوساط واسعة من النّخبة السيّاسيّة الإسرائيليّة، الّتي أخذت على عاتقها كسر المحرّمات السّابقة، والخروج من أسر الأفكار التّقليديّة الجامدة بحثاً عن خيار سلام محتمل في نهاية النّفق المعتم، الأمر الّذي تمّ التّعبير عنه في فتح خيار المفاوضات التّجريبيّة الّتي بدأت في واقع الحال في وقت متأخّر من عام ١٩٩٢، ثمّ تواصلت بوتيره عالية عام ١٩٩٣ في أوسلو.

وخلاصةالقول (في هذا الموضوع من المقدّمة الاستهلاليّة لهذا الإصدار الجديد) أنّ أوضاعنا الذّاتيّة الفلسطينيّة فضلاً عن الأوضاع المحيطة بنا من كلّ حدب وصوب كانت في أسوأ حالاتها... إن لم أقل أنّنا كنّا في أشدّ ساعات اللّيل الفلسطينيّ حلكة، ومن ثمة فقد كان خيار التّفاوض مع العدوّ التّاريخيّ-

على ما يحمله هذا الخيار من مرارات، وما ينطوي عليه من مخاطر لا يمكن التّنبؤ بها سلفا- هو الخيار الموضوعيّ المتاح دون مزيد من المكابرات، وكانت تلك اللحظة لحظة مواتية للبحث عن مخرج واقعيّ من الطّريق المسدود، وهي في الواقع لحظة سياسيّة فارقة التقطتها القيادة التّاريخيّة الفلسطينيّة بكلّ براعة، وأمسكت عليها بكلتا اليدين، ومضت في تجريبها تحت شعار «وما الّذي سنخسره إذا فشل هذا الخيار غير المسبوق».

وهكذا، فإنّ ما سبق ذكره في الفقرات السّابقة قد يعيد النّقاش الّذي لم يتوقّف إلى سياقه الموضوعيّ حول منطلقات خيار المفاوضات الّذي بدا لنا كممرّ إجباريّ قد يؤدّي إلى تصويب كلّ الأحكام النقديّة المتعلّقة بمفاوضات عمليّة السّلام، الّتي أعتقد أنّها كانت طاقة فرج انفتحت علينا بعد أن شارفنا على الوصول إلى لحظة يأس ومرحلة انكفاء لا يعلم بها إلّا الله. ولنا أن نتخيّل ما الّذي كنّا سننزلق إليه لو أنّ الأوضاع البائسة في المنافي البعيدة استمرّت في عمليّة التّآكل التّدريجيّ ثمّ وقع ما صار يعرف باسم الرّبيع العربيّ، حيثكنّا لا نزال في تونس، وقوّاتنا كانت موزّعة في عدد من الدّول العربيّة الّتي شهدت كلّ هذا الاضطراب العظيم.

وهكذا فقد كان خيار المفاوضات ثمّ اتّفاق أوسلو بمثابة اختراق سياسيّ هو الأكبر في جدار سميك كان يسدّ الطّريق السّياسيّ الفلسطينيّ نحو المستقبل، وكان في الوقت ذاته نقطة انطلاق لا سابق لها من حيث الأهمّيّة اتّجاه الخروج من لحظة استعصاء بالغة الخطورة؛ واجهت الثّورة، وأحاطت بالشّعب الفلسطينيّ، وظلّت تتفاقم على نحو تدريجيّ إلى أن حدثت الانتفاضة الفلسطينيّة المجيدة بكلّ ما انطوى عليه هذا الفصل الثّوريّ الشّعبيّ من طاقات كانت كامنة،

حيث أعادت خلط الأوراق، وأقامت بعض التّوازنات، وخلقت معادلة جديدة بدت صالحة للبناء عليها.

والحقّ إنّ المفاوضات الّتي لم يعرفها الفسطينيون من قبل كانت كشيء من المحرمات في الثّقافة الشّعبيّة، ومحطّ ازدراء شديد من جانب النّخب السّياسيّة... وكانت في حينه أشبه بالتّجديف عكس تيار مياه نهر جارف... إن لم أقل إنّها كانت بمثابة خروج سافر على التّقاليد والنّواميس والثّوابت المستقرة عميقاً في الوجدان الفلسطينيّ، الأمر الّذي زاد من تهيّب القيادة السّياسيّة العليا وهي تشرع في المضيّ قدماً على هذا الدّرب الزّلق، والدّخول في مغامرة سياسيّة محفوفة بالمخاطر،والّتي قد ترتدّ على حاضر الشّعب الفلسطينيّ ومستقبله، عدا عن ارتداداتها الكارثيّة المحتملة على سمعة هذه القيادة التّاريخيّةومكانتها وتاريخها.

خلاصة القول إنّنا لم ناخذ هذه المخاطرة الكبيرة (ونعني بذلك التفّاوض مع ممثلي الحكومة الإسرائيليّة) باستخفاف ورعونة ليست معهودة أصلاً لدى القيادة الفلسطينيّة، ولم نسقط من حساباتنا الآثار المباشرة والجانبيّة الّتي قد تلحق بالصّورة النّضاليّة الّتي صنعها تاريخ طويل ومجيد على طريق الكّفاح المسلّح، بل إنّنا على العكس من ذلك كلّه كنّا كمن يلتقط الجمرات المتوهّجة من بيت النّار برؤوس أصابعه العاريّة ونحن ندرك التّداعيات والمضاعفات المحتملة لمثل هذا الخيار الصّادم للأكثريّة الشّعبيّة الّتي تربّت على ثقافة الرّفض، وهتفت بملء حناجرها لكلّ الشّعارات الثّوريّة لعقود زمنيّة طويلة.

وفي واقع الأمر فإنّ صاحب هذه السّطور لم يكن بعيدا عن تلك الأجواء الّتي كان يحلّق فيها المناضلون والمثّقفون والمقاتلون الفلسطينيون، بل أنّني كنت جزءاً لا يتجزّأ من هذه الحالة الشّعبية الرّافضة في قرارة نفسها لأيّ تحوّل من

هـذا النّـوع في مسـار الثّـورة الفلسـطينيّة، إن لـم أقـل أنّـني كنت أحسـب نفسي واحـداً مـن المناضلـين العضويـين الرّافضـين مـن حيـث المبـدأ المسـاس بالصّورة الفلسـطينيّة الرّومانسـيّة المؤمنة بحقّ الشّـعب الفلسـطينيّ بكامل أرضـه الوطنيّة، والمعارضـة لـكلّ مظهر من مظاهـر الخروج عن الثّوابت محلّ الإجمـاع لدى الفصائل والقـوى والنّخـب الفلسـطينيّة بمـا في ذلـك إجـراء الاتّصـالات الاستكشـافيّة في اواسـط عقد التسـعينات مـع بعض القـوى الدّيمقراطيّـة الإسرائيليّة.

لقـد كان معلومـاً أنّـه كانـت هنـاك بعـض المسـاعي المتفرّقـة والاتّصـالات نصـف السّرّيّـة الّـتي قامت بها بعـض الكوادر والقيـادات من الصّفّ الثّـاني باتّجاه عقـد المباحثـات غـير الرّسـميّة مـع قـوى هامشـيّة إسرائيليّـة كانـت تعـرب عـن تفهّمهـا لحقـوق الشّـعب الفلسـطينيّ، وهو ما أثـار غضباً سياسـيّاً فلسـطينيّاً عارماً شـمل معظـم القـوى والأحـزاب والفصائـل، وأطلـق موجة عارمـة مـن الاتّهامات القاسـيّة لتلك الشّـخصيّات الّـتي غامرت تحت غطاء سـياسيّ خفيـف بعقد بعض المحادثـات مـع شـخصيات إسرائيليّـة مناظـرة لهـا مـن حيـث التّوجـه العـامّ، ثـمّ أدّى ذلـك كلّـه إلى اغتيـال عـدد من هـذه الشّـخصيّات الفلسـطينيّة الّـتي لم تحظ بالتّعاطـف، ولـم تنل أي شـعبية.

لقـد كانـت كلّ تلـك الحقائـق والوقائـع والدّروس حـاضرة بقـوّة لدى أركان القيـادة الفلسـطينيّة وهم يتدارسـون فيمـا بينهم وراء أبـواب مغلقة خيـار القبول بعـرض غامـض لإجـراء محادثـات ذات صيغـة أكاديميّـة مـع اثنـين مـن الباحثين الجامعيـين الإسرائيلـين، كانلديهمـا قـدر مـن الاهتمـام النّظـريّ باستكشـاف الممكنـات الّـتي يمكـن توسـيعها في إطـار علاقة مـا لم تكـن لها ملامـح محدّدة، وذلـك كخطـوة أولى على طريـق طويل لا ضـوء فيه، والّذي قد يفـضي في نهايه الأمر

إلى إقامة أوّل قناة اتّصال،والّتي ستأخذ فيما بعد طابعها الرّسميّ بين عدوّين لم يتواجها من قبلُ إلّا عبر فوّهات البنادق الأتوماتيكيّة.

عندما عرض الأمر عليّ توجّست كثيراً، وتردّدت طويلاً، حيث كنت أخشى على نفسي وعلى سمعتي، بل وعلى أولادي من الإقدام على حمل أخطار هذه المهمّة الّتي لا أعرف كيف ومتى وأين ستنتهي بي وبالقضيّة الّتي أمثّلها، لا سيّما وأنّها سابقة دفع الكثيرون ثمنا باهظا لها من أمثال المرحومين عصام السّرطاويّ وسعيد حمامي ومحمود الهمشري وعزّ الدين القلق وغيرهم، الأمر الّذي حملني على موازنة المسألة وفق حسابات شخصيّة محضة، حيث كنت أحسب أنّها كانت مشروعة للغاية، وطبيعيّة جدّاً علىدرج أخذ الأمور بجديّة تامّة، وتوزين الاعتبارات الشّخصيّة والعامّة بميزان الذّهب الحسّاس.

وفي غمرة هذا التّردّد وهذه الحسابات تلقيّت تشجيعاً مهمّاًمن بعض القيادات السّياسيّة للانتفاضة: بعضها عبر الرّسائل الشّخصيّة، وبعضها الآخر من خلال المقابلات الثّنائيّة المباشرة، لا سيما مع القائد المرحوم فيصل الحسينيّ ومع الدّكتورة حنان عشراوي، ناهيك عن بعض الكوادر السّياسيّة والسّفراء الفلسطينيين في أوروبا ممّن شدّوا على ساعديّ، مثل عفيف صافية، وبثّوا قدراً من الثّقة والاطمئنان في أعضائي، قائلين لي: «إذا لم تكن مثل هذه المغامرة مفيدة، فإنّها لن تكون ضارّة على أيّ حال»، ثمّوما الّذي سوف نخسره ونحن على ما نحن عليه من خسارات كبيرة؟ الأمر الّذي دفعني إلى اجتياز حاجز التّردّد النّفسيّ والسّياسيّ، دون أن أسقط الحذر الشّخصيّ من حسابي.

وأحبّ هنا أن أتحدّث قليلاً عن مشاعري الشّخصيّة عندما توجّهت إلى مقابلة الأستاذين الجامعيين الإسرائيليين في مطعم داخل أحد فنادق العاصمة

البريطانيّة، وكان بصحبتي ممثّل منظمة التّحرير في لندن الأخ عفيف صافيّة. كنت قلقاً، أو كما قال أبو الطّيب المتنبيّ: على قلق كأنّ الرّيح من تحتي...وكنت متهيبّاً جدّاً من أوّل لقاء وجهاً لوجه مع اثنين من الإسرائيليين الغامضين ممّن لا أستطيع التّمييز بينهما وبين أيّ من وجوه المحتلّين، الّذين شرّدوا شعبيّ، وسرقوا وطني، وحرموني من حقّ العودة إلى مسقط رأسي في أبوديس. لذلك فقد كان اللّقاء الأوّل مع العدوّين اللّدودين لقاءً جافّاً... وحذراً... ومحطّ شكوك عميقة .

كانت الشّكوك لا تزال تعتمل في داخلي حتّى أنّني كنت أستعجلُ بيني وبين نفسي انتهاء تلك المقابلة، وأن أسقطها من الذّاكرة رغم كلّ ما أبداه الأستاذان الجامعيان من مودّة وكياسة كنت أعتقد أنّها زائفة وخادعة. كنت في بدايه اللّقاء المنعقد في مكان عام، وبغض النظر عن أي نتائج، نادماً على قبولي تجرّع مثل هذا الكأس المريرة حتّى الثّمالة، وعلى تجاوزي لتحفّظاتي المبدئيّة، وتعريض نفسي لهذه المجازفة الّتي ربما ستشكّل فيما بعد نقطة سوداء في صحيفة نضالي الوطنيّ وسمعتي السّياسيّة والشّخصيّة.

في اللّقاء الأوّل كان يائيرهيرشفيلد وحده، فيما رافقني اللّقاء الأخ عفيف صافية الّذي كان يعرف هذه الشّخصيّة الإسرائيليّة من قبلُ، وكان لديه انطباعات حسنة عنه.

جلسنا نحن الثّلاثة دون أن ندري من أين نبدأ، وأيّ الموضوعات الّتي يمكن الخوض في غمارها، فقد كان الحذر والتّحفظ مسيطرين على الجميع طوال هذا اللّقاء الّذي استمرّ مدّة ساعتين. ويبدو أنّ محدثي الإسرائيليّ لم يجد موضوعاً عامّاً يتحدّث فيه معي ويثير فضولي واهتمامي الشّخصيّ أفضل من

الحديث عن الورقة الاقتصاديّة (عوائد السلام) الّتي كنت قد تطرّقت فيها إلى مسألة التّنميّة الاقتصاديّة المتوازنة في الشّرق الأوسط، ثمّ انتقلنا بعد ذلك إلى ملامسة بعض القضايا المتداولة أنذاك.

انتهى ذلك اللّقاء دون أن يثير لديّ ما يكفي من الانطباعات الجيّدة. فقد بدأنا في العموميّات وانتهينا بها، وكأنّه لقاء كان بلا غاية محدّدة. غير أن منطق يائيرهيرشفيلد وانفتاحه أثار استحساني، ومن ثمّة فقد وافقت على اللّقاء به مرّة ثانية حين طلب ذلك وهو غير واثق من موافقتي. وبالفعل فقد التقيت أنا وهيرشفيلد وعفيف صافية مرّة ثانية في فندق آخر في لندن، وأكملنا حديثنا العامّ السّابق بأفكار عامّة أيضاً. وكان أهمّ ما قاله محدثي الاسرائيليّ أنّ حكومة إسحق رابين الّتي فازت لتوّها في الانتخابات العامّة جادّة في البحث عن السّلام، وبالتّالي فإنّ أمام الفلسطينيين فرصة يجب استغلالها، لعلّ ذلك يساعد في التّوصّل إلى اتّفاق سلام يكون مرضيّا للطّرفين.

في نهاية ذلك اللقاء عرض يائيرهيرشفيلد عليّ اللّقاء مرّة ثالثة، واقترح أن يكون ذلك اللّقاء في العاصمة النّرويجيّة أوسلو، الأمر الّذي أثار دهشتي واستغرابي إزاء مكان الاجتماع المقترح. غير أنّه بعد أسابيع قليلة جاء تيري رود لارسن- وهو ناشط نرويجيّ- إلى تونس، وزارني في مكتبي، ثمّ قدّم لي دعوة لزيارة النّرويج، وقد كان هذا النّاشط يعرف عن لقائي مع هيرشفيلد، ثمّ طلب مقابلة مع الأخ (أبو عمّار) الّذي استقبله في وقت لاحق، وقال له: «إنّ النّرويج يمكن أن تقوم بما قامت به السّويد من قبل في إطار فتح الاتّصالات الأمريكيّة الفلسطينيّة»، الأمر الّذي عَدَّة لارسن بمثابة موافقة شفويّة على افتتاح قناة أوسلو.

تـمّ تكليـفي بعـد ذلك رسـميّاً مـن قبل القيـادة الفلسـطينيّة بحمـل جمرات هـذه المهمّـة الثّقيلـة على النّفـس. فقـد كنـت في حالـة أقرب مـا تكـون إلى حالة عـدم اليقـين، وإنّـني أحمل وزراً لـم يسـبق لي أن حملتُ مثلـه من قبـل، وانيطت بي مهمّـة بـدت ثقيلـة من أوّلها، ناهيـك عن كونها معقـدة وطويلة وخطـيرة معاً، كي لا أقـول أنّهـا بدت لي شـبه مسـتحيلة مثل إدخـال الجمل من خـرم إبرة، وذلك لشـدّة مـا كنت أعانيه سـلفاً مـن صعوبات على هـذا الطّريق الـسّرّيّ الموحـش، وما كنت أدركـه مـن تحدّيـات ومحاذيـر وأهـوال جسـيمة تتربّـص بي وراء البـاب تمامـاً كما تربّصـت مـن قبل بكثير من الـرّوّاد والطّلائعيين والاسـتشرافيين لفكرة السّـلام، حيـث ذهبـوا هـم، وبقيت فكـرة السّـلام حيّة على أيّـة حال.

لقـد بـدا لي المشـهد قبـل أن أدخـل إلى عوالمـه الغامضـة مشـهداً مليئـاً بالفـرص القليلـة والعواقـب الخطـيرة، وتبـدت أمـام ناظـري الأجزاء السّـفلى من جبـل هـذه المهمّـة الطّافية في بحر مـن العـداء والدّم والكراهيّـة، وتزاحمت في رأسي صـور لا حـصر لهامن فصـول كتاب الصّراع المديـد: صراع البقـاء في مواجهة النّفي والاقتـلاع، وصراع العـين في مقاومـة المخـرز، وصراع الحمـل في منازلـة الذّئـب، وأخـيراً صراع الحجر أمام الرّشّـاش في انتفاضة السّـواعد الصّغـيرة الّتي كات لتوها قد شـبّت عـن الطّـوق بسرعة.

كمـا داخلتـني ذكريـات الهزائـم والمنـافي و الحصـارات؛ المـدن الموصـدة، والشّـوارع المغلقـة، والأرض غـير الآمنـة، والأجـواء المكفهـرة، والآفـاق المطبقـة، والكمائـن المباغتـة، والآمـال المجهضـة، والفـرص الضّائعـة.

وبينمـا كنت أتهيّـأ لحزم حقائـبي وأوراقي قبل خوض هـذه التّجربة المفتوحة على كلّ الاحتمـالات، تداعـت إلى الذّهـن أحوالنـا في منظّمـة التّحرير الفلسـطينيّة

المحاصرة، وحالة الضّعف الّتي ألمّت بالنّظام السّياسيّ الفلسطينيّ، والتّحولات الكبرى الجارية في المشهدين الدّوليّ والإقليميّ، تلك التّحولات الّتي كانت تهدّد بشطب القضيّة الفلسطينيّة عن جدول الأعمال الدّوليّ، فيما كانت أغلبيّة القيادات الفلسطينيّة غير مدركة لمضاعفات زمن ما بعد نهاية زمن الحرب الباردة واختلال ميزان القوى الدّوليّة، ناهيك عن مدى تأثير الانقسامات العربيّة على الواقع الفلسطينيّ الصّعب، وهو الواقع الّذي ازداد صعوبة بعد حرب الخليج الثّانية، تلك الحرب الّتي ارتدّت علينا بجملة طويلة من النّتائج السّلبيّة القاسية.

كما تداعت إلى الذّهن- وأنا أحزم حقائبي في الطّريق إلى مغامرة أوسلو- صورة الواقع الفلسطينيّ في الشّتات بكلّ ما كان ينوء به هذا الواقع من حقائقينقبض لها القلب، وينفطر على ما آل إليه الحال الفسطينيّ الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ من سلبيّات لا حصر لها. كما تداعت أيضاً صورة الأوضاع الفلسطينيّة في الأرض المحتلّة، حيث كانت الانتفاضة المجيدة قد أدّت دورها، واستنفذت اغراضها، وتحوّلت من رافعة عظيمة لنيل الحقوق الوطنيّة المشروعة إلى عبء ثقيل الوطأة على كاهل الشّعب الفلسطينيّ عندما تحوّلت هذه الأداة الكفاحيّة الّتي لا سابق لها في تاريخ حركات التّحرير الوطنيّ إلى عبء على شعب الانتفاضة، جراء بروز بعض المظاهر المؤسفة الّتي لا مجال للخوض فيها الآن.

كما قفزت إلى الذهن أيضاً صورة انهيار الاتّحاد السّوفياتيّ الصّديق، وبروز الولايات المتّحدة بمثابة القطب الدّوليّ الوحيد، فيما كان مؤتمر مدريد للسّلام الّذي استثنى منظّمة التّحرير الفلسطينيّة من المشاركة في أعماله، حيث تحوّلت

مفاوضاتـه إلى مـا يشـبه حوار الطّرشـان، وأحيانـاً إلى مهاترات وتراشـق بالتّهم أمام كمـيرات التّلفزيـون، فيما باتـت مفاوضات واشـنطن الجارية في كريـدورات وزارة الخارجيّـة الأمريكيّـة تواجـه حائطـاً سـدّته المـراوغات الإسرائيليّـة، وهـو الأمـر الذي خلـق مزيـداً من الإحباط لدى الشّـارع الفلسـطينيّ، وجعله يائسـاً من إمكان تحقيـق أيّ تقدّم على المسـار السّـياسيّ مـع حكومة يمينيّـة ليكوديّة.

وعلى هـذه الخلفيّـة تداعـت إلى الذهن كلّ هـذه الصّور والمشـاهد والذّكريات الّـتي تثقـل على العقل والرّوح، وأنا بعـد أتهيّأ للملمة أوراقي، وأتحسّـس موضع قدميّ اسـتعداداً لخـوض غمار تجربـة تفاوضيّة مـن المقدّر لهـا أن تجري- مع الأسـف- في أسـوأ ظـروف ذاتيّـة فلسـطينيّة، وضمن أصعـب معطيات يمـرّ بها الوضـع العربيّ، ناهيـك عـن أوضـاع دوليّة تهبّ فيهـا رياح شـديدة البرودة، وذلـك كلّه على عكس مـا كانـت تشـتهيه سـفينة الكفـاح الوطـنيّ الفلسـطينيّ المبحـرة في مضيـق ضحل الميـاه. فمـا بالـك وهـذه التّجربـة التّفاوضيّـة المحفوفـة بـكلّ المخاطـر، والمثقلـة بـكلّ الوقائـع غـير المواتية المقـرّر إجراؤهـا بتكتّم شـديد في بلاد قطبيّـة بعيدة.

أقـول الآن بملـئ فـمي: لقـد بـدت طريـق أوسـلو بمثابة ممّـر إجبـاريّ كان علينـا عبـوره بالصّبر وسـعة الخيال وقـوّة الإرادة، ونحـن نضع نصـب أعيننا واجب الحفـاظ على قضيـة شـعبنا مـن الاندثـار في زمـن التّحـوّلات الدّوليّـة الكـبرى، وفتـح كـوّة أمـل في جدار الحصـار والعزلـة المطبق حولنـا؛ لإدامة الكفـاح الوطنيّ، والاسـتمرار فيـه بسـبل أخرى غـير متصادمة مـع حقائق عصر عالم جديـد أحادّي القطبيّـة؛ عالـم تقـرّر فيـه دولـة عظـمى بمفردهـا ماهيّـة الشّرعيّـة ومعايـير الحق والتطبيقـات العادلـة، عالـم تعـادي فيـه دولـة كلّ حركـة تحرير على وجـه الأرض، وتـرى في كلّ كفـاح مسـلّح عمـلا مـن أعمـال الإرهـاب المدانـة... فيمـا تتجاهـل

بالمقابل كلّ ما تقوم به إسرائيل من احتلال واستيطان وقمع وإرهاب لشعب محروم من أبسط حقوقه الشّرعيّة، وفي مقدّمتها الحرّيّة والاستقلال.

لم يكن الطّريق إلى محطّة أوسلو يسير على خطّ مستقيم... كان مشوّشا ولا أنيس فيه؛ فقد كان عليّ بلوغ نهاية هذا الخطّ عبر عدّة عواصم ومطارات وفنادق: أوّلها كان في تونس، وفي الوسط كانت لندن، وآخرها كان في العاصمة النّرويجيّة، حيث القناة السّرّيّة والوسطاء الغامضون والمفاوضون المجهولون، الأمر الّذي جعلني بعد مرور كلّ هذه الأعوام غير قادر على أن أحدّد على وجه اليقين من أيّ نقطة بالضّبط كان الانطلاق، ومن أين بدأت هذه الحكاية الّتي كانت خيوطها تنسج في أماكن متفرّقةعلى أيدي نسّاجين مختلفي الجنسيّات، والأهواء، والمصالح، والأولويات الّتي لم تكن الأولويّة الفلسطينيّة من بينها.

إنّني أحبّ أن أسمي قناة أوسلو بقناة الصّدفة الموضوعيّة البحتة، على اعتبار أنّها قناة غير معدّ لها سلفاً، ولا مخطط لها من قبل؛ إذ ربما تكون بدايتها قد حدثت في القاهرة على يد زوجة السّيد تيري لارسون السّيدة منى جول الموظّفة في السّفارة النّرويجيّة هناك، وربما تكون الخطوط التّمهيديّة الأولى قد نسجت عندما انضمّ تيري لادسون إلى زوجته في العاصمة المصريّة آنذاك، وبدأ اهتمامه بالأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة للفلسطينين في الأراضي المحتلّة، وما اقتضاه ذلك من إقامة شبكة علاقات مهنيّة وشخصيّة، وتأسيس شبكة اتّصالات منهجيّة متنوّعة من فلسطينيين وإسرائيليين على صلة مباشرة بالوضع القائم، ممن قد يساعدون لارسون على إنجاز بحثه عن الأحوال الاجتماعيّة الفلسطينيّة القائمة في قطاع غزة في ذلك الوقت.

إنّ اللّقاء الّذي جرى في أوسلو على هامش زيارة رسميّة لوفد فلسطينيّ

اقتصاديّ قد يكون هو الأوّل من نوعه على صعيد العلاقة الفلسطينيّة مع ذلك البلد الإسكندنافيّ إحدى البدايات المبكرة لعمليّة أوسلو، حيث كانت الورقة الّتي سبق لي أن أعدّدتها تحت عنوان (عوائد السّلام في الشّرق الأوسط)، وقدّمتها إلى المفاوضيّةالأوروبيّة... أقول: قد يكون ذلك نقطة بداية أخرى لعمليّة أوسلو اللّاحقة، فقد علمت فيما بعد أنّ هذه الورقة الّتي اهتمّ بها الأوروبّيون والأميركيون قد وصلت إلى إسرائيليين، واطّلع عليها شمعون بيريس وبوسي بيلينويائيرهيرشفيلد وغيرهم، والّذين ممّن رأوا أنّ هذه الدّراسة يمكن أن تشكّل الأساس الفكريّ لحوار فلسطينيّ إسرائيليّ محتمل في المستقبل.

وربما تكون بذور عمليّة أوسلو قد نبتت في القدس قبل ذلك عبر تلك الحوارات المنهجيّة الّتي كان يجريها الأخّ فيصل الحسينيّ والدّكتورة حنان عشراوي وغيرهما مع عدد من المسؤوليين والأكاديميين والإعلاميين الإسرائيليين.

غير أنّه مهما كانت نقطة البداية الخاصة بعملية اوسلو، فقد تجمّعت الخيوط كلّها في نهاية المطاف عند محطّة أوسلو ذاتها، فبدت وكأنّها روافد صغيرة صبّت في مجرى نهر واحد راح يشقّ طريقه مع مرور الوقت... إلى أن صبّت مياهه في بحيرة سياسيّة كبيرة أعادت تغيير الواقع الجيو سياسّيّ في الشّرق الأوسط، وأسّست لنقطة انطلاق كبرى كان مقدّراً لها أن تحدث اختراقاً تاريخيّاً غير مسبوق في مجرى الصّراع العربيّ الإسرائيليّ الطّويل.

على أيّ حال، وأيّاً كانت البدايات الممهدة لقناة أوسلو السّريّة، فإنّه يمكن تحديد شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٩٢ نقطة انطلاق لهذه العمليّة الّتي لم تكن واضحة في بداية الأمر. غير أنّه كان لديّ اعتقاد ذاتيّ أنّ ما نحن بصدده

مجـرد محاولـة أميركيّة إسرائيليّة مشـتركة ترمي إلى إحداث اخـتراق ما في مفاوضات واشـنطن الجاريـة آنـذاك بتعـثّر شـديد، ولم يكـن يخطر في بـالي أنّني سـأبدأ بفتح قنـاة تفاوضيّـة موازيـة، أو ربمـا بديلـة عـن تلـك المفاوضـات العبثيّـة الجاريـة في ممـرّات وزارة الخارجيّـة الأميركيّـة، حتّى أنّـني عندما وافقت محـدّثي الإسرائيليّ على لقـاء في أوسـلو اشـترطت عليـه أن يقـدّم ما يتـمّ التّوصّل إليـه في ختـام مفاوضاتنا إلى المتفاوضـين في واشـنطن كي يتبنّوه بأنفسـهم.

كانـت هـذه القناعـة (الّـتي ثَبـت فيمـا بعـد أنّها كانـت زائفـة) مجـرّد قراءة للمشـهد المتشـكّل في خضّـم لحظة تاريخيّـة مثقلة بالذّكريـات المريرة المسـتمدّة من سـجل صراع لـم يعـرف الحـوار إلّا عـبر البندقيّـة على مـدى عقـود طويلـة داميّة، ممّـا يعـني أنّنـا كنّـا- ونحـن في الطّريق إلى أوسـلو- كمـن لا يزال على رمال شـاطئ البحـر يحـاذر العـوم في ميـاه لا يعـرف مـدى عمقهـا ولا شـدّة الحوامـات المائيّـة الغائـرة تحـت سـطحها، ولذلك فقـد بقيت راغبـاً في الحذر مـا أمكنـني، وممتنعاً في قـرارة نفـسي عـن التّحليق بخيـالي في فضـاء عمليّة سـلام، لـم يجـرؤ على تصوّرها أشـدّ الحالمـين الرّومانتيكيـين أو الرّوائيـين المحلّقين، وذلك لشـدّة مـا تنطوي عليه الذّاكـرة والتّجربـة من مـرارات لا حـدّ لها.

الجزء الأوّل

مفاوضات أوسلو

أحبّ دائماً أن أسمّي قناة أوسلو السّرّيّة بقناة الصدفة الموضوعيّة، وذلك عندما أتحدّث عن هذه التّجربة التّفاوضيّة المبكّرة الّتي بدت لي كنقطة ضوء ضئيلة، إلّا أنّه كان عليّ اختبار هذه الفرصة الّتي كانت تلوح في الأفق النّرويجيّ الملبدّ بالغيوم الكثيفة وسط طوق من السّرّيّة المطلقة، وفي أضيق حلقات الاتّصال الممكنة. فإذا كان لدى الطّرف الإسرائيليّ المفاوض اعتباراته الدّاخليّة وحساباته الحزبيّة والشّخصيّة أيضاً لإجراء هذه الاتّصالات بتكتّم شديد، فقد كان لدى القيادة الفلسطينيّة ولديّ حسابات وتحسّبات مقابلة، كان في مقدّمتها المحاذير الخاصّة بأوّل تفاوض من نوعه مع العدّو الأوّل للشّعب الفلسطينيّ، ومن بينها الحفاظ على قناة واشنطن الرّسميّة والمعتمدة للمفاوضات.

أقول بعد مرور كلّ هذا الوقت الطّويل على عمليّة أوسلو: إنّ السّرّيّة التّامّة والتّكتّم الشّديد لم يكونا مجرد شرط اتّفق عليه الطّرفان سلفاً وحسب، وإنّما كانا أيضاً عاملين مهمّين من عوامل إنجاح هذه العمليّة، حيث ساعدت الحاجة المتبادلة إلى العمل وراء أبواب محكمة الإغلاق- كما اتّضح فيما بعد- في تخطّي الكثير من المآزق والأزمات الّتي كانت تنفجر أحيانا في وجوه المتفاوضين وجهاً لوجه.

على خشبة المسرح النّرويجيّ الّذي كنت أعتقد انّه أصغر بكثير من أن يتحمّل كلّ هذا الفيض من التّعقيدات التّاريخيّة الكامنة في قلب الصّراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ، تواصلت فصول كتاب أوسلو من ألفه إلى يائه الختاميّة، حيث كانت آخر الكلمات الّتي سمعتها من الأخّ الشّهيد القائد ياسر عرفات قبل التّوجّه مباشرة إلى أوسلو قوله: «الفرصة محدودة ونهايتها غير معروفة، لكنّها تستحق الاهتمام». كما قال الأخّ أبو مازن في تلك المناسبة: «إنّها فرصة محدودة للغاية، ولا يعوّل عليها كثيراً، لكن لنجرّب، فنحن نجري اختبارات لما هو أقلّ منها، دعنا نختبر هذه الإمكانيّة الّتي تلوح في الأفق البعيد».

على أيّ حال، وصلت مع فريق المفاوضات الفلسطينيّ الّذي كان يضمّ كلاً من الأخّ حسن عصفور والأخّ ماهر الكرد إلى العاصمة النّرويجيّة يوم ٢٠/ ١/ ١٩٩٣، ولم يكن لدى أيّ واحد منّا نحن الثلاثة فيزا دخول، حيث افترضنا أنّ مضيفينا تيري لارسون وزوجته منى غول قد رتَّبا الأمور سلفاً للعبور من نقاط الدّخول في المطارات بالسّرّيّة التّامّة المفروضة على هويّة المتفاوضين، إلّا أنّه حدث لنا في المطار في أوسلو ما لم يكن في الحسبان حينما اكتشف موظف الهجرة والجوازات النّرويجيّ أنّنا لا نحمل سمة دخول، الأمر الّذي أثار ارتيابه، فيما كان تيري لارسون يقف بعيداً عنّا دون حراك، فقلت في نفسي: إذا كانت هذه هي البداية - وهي غير مشجّعة على الإطلاق- فكيف ستكون النّهاية المأمولة من وراء هذه الزّيارة؟

خلاصة الأمر هو أنّنا بعد عذاب وطول انتظار حصلنا على سمات الدّخول بفضل الجهود الّتي بذلها تيري لارسون، وعبرنا نقطة التّفتيش في حالة من الغضب الشّديد، حيث انفجرت في وجه المضيّف النّرويجيّ الدّمث

لائما وممتعضا ممّا حدث لنا في أوّل خطوة نخطوها على طريق أوسلو الغامض الطّويل. وفي نهاية الأمر اصطحبنا لارسون بسيّارة كانت تنتظرنا في المرآب بعيداً عن مخرج المغادرين والواصلين، وهو ما أثار حفيظتي مرّة أخرى، إلّا إنّني قرّرت ابتلاع هذا الموقف غير اللّائق مغلبّا الاعتبار الموضوعيّ على الجانب الشّخصيّ، وواضعا نصب عينيّ إنجاز المهمّة الّتي جئت من تونس لأجلها وسط أدنى توقّعات.

وبعد مرور ساعتين، وصلنا إلى مدينة تقع على حافّة شلّال تحيط بها الأشجار من كلّ ناحية، وإذا بنا ندخل قصراً خشبيّاً من عدّة طوابق مبنيّاً على الطّراز النّرويجيّ الّذي يحاكي عصر الفايكنج، وكان اسم المدينة سارسبورغ، فيما كان اسم القصر بوريغاد. ومع أنّ الوقت كان متأخّرا إلّا أنّه تمّت عمليّة تعارف مع نظرائنا من الجانب الإسرائيليّ، حيث قدّم لنا النّرويجيون شخصا آخر غير يائير هيرشفيلد الّذي سبق أن تعرّفت عليه في لندن، هو رون بوندك، والّذي اتّضح لنا فيما بعد أنّه أحد تلاميذ هيرشفيلد، وكان عمره ٣٨ عاما، وأنّ الرّجلين يعملان في حلقة أبحاث صغيرة تابعة ليوسي بيلن في إطار حزب العمل الإسرائيليّ... وكان ذلك عكس انطباعاتنا الأولى حول هذين الرّجلين.

في اليوم الأوّل لوصولنا إلى أوسلو، وإمعاناً من الجميع في السّرّيّة، جرى اللّقاء الاوّل تحت عنوان دراسة نتائج البحث الّذي قام به معهد فافو، وكان يرأسه تيري لارسون، حيث حضر اللّقاء لارسون وزوجته منى، إضافة إلى السّيدة ماريان هيبرغ الاختصاصيّة الاجتماعيّة المتزوجة من وزير الدّفاع النّرويجيّ السّيد جوهان يورغن هولست. وبعد حفل الغداء الّذي أقامه السّيد جان ايغلاند نائب وزير الخارجيّة انسحب النّرويجيون الثّلاثة من المكان

تاركين وراءهم ثلاثة من الفلسطينيين واثنين من الإسرائيليين في مواجهة بعضهم بعضا أمام مائدة تشتعل قبالتها مدفأة، فيما الثّلج كان يحيط بالمكان المعزول عن العالم إحاطة السّوار بالمعصم.

وهكذا دخلنا فيما يمكن أن نسمّيه اللّقاء الاوّل، وهو في واقع الأمر ثالث لقاء لنا إذا أخذنا بعين الاعتبار اللّقاءين اللّذين عقدتهما في لندن أواخر عام ١٩٩٢، أي قبل نحو ستّة أشهر مع يائير هيرشفيلد، حيث أبلغنا تيري لارسون قائلا: «إنّه إذا أردتم أن تعيشوا معاً، فإنّ عليكم ان تحلّوا المشاكل بأنفسكم، أنتم أصحاب المشكلة، ونحن هنا لتقديم المساعدة عندما تطلبوها منّا، فنحن نستطيع أن نؤمّن لكم المكان والخدمات، ونستطيع أن نكون مسهّلين بما في ذلك استخدام الهاتف لكن ليس أكثر»، ثمّ اختتم حديثه قائلاً: «سأنتظركم خارج هذه القاعة حيث سأبقى ضمن القصر، ولن أتدخل إلّا إذا تشابكتم بالأيدي».

وفيما يمكن أن نطلق عليه أوّل جولة تفاوضيّة على مسار أوسلو اسم جولة أولى، فقد استمرّت الاجتماعات مدّة يومين، حيث كان النّقاش والحوار يتواصل خلالهما من المساء إلى ساعات الصّباح الأولى، ومن الصّباح حتّى هبوط اللّيل.

كان مجموع ما انقضى من جدالات في هذه الجولة نحو اثنتين وعشرين ساعة، شربنا فيها القهوة في منتصف اللّيل، وتناولنا فطورنا عصر اليوم التّالي، وتناقشنا في مختلف الموضوعات، وقرّرنا خلالها ألّا نعود للماضي كثيرا من أجل التّركيز على الحاضر والمستقبل، علّنا نصل إلى نقاط نتوافق عليها، وتحديد القضايا الخلافيّة بيننا.

انطلق حديثي في الجولة الأولى مستنداً إلى عشرة مبادئ توجيهيّة تمّ وضعها في تونس مع (الأخّ أبو عمّار) و(الأخّ أبو مازن)، حيث كانت هذه المبادئ ملخّصة على النّحو الآتي:

١. الهدف هو الوصول إلى اتّفاق سلام عادل وشامل ونهائيّ.

٢. نطاق السّلطة الانتقاليّة الفلسطينيّة يشمل الأراضي المحتلّة عام ١٩٦٧ على أساس قرارات الأمم المتّحدّة.

٣. تمارس السّلطة الانتقاليّة السّلطات الّتي يتمّ الاتّفاق عليها مع الأخذ بعين الاعتبار إجراء مراجعة للقوانين المرعيّة.

٤. يتمّ انتخاب السّلطة الانتقاليّة بالانتخاب الحرّ والمباشر لجميع سكّان الضّفّة الغربيّة والقدس وقطاع غزّة حسب إحصائيّة السّكّان يوم ٤/ ٦/ ١٩٦٧.

٥. تتولّى جهات دوليّة متّفق عليها مراقبة الانتخابات.

٦. تنشأ لجنة ثلاثيّة لفضّ النّزاعات، وبحث القضايا المشتركة بين السّلطة الانتقاليّة والحكومة الإسرائيليّة.

٧. تشكّل لجنة تحكيم تحال إليها الأمور المختلف عليها، تتكوّن من مصر والأردنّ والأمم المتّحدة.

٨. قضايا الأمن بمفهومها الاستراتيجيّ تعني تجسيد أفكار التّعايش السّلميّ في المنطقة.

٩. يبدأ الطّرفان بحث المرحلة النّهائيّة بعد سنتين من تطبيق المرحلة الانتقاليّة.

١٠. دون الإجحاف بالمرحلة النّهائيّة يتمّ بشكل غير رسميّ دراسة إمكانيّة إنشاء اتّحاد كونفدراليّ أردنيّ فلسطينيّ لاستقرار المنطقة وتحقيق السّلام.

وعلى خلفيّة هذه النّقاط بدأت حديثي في أوّل جلسة مفاوضات متوخيّاً طرح أفكار عامّة واقتراحات عمليّة يمكن البدء بتنفيذها حيث كان في طليعتها فكرة ترتكز على الاقتراح المتعلّق بالانسحاب من قطاع غزّة، وهو اقتراح كان مدرجا على جدول النّقاشات الدّاخليّة الإسرائيليّة سنة ١٩٧٨، لكنّه لم يلقَ قبولاً أو حتّى اهتماما من جانب الرّئيس أنور السّادات الّذي كان يعلم أنّ الإسرائيليين كانوا توّاقين إلى الخلاص ممّا كانوا يسمّونه (كابوس غزّة).

لقد تمّ في واقع الأمر إدخال بعض التّعديلات على هذه النّقاط التّوجيهيّة فيما بعد، إلّا أنّها ظلّت تمثّل العمود الفقريّ للنقاشات التّاليّة، وشكّلت قوام مسودّة اتّفاق إعلان المبادئ غير النّهائيّة الّتي جرى عرضها في الجولة الثّانية المنعقدة في شباط ١٩٩٣، الأمر الّذي يدعونا إلى القول بثقة إنّ المادّة الأساسيّة لإعلان المبادئ كانت مستمدّة من النّقاط العشر المذكورة، ومرتكزة في الوقت ذاته على جملة المفاهيم الفلسطينيّة المتّصلة بالغاية النّهائية لعمليّة التّفاوض هذه، أي أنّها لم تكن مسودّة إسرائيليّة، كما يدعي البعض، ولم تكن من وحي بنات أفكار يائيرهيرشفيلد وفق ما روّج له بعض غير العارفين فيما بعد، أي بعد التّوصّل إلى اتّفاق إعلان المبادئ أواخر العام ١٩٩٣.

فقد طرحت في مستهلّ حديثي خلال الجولة الأولى على الجانب الإسرائيليّ فكرة العمل على وضع إعلان مبادئ كي نتمكّن من تجاوز الإطار النّظريّ لهذه المفاوضات إلى ما هو أكثر أهميّة، وأعني بذلك الإطار العمليّ. وبهذه الذّهنيّة أيضاً طرحت فكرة قيام إسرائيل ببعض الخطوات العمليّة الملموسة في إطار إجراءات بناء الثّقة في المجال الاقتصاديّ، مثل التّرخيص لبنك تنمية فلسطينيّ، ومصنع إسمنت، وميناء تجاريّ في غزّة، ووحدات إسكانيّة في القدس، إلى جانب مجموعة أخرى من الأفكار الّتي أثارت خيال الأستاذين الإسرائيليين.

كانت القيادة العليا الفلسطينيّة الّتي لم ننقطع عنها هاتفيّاً طوال الوقت يوميّ الجولة الأولى ٢٠ و ٢١/ ١/ ١٩٩٣ تترقّب عودتنا إلى تونس بفارغ الصّبر؛ لتقديم الحصيلة الأوليّة وسبر غور الافتراضات المسبقة، ومن ثمّة اتّخاذ القرار الملائم إزاء مسألة الاستمرار في هذه العمليّة السّرّيّة. وكان الأخّ أبو عمّار والأخّ أبو مازن ينتظران الاستماع منّي إلى ما هو أكثر وأغنى وأشمل ممّا جاء في التّقرير المقدّم عن تلك الجولة، إذ كانا معنيين بأدقّ التّفاصيل والأفكار، ومعرفة سياق الحوارات سعيا وراء بناء افتراضات جديدة.

في ذلك الحوار الدّاخليّ الّذي دار بيننا في تونس عقب أوّل جلسة تفاوضيّة، كانت القيادة العليا مهتمّة إلى أبعد الحدود بمسألتين أساسيتين: الأولى كانت تتعلّق بالسّؤال المثير للقلق حول الهويّة الحقيقيّة للمفاوضين الإسرائيليين، وما إذا كانا مخوّلين بالتّفاوض مع منظّمة التّحرير، وقادرين على الالتزام بما يمكن التّوصّل إليه من نتائج. والثّانية كانت تتّصل بمدى قوّة الخطوط الحمر الإسرائيليّة المرفوعة في وجوهنا سلفاً، خصوصاً ما كان متعلّقا منها بقضايا الاستيطان والقدس واللاّجئين وغيرها، أو تلك الأقلّ أهمّيّة مثل التّفاوض مع منظّمة التّحرير الفلسطينيّة، والانسحاب من قطاع غزّة وما إلى ذلك.

بعد سلسلة من النّقاشات الدّاخليّة الفلسطينيّة خلصنا إلى بناء إطار نظريّ لموقف تفاوضيّ ينقلنا إلى أعتاب مرحلة جديدة، قوامه أنّ هذه المفاوضات تشكو من ضعف تكوينيّ ناجم عن عدم التّأكدّ من مدى رسميّة الجانب الإسرائيليّ المفاوض، ناهيك عن احتمال انتهاء هذه المفاوضات إلى مأزق يستعصي على الطّرفين نظراً لما نعرفه من عناد إسرائيليّ وغطرسة واستعلاء زادته التّغطيّة الأميركيّة الكاملة لحليفها الاستراتيجيّ المدلّل.

في الاجتماع الأوّل في مدينة سارسبوغ طرحنا اقتراحاً بانسحاب إسرائيل من قطاع غزّة في إطار التّغلب على مخاوفنا التّاريخيّة المشروعة إزاء رغبة المحتلّين العلنيّة في ترك تلك البقعة الّتي تضمّ أكثر من مليون فلسطينيّ، مدركين سلفاً المخاطر الّتي تحدق بنا من كلّ جانب، بما في ذلك خطر أن يصبح الانسحاب من غزّة بمثابة خطوة أولى وأخيرة لصالح تمسّك إسرائيل ببقيّة الأرض في القدس والضّفة الغربيّة الّتي تكثر فيها المستوطنات والكتل الاستيطانية، وتشتدّ فيها الأطماع التّوسعيّة، وتستعر حولها المزاعم الصّهيونيّة القائلة إنّ قلب الأرض الموعودة يقع في فلسطين الوسطى هذه.

ومع ذلك فقد قرّر وفدنا أخذ هذه المخاطرة بدعوة إسرائيل للانسحاب من قطاع غزّة كحجر محكّ أوّليّ للنوايا الإسرائيليّة، وكون ذلك يخلق سابقة تاريخيّة قابلة للتّكرار في أرض فلسطينيّة أخرى، وأنّه سيؤدّي إلى فتح نافذة في الجدار المغلق أمامنا، ويجعل الاحتلال أمراً زائلاً ومرئيّاً بالعين المجرّدة. وفوق ذلك إنّ الانسحاب من قطاع غزّة أوّلاً من شأنه أن يخلق ديناميّة جديدة لانسحاب متدرّج من بقيّة الأرض الفلسطينيّة، وبالتّالي فليكن الانسحاب من أيّ أرض فلسطينيّة من قطاع غزّة هو الّذي سيكسر المفهوم الإسرائيليّ

الرّاسخ طويلاً بأنّ الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة أراض غير محتلّة، وأنّها لا تعود إلى جهة أو دولة يحقّ لها المطالبة بها، علاوة على الادّعاء القائل إنّ هذه الأرض المحتلة، هي جزء لا يتجزّأ من (أرض إسرائيل الكبرى).

وبهذا فقد أجرينا أوّل تغيير على القواعد الرّاسخة لتلك اللّعبة الصّفريّة الّتي كان كلّ طرف فيها يسعى دائما إلى تحقيق أكبر قدر من المكاسب، فيما تكون الخسارة الكاملة من نصيب الجانب الآخر. كما أجرينا أيضا أوّل تغيير من نوعه في الأدوار المتبادلة؛ إذ كان الطّرف الإسرائيليّ هو الّذي يقوم بإرسال الكرة كي نقوم نحن بدور المستقبل، وعليه فقد قمنا هذه المرّة بإرسال كرة الانسحاب من قطاع غزّة كي ندفع الجانب الإسرائيليّ إلى استقبالها، منطلقين من الإدراك لحقيقة أنّه في أيّ اتّفاق يمكن التّوصّل إليه، هي الّتي ستدفع لنا حقوقا مشروعة وحقائق جغرافيّة حتّى لو كانت هذه منقوصة.

على أساس كلّ هذه الأفكار والاستنتاجات الأوّليّة قرّرنا العودة إلى النّرويج لاستكمال ما بدأناه، حيث ذهبنا لعقد جولة أخرى وأذهاننا منصرفة إلى ما سوف يعود به الوفد الإسرائيليّ من ردود على الأفكار والمقترحات المقدّمة في الجولة السّابقة قبل نحو ثلاثة أسابيع، لا سيّما الاقتراح المتعلّق ببنود اتّفاق إعلان المبادئ ناهيك عن الاقتراح الخاصّ بمسألة الانسحاب من قطاع غزّة أوّلاً، مصممين هذه المرّة على استجلاء هويّة الوفد الإسرائيليّ المفاوض الّذي ظلّ يومئ لنا بصفته الحقيقيّة دون أن يصرّح بها، ويشير إلى مرجعيّته السّياسيّة دون أن يسمّيها تماماً، تاركاً لنفسه هامشاً من المناورة التفاوضية، والتّراجع السياسي إذا ما تمّ كشف هذه القناة السّرّيّة.

في واقع الأمر عدنا إلى مدينة سارسبورغ ذاتها، وقد اتّضح لنا أنّ الوفد

الإسرائيـليّ وصـل إلى مقـرّ المفاوضات قبلنا، حيـث بدأنا الجلسـة الأولى من الجولة الثّانيّـة الّـتي أخـذ فيها المفـاوض الإسرائيـليّ زمام الحديـث، على العكـس ممّا كان عليـه الحـال في الجولـة السّـابقة، آملـين أن يقـدّم هـذا الوفـد أجوبـة شـافية عـن الأسـئلة والأفـكار والمقترحـات الّـتي كنّـا قـد تقدّمنـا بهـا، فرحنـا نـدوّن الأقـوال والطّروحـات هـذه لعلّنـا نجـد في كلام الوفـد الإسرائيـليّ ما يشـير إلى أنّهـم وافقوا على فكـرة الانسـحاب مـن قطـاع غـزّة، أو ما يـدّل على إمكانيّـة التّوصّـل إلى اتّفاق مـن شـأنه أن يحـدث أوّل خـرق من نوعـه، وأن يكسر الحلقـة التّفاوضيّـة المفرّغة الدّائـرة في ممـرّات وزارة الخارجيّـة الأمريكيّة في واشـنطن.

وبعـد طـول اسـتماع وصـبر جميـل على الـكلام الإسرائيـليّ، وجدناهـم يسـتديرون عـن مسـألة الانسـحاب مـن غـزّة بجملـة مـن الاقتراحـات المتعلّقـة بتحسـين الأوضـاع الاقتصاديّـة والاجتماعيّـة في الأراضي المحتلّـة. ولعـلّ أبرز ما انطـوت عليـه مداولات هذه الجلسـة قيـام يائير هيرشـفيلد بعـرض صيغة لإعلان مبـادئ مقـترح، وأخـرى لبرنامـج اقتصـادي، وخطّـة مارشـال لتطوير قطـاع غزّة. كمـا حملـت هـذه الجلسـة في ثناياهـا على شـبه اعتراف بـأنّ الوفـد يتحدّث باسـم جهـة إسرائيليّـة قـادرة على الالـتزام والوفـاء بمـا يتعهّـد بـه وفدهـا، مـع أنّ تلـك الأفـكار والوعـود الإسرائيليّـة لـم تكـن مدوّنـة على ورقـة مروّسـة يـدلّ على صفة واضعيهـا، وذلـك تحـت حجّـة الخوف مـن تسريـب محتمـل، ودرءاً لأيّ قرينـة تدلّ على الـتزام إسرائيـليّ بمـا ورد في هـذه الورقـة مـن اقتراحـات محـدّدة.

لذلـك فقـد ركّـزت مداخلـتي في تلـك الجولـة على الأفـكار المتعلّقـة بصيغة إعـلان المبـادئ، كمـا تقدمـت بورقـة تشـتمل على نطـاق الصّلاحيّـات لسـلطة فلسـطينيّة انتقاليّـة بمجلـس فلسـطينيّ منتخـب عـبر صناديـق الاقـتراع الحـرّ

والمباشر، تجري تحت إشراف دوليّ مناسب، ويشارك فيها جميع الفلسطينيّ من أبناء الضّفة والقطاع والقدس المسجّلين في السّجلات السّكّانيّة يوم ٤/ ٦/ ١٩٦٧ كما أشارت هذه الورقة إلى انّ ولاية السّلطة الانتقاليّة تشمل جميع الأراضي المحتلّة مع بعض الاستثناءات الإداريّة المتّفق عليها. إلى جانب ذلك تطرّقنا إلى بعض المسائل الأخرى مثل موضوع المبعدين إلى مرج الزّهور، وتصاعد عمليّات القمع، فضلاً عن الأوضاع الاقتصاديّة السّائدة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة.

بكلام آخر، فقد بدت الجولة الثّانية من هذه المفاوضات أكثر أهمّيّة من سابقتها، لا لأنّ المفاوضات تناولت موضوعات أكثر تحديداً فحسب، بل أيضاً لما أحاط بهذه الجولة من أجواء مواتية أكثر من ذي قبل، أدّت إلى زيادة ثقة الطّرفين أحدهما بالآخر، ومكّنت المفاوضين من دمج مواقف الجانبين في ورقة واحدة تحت اسم (مسودّة إعلان مبادئ مطروحة للنّقاش) طبعت على أوراق مؤسّسة فافو النّرويجيّة المستضيفة لهذه الجلسات، حرصا من الجانبين هذه المرّة على عدم الانكشاف أو التّسريب، وتسهيلاً للادّعاء بأنّ هذه الورقة صدرت عن مؤسّسة أبحاث نرويجيّة ليس إلّا.

كذلك كان من أهمّ ما توصّل إليه الوفدان في الجولة الثّانيّة هذه، هو توصلهما إلى قناعة مشتركة بأنّهما قد أقاما معاً قناة تفاوضيّة جادّة، تحظى بإسناد المرجعيات السّياسيّة الفلسطينيّة والإسرائيليّة، وأنّ ما يقومان به ليس بديلاً عن مفاوضات واشنطن المتعثّرة، وإنّما هو عامل مساعد على إنجاح تلك المواجهة الرّسميّة والعلنيّة للمفاوضات المستمرّة بين الجانبين والقائمة على أساس مخرجات مؤتمر مدريد، وبالنّتيجة فقد كانت مسودّة اتّفاق المبادئ الّتي أسميناها وثيقة (سارسبورغ) أوّل وثيقة مشتركة بين كلّ من منظّمة التّحرير

الفلسطينيّة وحكومة إسرائيل، على الرغم من أنّها(الورقة) لم تحمل هذه الصّفة... والأسباب مفهومة وإن لم تكن مقبولة من جانبنا على الأقلّ.

بعد يومين من المفاوضات في سارسبورغ، عدنا إلى تونس ونحن نحمل تلك الوثيقة المسماة صيغة لإعلان مبادئ مشتركة، كي يقوم كلّ وفد بعرضها على قيادته تمهيداً لإعادة البحث فيها في جولة لاحقة، الأمر الّذي جعلنا نقوم في تونس بتقويم نتائج هذه الجولة، مستندين إلى الوثيقة الآنفة الذّكر، الأمر الّذي ساعدنا على إجراء مراجعة أكثر تحديدا، وأوصلنا إلى استنتاجات أكثر دقّة من السّابق، خصوصا أنّ هذه الوثيقة الّتي لا سابق لها كانت تحتاج إلى أجوبة واضحة: إمّا رفض النّصّ أو القبول به كما هو، أو العمل على تعديله وفق ما يتطابق مع أهدافنا المرسومة من وراء إقامة هذه القناة التّفاوضيّة السّرّيّة.

في تونس تداول الوفد المفاوض المسودّة المذكورة مع كلّ من الأخّ أبي عمّار والأخّ أبي مازن، حيث كانت مسألة الانسحاب الإسرائيليّ من قطاع غزّة ووضعه تحت إدارة الامم المتّحدة لفترة انتقاليّة، المسألة الأكثر إثارة للنّقاش في مقرّ القيادة. وبالمحصّلة فقد جرى الاتّفاق على القبول بهذه الصّيغة الّتي من شأنها أن تجلب الأمم المتّحدة إلى قلب النّزاع لأوّل مرّة، وأن تدخل كطرف ثالث في مجرى العمليّة التّفاوضيّة، لا سيما وإنّ إسرائيل كانت تحرص دائما على إقصاء أيّ طرف ثالث بصورة فظّة، كما قرّرنا أيضا في تونس اعتماد هذه الصّيغة على أن نطالب في جولة لاحقة بأن يشمل الانسحاب المقترح مدينة أخرى أو أكثر من مدن الضّفّة الغربيّة.

وهكذا تكون الجولة التّفاوضيّة الثّانيّة قد أنجزت موضوعات على درجة كبيرة من الأهميّة النّسبيّة، مثل المجلس الانتقاليّ المؤقت، والانتخابات لسلطة

الحكم الذّاتيّ، ومرجعيّة المفاوضات، ومسألة القدس، والولاية الجغرافيّة للسّلطة الانتقاليّة، فضلا عن الانسحاب من قطاع غزّة، الأمر الّذي اعتبرناه مدخلا مناسبا. أمّا اتّفاق إعلان مبادئ مشترك فإنّ من شأنه أن يفتح الطّريق أمام اتّفاق تفصيليّ يخصّ مختلف الموضوعات محلّ التّفاوض في هذه القناة السّرّيّة، وهو ما اعتبرناه اختراقا فريدا من نوعه، وإنجازا مهمّا في حدّ ذاته قد يعيد فتح الباب أمام مفاوضات واشنطن الّتي توقّفت آنذاك بسبب بعض العمليّات التّفجيريّة من جانب حماس، ناهيك عن إبعاد نحو ٤٠٠ فلسطينيّ إلى مرج الزّهور في جنوب لبنان.

وبالمحصّلة الأوّليّة صاغت القيادة العليا لوفدها المفاوض خطوطا توجيهيّة مدوّنة تشتمل على خلاصة الموقف الفلسطينيّ، أن يسبق الحديث عن الانسحاب من غزّة تأكيد الوفدين على وحدة الأراضي الفلسطينيّة في الضّفة والقطاع سياسيّا واقتصاديّا، وتعزيز الصّلة بينهما بمعبر بريّ ومطار في غزّة وميناء تجاريّ في القطاع مع حرّيّة تنقل الأفراد بين الشّطرين، وأن تكون السّلطة المقامة في غزّة تحت رعاية الأمم المتّحدة، ومشاركة كلّ من مصر والأردنّ، فضلا عن تشكيل قوّة دوليّة لحفظ الأمن في غزّة إلى أن يتمّ تسليمها للحكومة الفلسطينيّة الانتقاليّة المنتخبة، على أن يتمّ إدخال ١٥ ألف رجل من قوّات الأمن والشّرطة الّتي سيتمّ تدريبها في مصر والأردنّ.

لقد كانت الورقة التّوجيهيّة هذه أكثر تفصيلا في كلّ ما يتعلّق بالأوضاع الاقتصاديّة، كإنشاء بنك تنمية فلسطينيّ، وصندوق دوليّ لتنمية الأراضي الفلسطينيّة، أمّا في الأمن فقد حرصنا على تحقيق هذه الغاية المشتركة في إطار ما يعرف باسم الأمن الشّامل، يوكّل إليه القيام بالمهام الأمنيّة والشّرطيّة على أن

تتـولّى هـذه الواجبـات من قبل قوّات دوليّة مشـكّلة لهـذه الغاية، يفضـل أن تكون مـن الدّول الاسـكندنافيّة الموثوقـة مـن جانـب طـرفيّ الـصّراع، إلى جانب تشـكيل هيئـة أمنيّـة عليا للتّنسـيق بين السّـلطة الفلسـطينيّة وحكومة إسرائيـل، بالتّعاون أيضـا مـع كلّ مـن مـصر والأردنّ، لا سـيمّا في كلّ ما يتعلـق بقضايا الأمن المشـتركة في الإقليـم وعـبر الحـدود الدّوليّة للأطـراف المعنيّة.

على أيّ حـال، تجاوزّنـا في مراحـل مبكّرة نسـبيّاً مـن زمن مفاوضات أوسـلو السرية مرحلة الاسّتشـكاف، وسـبر التّوايـا، وجسّ النّبض لندخـل في مرحلة أخرى تواجهـت فيهـا المواقـف المسـبقة والمبـادئ الثّابتة، وتقابلـت في غضونهـا الحقائق، وتـوازت في خضمهـا الخطوط الحمـراء لكلّ طرف، ولـم يتقاطع عبرها سـوى القليل مـن المصالـح الّـتي كانـت على قلتهـا كافيـة لدفـع عمليّة أوسـلو شـوطاً إضافيّـاً إلى الأمـام وسـط فيـض مـن المخـاوف والتّحسـبات الكثـيرة، ونـزر قليل مـن الآمال الّـتي كانـت تلـوح عـن بعـد بعيـد في أفـق سـيّاسيّ غائـم، بـكلّ مـا تحملـه هذه المفـردة من معـانٍ يصعـب شرحها.

في تلـك الأجـواء إذن، توصّلنـا إلى مسـودّة اتّفـاق إعـلان المبـادئ المشـتركة لعرضهـا على المرجعيـات السّياسـيّة المعنيّـة في كلا الجانبـين، ومـن ثمّـة العـودة إلى الجولـة اللاّحقـة بملحوظـات كلّ طـرف على هـذه الوثيقـة، والّـتي باتـت بمثابـة أرضيّـة مشـتركة؛ لإجـراء مزيـد مـن المفاوضـات الإضافيّـة المعمّقـة. وبالفعل فقد كان على المتفاوضـين في الجولـة الثّالثـة المنعقـدة في أواخر شـهر آذار/مـارس ١٩٩٣، أن يوسّـعوا قاعـدة التّفاهـم المتشـكّلة في الجولـة الثّانية بزيـادة عدّد نقـاط التّوافق القليلـة بـين الوفديـن، وتصليـب العـود الطّـريّ لهـذه القنـاة، والّـتي كنّـا في حينه نخـشى ألّا تسـتطيع عظامهـا الهشّـة حمـل كلّ هـذا الجبـل الهائـل مـن الصّعوبـات والمزاعـم والرّيـب والرّهانات.

لـم تكن تحسـباتنا مقّتـصرة على هـذا النّطاق فحسـب، بل كان علينـا أيضاً أن نتحسـب إزاء ردات فعـل المرجعيّـات المعنيّـة بهـذه العمليّـة، تلـك المرجعيّـات الّـتي تدّارسـت مسـودّة إعلان المبـادئ، وأعطـت توجيهاتها الأكثر تحديـداً من ذي قبـل، إنّ لـم نقل صياغـة مواقفها التّفاوضيّـة، وبناء خططهـا التّكتيكيّـة المتقابلة، لانـتزاع مكسـب هنـا، والتّمـترس حـول موقف هنـاك، وهـو الأمـر الّذي يعني في واقـع الأمـر أنّنـا دخلنـا في هـذه الجولـة إلى موقـع القلـب مـن عمليّـة المسـاومة الأصعـب، بـل والمنـاورت التّكتيكيّـة الوحشـيّة، ناهيـك عـن العـضّ على الأصابع بـكلّ مـا كان يقتضيـه ذلـك مـن مرافعـات، ويتطلّبـه مـن قـوّة وصـبر واحتمال، ويسـتحقه من حسـن قـراءة وادراك، وسـعة خيـال ونفـاذ بصيرة.

كنّـا في تونـس- وعقـب اجتمـاعات مكثّفـة مـع القيـادة العليـا- قـد اتّفقنا على الاسـتمرار في هـذه العمليّـة؛ للتّوصل إلى اتّفـاق إعلان مبـادئ، يوافق الخطوط العامّـة المنسـجمة مـع مبادئنا ومع رغبتنـا في تحقيق سـلام يلبّي الحـدّ المتفق عليه وطنيّـاً مـن تطلّعـات شـعبنا إلى الحريّة والاسـتقلال، ويـؤدّي إلى تصليـب الأرضيّة المشـتركة مـع الجانب الآخر، وتوسـيع نطاقها إلى اوسـع الحـدود الممّكنة بمـا يمكّنّنا مـن خلـق قوة دفع قـادرة على تحقيق اختراق، ليـس في العاصمة النّرويجيّة فحسـب، وإنّمـا في واشـنطن حيث كانت تجـري المفاوضات المتعثّرة في ممّـرات وزارة الخارجيّة الأمريكيّـة، الأمـر الّذي حملنـا على الدّخـول إلى صلـب الموضـوعات المدرجـة على مائـدة التّفـاوض، تلك الموضـوعات الّتي تمّ تحديدهـا في الجولة التّفاوضيّة السّـابقة.

في الجولـة الثّالثـة هذه الّتي عقـدت في مدينـة سارسـبورغ/النّرويجيّة انخرطنا في مفاوضـات اسـتمرّت ٢٢ سـاعة متواصلة، اختلط فيهـا الليل مع النّهـار، وموعد الإفطـار مـع موعـد العشـاء، حيـث تقدّمنـا بصيغـة معدّلـة في بعض البنـود لتلك

المسودّة الّتي تمّ اعتبارها في الجولة السّابقة على أنّها مشروع اتّفاق فلسطينيّ إسرائيليّ قابل للمراجعة، وإعادة التّقويم من جانب القيادات المعنيّة من كلا الجانبين.

كان التّصوّر أن يتبنّى وارن كريستوفر هذا الاتّفاق بنفسه، وأن يقدّمه لكلّ من إسرائيل ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، أو على الأقل إلى القيادة المحليّة الفلسطينيّة في الدّاخل بقيادة (فيصل الحسيني) باعتباره إعلان مبادئ أمريكيّ خالص، يتكوّن من ثلاث وثائق، وهي:

١. إعلان مبادئ.

٢. برنامج عمل وتعاون فلسطينيّ إسرائيليّ.

٣. خطّة عمل لمشروع «مارشال» اقتصاديّ، وذلك كلّه كي يتمّ تجنّب ارتدادات ما اعتقدنا أنّه سوف يشكّل هزّة أرضيّة ، كون مثل هذا الاتّفاق هو سابقة غير مسبوقة لدى قواعد جانبي الاتّفاق المنشود، والّذي لم نكن قد توصلنا إليه في واقع الأمر.

ومع أنّه قد تمّ تقليص ساحات الخلافات الجوهريّة بين الطّرفين في الجولة التّفاوضيّة الثّالثة، إلّا أنّ المواقف ظلّت متباعدة إلى حدّ كبير، أي إلى أن تمّ عقد الجولة الرّابعة بين أواخر شهر نيسان/ابريل وأوائل شهر أيار/مايو ١٩٩٣م، حيث كنّا حتّى تاريخه قد اجتزنا ثلاث مراحل نوعيّة، ووقفنا من ثمّة على أبواب مرحلة جديدة أطلقنا عليها اسم مرحلة إعطاء هذه القناة السّرّيّة «الصّبغة الشّرعيّة» لا سيّما وإنّ الجانب الإسرائيليّ كان لا يزال يناور ويداور حول هويته التّمثيليّة، فيوحي لنا تارة أنّه مخوّل بالتّفاوض، وتارةً أخرى كان

يشير إلى مرجعيّة حكوميّة، إلّا أنّه ظلّ طوال الوقت ممّسكاً عن تسمية الولد باسمة الحقيقيّ.

وقبل الاسّترسال في السّرد التّاريخيّ، فإنّه يجدر بنا تلخيص المراحل السّابقة من هذه العمليّة إلى ثلاث محطّات متعاقبة على النّحو الآتي:

الأولى: مرحلة الاستكشاف والاستطلاع وجسّ النّبض من خلال طرح الأفكار وتبادل الأدوار، واختبار الأجواء، وسبرغور الفرص والممّكنات، وقراءة التّوجّهات، والتّعرّف على المنطلقات والذّهنيّات والآفاق المفتوحة أمام تحويله إلى عمليّة سلام حقيقيّة.

الثانيّة: مرحلة إقامة قناة اتّصال معتمدة على هذا النّحو أو ذاك، وتأسيس بنيّة تفاوضيّة مؤهلّة لإجراء بحث معمّق في سائر جوانب النّزاع، واستجلاء إمكانيّة التّوصل إلى اتّفاق، وهو الأمر الّذي استلزم تخليص المفاوضات من طابعها النّظري الأكاديميّ، وإنزالها من سماء الرّياضة الفكريّة إلى أرض الواقع.

الثّالثّة: مرحلة التّكوين الجنينيّ لاتّفاق محتمل، وخلق قوّة الدّفع القادرة على إحداث اختراق، ومن ثمّة الانطلاق بهذه المفاوضات إلى آفاق أوسع، ممّا يتّطلب الأمر معه، ونعني به البحث عن نقاط التّوافق، وتكوين الأرضيّات المشتركة، وإيجاد البنود الملائمة لكلا الجانبين، وتحديد نقاط الخلاف وحصرها في أضيق الحدود الممكنة.

وهكذا وجدنا أنفسنا في الجولة الرّابعة نقف أمام مرحلة جديدة يمكن أن نسمّيها المحطّة الرّابعة أيضاً، وهو إضفاء الطّابع الرّسميّ على هذه القناة السّرّيّة كما ذكرنا من قبل، حيث كنّا ندرك نحن على الجانب الفلسطينيّ الضّعف

التّكوينيّ القائم في هيكل هذه العمليّة، ونعني بذلك على وجه التّحديد افتقار الجانب الإسرائيلي إلى ممثّل حكوميّ رسمي معتمد، مع أنّ الوفد الفلسطينيّ كان يدرك في قرارة نفسه بعد الجولة الثّانية من المفاوضات، أنّ الوفد الإسرائيليّ المفاوض لديّه مرجعيّة سيّاسيّة رسميّة، قد يكون يوسي بيلن نائب وزير الخارجيّة ، أو ربما شمعون بيريس وزير الخارجيّة الإسرئيليّ في حينه، وذلك كلّه مع علم إسحق رابين نفسه بهذه القناة التّفاوضيّة.

وهكذا، وعشيّة التّوجّه إلى جولة المفاوضات الرّابعة، لم نعد معنيّين كثيراً بشخوص أو ماهيّة تلك المرجعيّة الإسرائيليّة الواقفة بعيداً عن مجرى مفاوضات أوسلو، حيث انصبّ اهتمامنا على إصلاح العيب التّكوينيّ الهيكليّ القائم في بنية الوفد الإسرائيليّ المفاوض، وذلك بالإلحاح من جانبنا على ضرورة إشراك ممثّل رسميّ عن الحكومة الإسرائيليّة في إطار ذلك الوفد مهما تكن درجة مسؤوليته، وأياً كانت ولاءاته السيّاسيّة لهذا الرّأس أو ذاك داخل الهرم الحكوميّ الحاكم.

لقد انصبّ اهتمامنا في هذه المرحلة على دفع إسرائيل إلى قطع ما تبقى من مسافة قصيرة على طريق الجلوس مع منظّمة التّحرير والتّفاوض مع الممثّل الشّرعيّ الوحيد للشّعب الفلسطينيّ، أي الاعتراف واقعيّاً بالمنظّمة المعترف بشرعيّتها على أوسع نطاق دوليّ حتّى وإن كان ذلك بعيداً عن الاضواء وراء أبواب محكمة الاغلاق، وذلك لما ينطوي عليه هذا الاعتراف من أهمّيّة نوعيّة، ولما سوف يؤسّسه من حقائق سيّاسيّة، ويفتح من آفاق جيدة، ويخلقه من تداعيات داخليّة إسرائيليّة، ويعيد خلطه من أوراق مفيدة، وفي مقدّمتها استكمال دائرة الاعتراف بالكفاح الوطنيّ الفلسطينيّ وبأهدافه المشروعة.

لقد بدا لنا في حينه أنّ قيادة حزب العمل الإسرائيلي، الّذي كان لتوه قد صعّد إلى سدّة الحكم بعد أن وعد ناخبيه بقلب كلّ حجر بحثاً عن السّلام، اقول؛ بدا لنا أنّه لم يعدّ في وسعه مواصلة تلك السيّاسة الحائرة بين التّحريم والحظر أو الممانعة في التّحاور مع الممثّلين المعتمدين من جانب قيادة المنظّمة الفلسطينيّة الأم، وإنّه في سبيله إلى فقدان تلك المكابرة الزّائفة إزاء خيار التّعامل مع الممثّل الشّرعي الوحيد للشّعب الفلسطينيّ، وبالتّالي التّخلّي عن تلك الذّرائع والاعتبارات التّكتيكيّة الداخليّة، وذلك بعد أن باتت شمس منظّمة التّحرير تملأ السّماء في هذه المنطقة من العالم.

في مثل هذه الأجواء انتهت الجولة التّفاوضيّة الثّالثة لتبدأ بعدها جولة رابعة، ونحن أكثر تصميماً من ذي قبل على إصلاح الخلل القائم في بنية الوفد الإسرائيليّ المفاوض، تمهيداً لتحقيق المكسب الجوهريّ الّذي كنّا نتطلّع إليه منذ البداية، وهو الحصول على اعتراف إسرائيليّ بمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، والتّفاوض معها وجهاً لوجه حتّى ولو كان ذلك بصورة غير علنيّة، وذلك إلى أن يتحقّق اتّفاق بين طرفين رسميّين يعترفان الواحد منهما بالآخر على رؤوس الأشهاد، ولذلك فقد أعطينا أولويّة خاصّة في جولة المفاوضات الجديدة، وذلك لاعتماد مسودّة اتّفاق إعلان المبادئ من جانب المرجعيّة العليا الإسرائيليّة.

لقد فزنا في بداية الجلسة الأولى من هذه الجولة بنقطة ثمينة، حيث لبّينا أحد أهمّ أهدافنا التّكتيكيّة المقررّة سلفاً قبل الوصول إلى أوسلو، وذلك عندما أبلغنا أصدقاؤنا النّرويجيون الّذين يستضيفون هذه المفاوضات أنّ الحكومة الإسرائيليّة قد منحت على أعلى المستويات التّفويض الرّسميّ لوفدها المفاوض، وأنّها اعتمدت هذه القناة التّفاوضيّة قناةً خلفيّة رسميّة، الأمر الّذي فتح أمامنا

الطّريـق واسـعاً لاعتمـاد مـشروع اتّفاق إعـلان هذه القنـاة على المرجعيّـات العامّة فيهـا، مثـل الولايـات المتحّـدة الأمريكيّـة، وكلّ مـن مـصر والنّرويـج فقـط، دون غيرهـا مـن الدّول الأخـرى ذات العلاقة غـير المباشرة.

وبالفعـل، فقـد وجدنا في بدايـة جولة التّفـاوض الرّابعة أنّ الوفـد الإسرائيليّ يشـعر براحـة نفسـيّة أكثر ممّـا كان عليه الحـال في الجولات السّـابقة. كما شـعرنا مـن جانبنـا أنّ الوفـد الإسرائيـليّ تحت وطـأة ضغوط أشـدّ من ذي قبـل، وذلك بعد أن بـات إسـحق رابين على اتّصـال بهذا الوفـد الّذي كان يديره شـمعون بيريس. كما علمنـا أيضاً- من النّرويجيـيّن والإسرائيليـيّن- أنّ الأمريكيـيّن مرتاحون بدورهم إلى هـذه القنـاة السّرّيّـة، وأنّهـم ينظرون إلى ما تحقّـق على أنّه إنجاز هائل، وأنّه يشـبه السّـحر، حسـب التّعبـير الأمريكـيّ. وكان لافتاً لنـا أنّ الوفد الإسرائيليّ بات يشـير إلى رابـين أكثر مـن إشـارته إلى كلّ من بيريس ويـوسي بيلين.

وأكـثر مـن ذلـك فقـد أبلغنـا أحـد أعضـاء الوفـد الإسرائيـليّ أنّ شـمعون بيريـس وزيـر الخارجيـة طلـب منـه أن يسـأل الوفـد الفلسـطينيّ المفـاوض: « متى وكيـف يريـد الرّئيـس يـاسر عرفـات أن ينقـل مقـرّ قيادتـه مـن تونـس إلى قطاع غـزّة؟ ومـن هـم الأشـخاص المرشّـحون للانتخابـات في كلّ مـن الضّفّـة والقطاع، ومـن هـم المقـرّر عودتهـم مـن الخـارج، وذلـك كي يتـمّ العمـل مبكّـراً على تسـهيل هـذه العـودة؟» كما لفـت الوفد الإسرائيـليّ انتباهنـا إلى أنّ الإعـلام الإسرائيليّ بدأ يـبرز الأخ يـاسر عرفات بشـكل كبـير وواضح كرجل سـلام شـجاع، وأنّ الحكومة الأسرائيليّـة قـد قيّمـت عـودة وفدنـا إلى مفاوضـات واشـنطن العلنيّـة بعـد طول انقطـاع تقويمـاً عاليّـاً لا تتخـذه إلّا قيـادة شـجاعة وذات رؤيـة بعيدة.

إزاء مـا سـاد في هـذه الجولة مـن ارتياح متبـادل ولغـة جديدة، وما سـمعناه

مـن تطوّر لدى إسـحق رابين حيـال هذه القنـاة السّرّيّة، فقد خلص وفدنـا إلى نتائج أوليّـة مهمّـة، لعـلّ أهمّهـا أنّ مباركة رابـين لهذه القناة قـد منحها القـدر الكافي من الشّرعيّـة والاعتماديّـة الّـتي كانـت تفتقـر إليهـا في تلـك الآونـة، الأمـر الّذي بدّد شـكوكنا بإمـكان أن تكـون هـذه القنـاة من صنـع شـمعون بيريس وفريقـه فقط. وفـوق ذلـك فقـد تيقّنـا الآن أنّ هـذه القنـاة الحديثـة العهـد قـد حقّقـت بسرعـة قياسـيّة صفتهـا المطلوبـة كأداة اتّصـال على درجـة عاليّة مـن الرّسـميّة، وهي الأولى مـن نوعها بـين إسرائيـل ومنظّمـة التّحرير الفلسـطينيّة.

في مثـل هـذه الأجـواء المواتيـة تقدّمنـا بمطلبـين اثنـين: أوّلهمـا اعتماد نص اتّفـاق إعـلان المبـادئ بتوقيعـه بصفـة نهائيّـة، وإيـداع نسـخة منـه لدى الدّولـة المضيفـة النّرويـج، والاتّفـاق على سـيناريو إخراجـه بصـورة ملائمة على نحـو يؤدّي إلى حـدوث اختراق في مفاوضات واشـنطن المتعـثّرة. أمّا الثّاني فقـد تمثّل في ضرورة إشراك شـخصيّة إسرائيليّـة ذات موقـع رسـميّ في إطـار الوفد الإسرائيـليّ المفاوض، وذلـك دعمـاً لهـذه القنـاة الواعـدة على نحـو ثابـت لا يشـوبه أي تـردّد أو غمـوض، ناهيك عمّا سـتفضي إليّه هذه المشـاركة الرّسـميّة مـن تعزيز لأجـواء الثّقة اللاّزمة، ومـن توفّـر إمكانيّة أفضـل لحسـم الموضـوعات الخلافيّة القائمـة بعد.

بعـد نقاشـات طويلة انتهت في سـاعة متأخرة مـن ليل النّرويـج الطّويل، كان مـن الواضـح لنـا أنّ المطلبـين اللذين تقدمنـا بهما لن يتمّ الاسـتجابة لهمـا بالسّرعة المرغـوب فيهـا، كمـا اتّضح لنـا أنّ الوفـد الإسرائيليّ يميـل إلى دعم القيـادة المحليّة في الضّفّـة الغربيّـة والقـدس وقطاع غـزّة على أسـاس أنّ منظّمـة التّحرير هي مجرد قيـادة في الخـارج. وأكـثر مـن ذلـك فقد طلـب الوفـد تأجيـل التّوقيـع على الاتّفاق خشـية كشـف هـذه القنـاة قبـل أن تحقّق غاياتهـا، ناهيك عـن أنّ مسـألة القدس

وموضوع التّحكيم في المنازعات يتطلبان إجراء مناقشات داخليّة إسرائيليّة معمّقة، وبالتّالي فقد عرض الوفد علينا الاتّفاق على نصّ يستبعد هاتين النّقطتين، فرفضنا ذلك، باعتبار أنّ الاتّفاق رزمة كاملة.

انتهت الجولة الرّابعة في الأوّل من أيار/مايو ١٩٩٣م دون أن نقول للوفد الإسرائيلي أنّنا قد وصلنا إلى نهاية الشّوط معهم عبر هذه القناة المفتقرة إلى ثقل رسميّ إسرائيليّ، أو قل إلى وفد حكوميّ مفاوض، لاستكمال الموضوعات العالقة بعد في مسودّة اتّفاق إعلان المبادئ، لكنّنا لمحّنا إلى ذلك عبر أكثر من إشارة واضحة بأنّنا مللنا من هذه التّمارين الرّياضيّة التّفاوضيّة، وضجرنا من هذه المرافعات الطّويلة، فضلاً عن المراوحة بين الأقدام والإحجام على اجتياز ما تبقّى لنا من خطوات قليلة، حيث تحجّم الحكومة الإسرائيليّة الجديدة عن اتّخاذها إلى الآن، اي اعتماد هذه القناة المباشرة بصورة رسميّة ونهائيّة ، لا تقبل التّخمين من جانبنا ومن جانب القيادة الفلسطينيّة العليا.

غير أنّنا بالمقابل كنّا أكثر صراحة مع المضيفين النّرويجيين الّذين كانوا يتحرّقون لإنجاح هذه القناة التّفاوضيّة بصورة تبدو أحيانا أشدّ بكثير من تطلّعنا لنجاح المفاوضات الثّنائيّة المباشرة، الأمر الّذي عاد بنا لاستغلال هذه العواطف النّرويجيّة المشروعة، وذلك من خلال حثّ هذا الوسيط النّزيه كي يمارس ضغوات إضافيّة على الوفد الإسرائيليّ، لعلّ ذلك يؤدّي إلى نقل المفاوضات إلى رتبة أعلى، وإضفاء الصفية الرّسميّة عليها، وجعلها أكثر موثوقيّة من ذي قبل. والحق انني قبل أن نغادر أوسلو أخبرت الوسيط تيري رود لارسون أنّ اجتماعاتنا الأخيرة (الجولة الرّابعة) قد تكون الأخيرة، وأنّني في طريقي إلى تونس، وقد لا أعود منها إلى أوسلو مرّة أخرى.

كنت - وأنا أعبر عن مشاعر خيبة الأمل هذه - أدرك أنّ مضيفينا النّرويجيين سيأخذون إمكانيّة عدم عودتي إلى أوسلو على محمل الجدّ، وأنّهم ربما سينضمون إلينا في الضّغط على الحكومة الإسرائيليّة لإرسال وفد رسميّ أو على الأقل شخصيّة حكوميّة؛ للاشتراك في الوفد المناظر لنا، لا سيّما وأنّ وزير الخارجيّة النّرويجيّ الجديد الّذي حلّ محلّ ستولنبرغ كان قد نقل ملف المفاوضات من عهدة نائب وزير الخارجيّة جان إيغلاند إلى عهدته الشّخصيّة، ليلقي بثقله وراء هذه القناة بنهج أقلّ تحفّظا ممّا كان عليه سابقه، وبسعة أفق أكبر، وبتصميم أعمق على ضرورة التّدخّل في أعماق هذه القناة بأعلى مستوى سياسيّ ممكن بما في ذلك المستوى السّياسيّ النّرويجيّ، وذلك باعتباره واحدا من بين أهمّ الأطراف المعنيّة بإنجاح هذه القناة.

وفي الوقت ذاته، كنت أدرك أنّ التّقدّم النّسبيّ الّذي أحرزته قناة أوسلو أمر لا يمكن لحكومة حزب العمل الإسرائيليّ أن تفرّط فيه بسهولة، وأنّ الزّخم الّذي اكتسبته هذه القناة لا يمكن وقفه تماما، وأنّ معرفة وزارة الخارجيّة الاميركيّة بهذه القناة ودعمها للمفاوضات عن بعد، متغيّرات من شأنها أن تحول دون عدم استمرار عمل هذه القناة، ووقفها عند هذه المسألة التّمثيليّة، وهي مسألة شكليّة عند الأميركيين ، ولكنها بالغة الأهمّيّة بالنّسبة لنا نحن الّذين نسعى إلى انتزاع اعتراف رسميّ إسرائيليّ بصفتنا الوفد المخوّل من جانب منظّمة التّحرير الفلسطينيّة، ولذلك كلّه فقد أرفقت بتلميحاتي عدم العودة إلى أوسلو ، وذلك بطلب صريح للوسيط النّرويجيّ بعمل كلّ ما يمكن عمله من أجل منع انهيار المفاوضات في تلك المرحلة المتقدّمة نسبيّاً.

والحقّ إنّ أعضاء الوفد الإسرائيليّ المفاوض لم يكونوا أقلّ تأثّرا من تيري

لارسون إزاء فرضية عدم الاستمرار في هذه اللعبة التفاوضية المثيرة للضجر ، فقد كانت حماسة هيرشفيلد وبوندك لهذه القناة حماسة شديدة، وقناعتهما بمشروعيّة مطلبنا بادية على الوجوه، ناهيك عن رغبتهما الطّبيعيّة في النّجاح وتحقيق إنجاز شخصيّ، الأمر الّذي يعزّز تقديراتنا المسبقة بأنهما سوف يعملان بكلّ ما في وسعهما لإقناع الحكومة الإسرائيليّة بعدم التّفريط بهذه القناة الواعدة، وأنّهما سوف ينضمان إلى الوسيط التّرويجيّ لإقناع الحكومة الإسرائيليّة بتسمية وفد رسميّ إسرائيليّ مفاوض، يناظر وفدنا الرّسميّ المعتمد من جانب أعلى مرجعيّة سياسيّة فلسطينيّة معترف بها على أوسع نطاق دوليّ.

وبعد شدّ وجذب قصيرين نجحت المناورة التكتيكيّة التّفاوضيّة؛ فقد عاد إليّ تيري لارسون الّذي كان قد أجرى اتّصالات حثيثة مع نائب وزير الخارجيّة الإسرائيليّة يوسي بيلين وأخبرني بما قام به، ثمّ عاد إليّ في وقت لاحق، وقال: «قرّرت إسرائيل أن تبعث شخصيّة رسميّة إلى مفاوضات الجولة المقبلة تلبية لطلبكم». إلّا أنّه لم يحدّد لي هويّة هذه الشّخصيّة الرّسميّة، والّتي يبدو أنّه لم يكن يعرف شيئاً عنها. غير أنّ هذا التّطور جعلنا نشعر بثقة أكبر، وجعل القيادة العليا الفلسطينيّة تشعر باهتمام أشدّ من ذي قبل تجاه قناة أوسلو السّرّيّة، حيث أنّ الأخّ الرّئيس أبا عمّار بدأ يعطي عمل هذه القناة مزيداً من الاهتمام والمتابعة، على نحو اكثر مما كان عليه الحال من قبل.

على أيّ حال، فقد أمدّنا هذا الإنجاز الجزئيّ- ولكنّ المهمّ من وجهة نظرنا- بتصميم أشدّ على مواصلة العمل في إطار هذه القناة المكتومة، الّتي أخذت تحقّق نجاحات نسبيّة سريعة بالقياس إلى قناة واشنطن المتعثّرة، كما أدّى هذا التّطوّر إلى تغيير أسلوب التّعامل من جانبنا مع هذه المفاوضات، حيث

صرنا أكثر حرصا على سرّيّتها، حتّى أنّه عندما تسرّبت بعض الأنباء الصّحفيّة عن تلك المفاوضات قام الأخ أبو عمّار بنفسه بنفي تلك المعلومات، وهو أمر ينمّ عن حقيقة أنّنا بتنا مقبلين على جولة تفاوضيّة (الخامسة) مختلفة عن سابقاتها، وأنّنا نقف أمام منعطف مهمّ في مجرى هذه العمليّة التّفاوضيّة الّتي ستنعقد جولاتها اللاّحقة بوفدين رسميين مفوّضين، وأنّنا سنقوم بالضّرورة الموضوعيّة بعقد مفاوضات أكثر جدّيّة وأرفع مسؤوليّة.

في العشرين من أيّار/ مايو ١٩٩٣ بدأت جولة المفاوضات الجديدة داخل كوخ خشبيّ فاخر في منطقة قريبة من أوسلو. وبعد أن دلفنا إلى ذلك الكوخ المعدّ لاستقبال الضّيوف الأجانب، قبل أن يصل الوفد الإسرائيليّ ببرهة، قال لي الوسيط تيري لانسون: «إنّ الإسرائيليّ القادم إلى هنا بعد قليل جاء بهدف وحيد كما أعتقد، وهو إنّه يريد ان يعرف وزنك القياديّ، ويريد أن يعرف أيّ شخص أنت، وأن يتعرّف بنفسه على مصداقيتك وعلى جدّيتكم في الوصول إلى اتّفاق مرحليّ يقود إلى اتّفاق نهائيّ ينهي الصّراع، ويؤسّس لعلاقات استقرار وسلم حقيقيّ بين الشّعبين: الشّعب الفلسطينيّ والشّعب الإسرائيليّ»... كان أكثر ما يهمّ تيري لارسون أن يمرّ اللّقاء الأوّل مع الوافد الإسرائيليّ الجديد بأعلى قدر ممكن من النّجاح الّذي يفتح الطّريق أمام نجاحات أخرى لاحقة.

وكان تيري لارسون يعرفني جيّدا... إلّا أنّه لم يكن يعرف الإسرائيليّ الرّسميّ الآتي بصورة جيدة. لقد كان يدرك أنّ هذا الرّجل الّذي سينضمّ إلى حلقة أوسلو يتوقّف عن حسن تعامله مع القضايا العالقة، لذلك فقد راح لارسون يقدم لنا المسؤول الإسرائيليّ رفيع المستوى، كما راح يطنب أمامه في وصف الجوانب الباعثة على التّقدير والاهتمام بشخصيّات وفدنا، وذلك كلّه لتخطّي

صدمة اللّقاء الأوّل مع الدّبلوماسيّ الشّاب ببذلته السّوداء، ونظّارته المربّعة العدسات، وتحفّظه الشّديد، وأحاديثه الرسمية المبالغ بها.

في ذلك الكوخ الخشبيّ الّذي لا تنقصه وسائل الرّاحة وكرم الضّيافة، دخل تيري لارسون بصحبته الوفد الإسرائيليّ المفاوض، حيث كان يتقدّمه أوري سافير الّذي بدت عليه علامات توتّر كان يخفيها بصعوبة. ثمّ أمسك لارسون بيد سافير، وقدّمه لي قائلا: «أرجو أن أعرّفك بعدوّك رقم واحد أوري سافير/ المدير العامّ لوزارة الخارجيّة الإسرائيليّ»، ثمّ أردف بالمقابل: «هذا هو أبو علاء عدوّك رقم واحد، رئيس الوفد الفلسطينيّ المفاوض». بعد ذلك صافحت سافير مبتسما وأنا أرسل نظرة عميقة إلى داخل عينيه، وقلت له: «لطيف أن أتعرّف بك». ثمّ أكمل لارسون تعريف القادم الجديد ببقيّة أعضاء الوفد الفلسطينيّ المفاوض وذلك بروح دعابة أدّت إلى خلق أجواء غير متوقعة من الإثارة.

بعد أن هدأت الأجواء، وبعد أن تكسّر الجليد، أخرج أوري سافير من سترته ورقة مكتوبة، وراح يقرأ منها: «إنّ هدف الحكومة الإسرائيليّة يتمثّل في إجراء مصالحة تاريخيّة مع الشّعب الفلسطينيّ، ولسنا معنيين إطلاقا بإجراء تغيير تجميليّ للوضع الرّاهن، ولا نرغب في التّحكّم والسّيطرة على حياتكم، مصلحتنا تكمن في السّلام والأمن والانفراج سويّة معكم، وإحلال السّلام في المنطقة. هدفنا الأساسيّ والأخلاقيّ يتمثّل في التّحرير والانعتاق من هذا الوضع بصورة تضمن الحرّيّة الفلسطينيّة وتوفّر الأمن للإسرائيليين».

ثمّ طرح سافير بعد ذلك المسألتين الخلافيتين المتبقيتين في مسودة اتّفاق المبادئ؛ القدس والتّحكيم، وأضاف:«إنّه إذا ما تمكّنا من الوصول إلى حلول لهاتين المسألتين فسوف أوصي أمام رئيس حكومة إسرائيل إسحق رابين ووزير

الخارجيّة شمعون بيريس بالشّروع في مفاوضات تمهّد لبلورة إعلان مبادئ مقبول لدى الطّرفين». ثمّ تحدّث طويلا عن ضرورة التّقدّم على مراحل، وأسهب في الحديث عن الأمن والإرهاب.

بعد مداخلة أوري سافير الّتي دامت نحو نصف ساعة أخذت دوري في الكلام، فقلت:»إنّ الوفد والقيادة الفلسطينيّة يخامرهم السّرور جراء وصول الاتّصالات بيننا وبينكم إلى هذه المرحلة الرّسميّة، أي بين إسرائيل ومنظمة التّحرير الفلسطينيّة. لقد أنجزنا عملا مهمّا مع هيرشفيلد وبوندك، وسأكون مسرورا أكثر إذا ما أبلغت المسؤولين عندكم بأنّ نوايانا ونوايا الرّئيس ياسر عرفات هي نوايا جدّيّة. عليكم أن تدركوا أنّه لا توجد فرصة لتحقيق السّلام دون منظّمة التّحرير الفلسطينيّة ودون قيادتها الشّرعيّة، حيث لا تملك أيّ جهة أخرى الصّلاحيّة أو الشّرعيّة أو الأهليّة للتحدّث باسم الشّعب الفلسطينيّ غير منظّمة التّحرير الفلسطينيّة الممثل الشرعي الوحيد»... وقلت أيضا: «إنّنا نرغب في التّعايش معكم، وفي التّعاون من أجل تطوير المنطقة، وإحياء خطّة مارشال شرق أوسطيّة في ظلّ سلام عادل وشامل وفق الشّرعيّة الدّوليّة».

وفي غمرة نقاش حول مسألة الأمن وتفريعاتها المعقّدة، سألت أوري سافير: من أين أنت يا سيّد سافير؟ فقال: «أنا من القدس». فأجبت: «وأنا أيضا من القدس. ولكن من أين أتى والدك؟»، فقال: «أتى من ألمانيا»، فقلت له: «أمّا أنا فقد ولد ابي وأجدادي جميعا في القدس، ولا يزال والدي يعيش في القدس»، فقال سفير: «ولماذا لا تسألني عن أجدادي؟» أنا أستطيع أن اقول لك أنّ سلالتنا تعود إلى الملك داوُد، ثمّ أضاف: أنا واثق انّنا قادرون على التّجادل حول الماضي لمدّة سنين طويلة، إلّا انّنا لن نصل إلى اتّفاق في النّهاية، لذلك قد يكون من

الأجدى لنا ولكم أن ندع الماضي، وأن نتّفق حول المستقبل. فوافقت من جانبي على ذلك كي نعود بحواراتنا إلى جوهر الموضوع الّذي جئنا من أجله؛ أي البحث عن السّلام.

اشتدّ الحديث في الجلسة الصّباحيّة لساعات طويلة، ثمّ عدنا بعد تناول الغذاء إلى المفاوضات حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل النّرويجيّ القصير، حيث اتّفقنا على بعض البنود، واختلفنا على بعضها الآخر، كان منها القدس والتّحكيم.

لقد بدا لي أوري سافير في تلك اللّيلة كمن راح يعقّد المفاوضات أكثر، ويزيد من مصاعب التّوصل إلى حلّ. بعد ذلك قمت بتلخيص الموقف على النّحو الآتي: «أعتقد أنّنا وصلنا إلى قلب الحقيقة؛ فقد علّمتنا التّجربة أنّ استمرار رفضنا الاعتراف بإسرائيل ووجودها لن يعطينا الحرّيّة الّتي ننشدها، وبالمقابل فإنّ استمرار سيطرة إسرائيل على الشّعب الفلسطينيّ لن يوفر لها الأمن، ولن يحقّق لها التّعايش معنا بسلام، هذا هو موقف وفدنا وموقف قيادتنا العليا».

وافق أوري سافير على هذه المعادلة الّتي تنطوي على إنهاء الاحتلال مقابل الحصول على السّلام، وقال بضرورة التّقدّم على مراحل لاختبار الاتّفاق المقترح، وبناء الثّقة المتبادلة بين الطّرفين، وتطوير عمليّة السّلام، وترسيخ الأمن. ولم ينس سافير تذكيرنا بأهمّيّة الحفاظ على عامل السّرّيّة، الأمر الّذي جعلني أنفجر ضاحكا، قلت له: «لا تخشَ يا سيد سافير منّا في هذه المسألة تحديدا. أنّ قلقنا ينصبّ عليكم من هذه النّاحية... وتحديدا على صحافتكم الّتي يبدو انّها تعرف بالأحداث قبل أن تقع». قلت ذلك والإعياء كان قد أخذ منّا مأخذا، حيث كانت السّاعة تقترب من الرّابعة فجرا، وكان مضيفونا النّرويجيون ينتظروننا على أحرّ من الجمر، فأخبرناهم- على سبيل الدّعابة ـــ بأنّ كلّ شيء قد

انتهى، ولم يعد هناك ما يمكن الحديث عنه، وأنّني أنا في طريق العودة إلى تونس.

في اليوم الثّاني من اجتماعات الجلسة الخامسة وضعنا مسودّة مشروع إعلان المبادئ على الطّاولة، وتبادلنا حواراً بشأن مختلف بنوده، حيث ركّز أوري سافير في حديثة على الجوانب الأمنيّة بصورة شديدة، وقال: «إنّ هذه المسودّة لم تعالج مسألة الأمن بما فيه الكفاية، ولا أمن المستوطنات الّتي لم نتوافق على حلّها»، ثمّ تحدّث عن التّعاون الاقتصاديّ مطوّلاً. وفي نهاية الجلسة حاولت إجمال النّقاش بالقول:» إنّ هناك علاقة قويّة بين الأمن والسّلام، ونحن قادرون على وضع حدّ لأعمال العنف شريطة أن نتمكّن من ضمان مستقبل مختلف عمّا هو عليه الوضع الرّاهن»، وقلت أيضاً: «يجب أن تسفر الانتفاضة عن ثمار سيّاسيّة، ونحن نسعى حقّاً إلى بداية جديدة في حياة شعبنا».

عقب انتهاء هذه الجولة المهمّة يوم ١٩٩٣/٥/٢٢ عدنا إلى تونس، والتقينا الأخ أبو مازن ثمّ الأخ أبو عمّار، ووضعنا أمامهما محضراً ملخّصاً لاجتماعات هذه الجولة، حيث أرفقنا به عدداً من الملحوظات والاستخلاصات عن أوّل مفاوضات رسميّة بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وإسرائيل، الأمر الّذي ساعد كثيراً في الحوارات الدّاخليّة الّتي أجريناها حول سير العمليّة، وحيال نتائج الجولة التّفاوضيّة الخامسة، كونها شكّلت أوّل اتّصال رسميّ من نوعه بين منظّمة التّحرير وبين إسرائيل الّتي كانت حتّى تاريخة تعدّ المنظّمة منظّمة إرهابيّة، وتحظر على أيّ إسرائيليّ الاتّصال أو اللّقاء مع أيّ عضو في هذه المنظّمة المعترف بها على أوسع نطاق دوليّ.

لقد كان انضمام أوري سافير إلى مفاوضات أوسلو عامل تحفيز لنا لبذل

مزيـد مـن الاهتمـام والجدّيّة والأمـل بنجاح هذه القنـاة السّرّيّة الّـتي بدت في ذلك الوقـت واعـدة أكثر ممّا كانـت عليه في أي وقت مـضى. إلّا أنّنا في الجولة السّادسـة الّـتي بـدأت يـوم ١٩٩٣/٦/١٣م وجدنـا أمامنـا في الوفـد الإسرائيلي شـخصيّة أخرى جديـدة، وهـو المحـامي يوئيـل سـينغر الّذي تـولّى لتّـوه منصب مستشـار قانـونيّ في وزارة الخارجيّـة الإسرائيليّـة بنـاء على توصيـة مـن يـوسي بيلـين، واعتمـاداً على شـمعون بيريـس، وتزكيـة مباشرة من إسـحق رابـين، وذلـك تمهيداً لإلحاقـه بالوفد الإسرائيـليّ المفـاوض، أي مـن جانـب أصحـاب السّـلطة العليـا في إسرائيـل. لـم تكـن السّـيرة الذّاتيّة أو المكوّنات الشّـخصيّة ليوئيل سـينغر تبعث فينـا الارتياح، فقـد بـدا لنا هـذا الوافـد الجديـد كأنّـه رجل قانـون محترف.

وبالفعـل فقـد أكّـدت لقاءاتنـا الأولى مـع هـذا المحـامي أنّـه رجـل جـاف وكولونيـل محـترف قليـل المجامـلات، ومفـاوض هجـوميّ فـظّ، لا يمـلّ مـن طرح الأسـئلة والملحوظـات المثيرة للسّـخط، وكأنّـه مـدّع عامّ يترافـع أمـام محكمـة عسـكريّة تسـتعد لإصـدار أحـكام قاسـيّة بحـقّ التّعذيب الوحـشيّ السّـائد حقّاً في أقبيـة أجهـزة الأمـن الإسرائيليّـة... وكانت هـذه كلّها مشـاعر غير معلنـة إزاء هذا الرّجـل، ولكنّهـا كانـت حـاضرة منـذ أوّل لقـاء معه.

على هـذه الخلفيّـة مـن الانطبـاعات المسـبقة تـمّ عقـد الجلسـة الأولى مـن جولـة المفاوضـات السّادسـة وسـط أجـواء تشـير إلى أنّنـا مقبلـون على مواجهـة عاصفـة، خصوصاً عندما بدأ يوئيل سـينغر- بعـد مداخلة أوري سـافير الافتتاحيّة القصـيرة- يتحـدّث بنبرة صارمة أكثر فيها من اسـتخدام عبارات صاحب السّـلطة الآمـرة النّاهيّـة، وقـال: «إنّ أمامـه يومـين فقـط ولديه قائمـة طويلة من الأسـئلة»، الأمـر الّذي دفعـني إلى الـرّد قائلاً: «إنّنا لسـنا في غرفـة تحقيق، وبالتّـالي فإنّي أرفض

الإجابة على ما سيتمّ طرحه من أسئلة»، فقال سينغر: «حسناً، هذه أسئلة رئيس الحكومة، ولكم حرّيّة الإجابة من عدمها، وسأنقل ذلك إلى رابين». ولكي تستمرّ هذه الجولة في مناخ أقل توتراً، قلت له: «نحن أيضاً لدنيا قائمة طويلة من الاستفسارات»، فرد سينغر: «هيا، إنّني مستعد لكّل الاستفسارات».

بعد ذلك بدأ هذا المحامي في طرح أسئلة كانت معدّة سلفاً ومصاغة بشكل دقيق، حيث ركّزت الأسئلة على سبر غور تصوّراتنا عن وضع المستوطنات والمستوطنين خلال فترة الحكم الانتقاليّ، فأخذت من جانبي في الرّد عن هذه الأسئلة بهدوء وصبر وضبط أعصاب إلى أبعد الحدود، على الرّغم ممّا كان يعتمل في صدري من مشاعر غضب وتوتر مكتومين، حيث أجبت عن بعض منها بوضوح، فيما دوّنت ملحوظاتي عن بعضها الآخر، واعداً بعرض هذه الأسئلة على القيادة الفلسطينيّة، ومن ثمّ العودة بالإجابات في الجولة التّفاوضيّة المقبلة.

استمرّت جولة الأسئلة والأجوبة الطّويلة حتى السّاعة الرّابعة فجراً، ثمّ عدّنا إلى المفاوضات في صباح اليوم التّالي، وعاد تدفّق الأسئلة الّتي كانت بمثابة اختبار نفسي للوفد الفلسطينيّ المفاوض، وامتحان سيّاسيّ لمنظّمة التّحرير، كان يعقده إسحق رابين بنفسه عبر يوئيل سينغر المكلّف باستخراج كلّ ما في جعبة المنظّمة من أفكار وتصوّرات واستعدادات للتّوصل إلى اتّفاق. وزاد من صعوبة الموقف أنّ سينغر الّذي كان قد اطّلع على مسودّة اتّفاق إعلان المبادئ أصدر حكماً سلبيّاً ضدّ هذه الوثيقة أمام كلّ من إسحق رابين وشمعون بيريس، الأمر الّذي جعلني أتجنّب الدّخول في ذلك النّوع من المواجهات السيّاسيّة الوحشيّة السّابقة، وأن أتلافى حدوث أزمة تهدّد بانهيار العمليّة التّفاوضيّة.

عندما عدّنا من تلك الجولة المضنية إلى تونس ركّزنا في تقويمنا الموفوع

إلى القيادة على عنصر شديد الأهمّيّة تحقّق عبر تلك الجولة، ونعني به انضمام إسحق رابين إلى القافلة، وإمساكه بدفّة مركب مفاوضات أوسلو، الأمر الّذي أنهى كلّ ما كان قد تبقى لدنيا من شكوك إزاء موقف رئيس الحكومة الإسرائيليّة. وبالفعل فقد عبّرت القيادة عن ارتياحها لهذا التّطوّر، واستنتجت عن حقّ أنّ هذه القناة قد دخلت المرحلة الجديّة، وأنّها أصبحت مؤهّلة تماماً للوصول بنا إلى اتّفاق، حيث تجلّى هذه الأمر في انخراط الأخ أبي عمّار نفسه في التّقويم، ووضع الإجابات الّتي من المقرّر لنا تقديمها في الجولة التّفاوضيّة اللاّحقة.

ولعلّ من المهمِّ هنا إلقاء بعض الضّوء على الدّبلوماسيّة النّرويجيّة الّتي سبقت الجولة السّادسة. فعشيّة تلك الجولة غادر وزير الخارجيّة النّرويجي الجديد بلاده في جولة إلى الشّرق الأوسط، حيث زار تونس والتقى الأخ القائد ياسر عرفات، وتسلّم منه رسالة موجّهة إلى وزير الخارجيّة الأمريكيّ. كما زار إسرائيل والتقى فيها كلاً من إسحق رابين وشمعون بيريس، وبعد ذلك زار واشنطن لاطلاعها على المدى الّذي بلغته قناة أوسلو في ذلك الوقت، وذلك لطمانة الدّولة العظمى الوحيدة إلى أنّ النّرويج لن تتجاوز بأيّ حال من الأحول عتبة الدّور الأمريكيّ، والّذي لاغنى عنه لإنجاح عمليّة سلام الشّرق الأوسط.

ما أودّ قوله بعد جولة وزير الخارجيّة النّريجي هذه: إنّ قناة أوسلو أصبحت منذ ذلك الوقت قناة المفاوضات الرّئيسة الّتي يعلّق الفلسطينيون والإسرائيليون والأمريكيون جلّ آمالهم على نتائجها المحتملة، حيث أصبحت قناة واشنطن المعلنة بمثابة ستار كثيف يحجب الأبصار عمّا يجري في قناة أوسلو السّرّيّة، وذلك بموافقة جميع الأطراف، خاصّة بعد أنّ بدت هذه القناة

واعـدة أكـثر مـن ذي قبل، وباتـت أداة رسـميّة معتمدة مـن جانب الأطـراف ذات الصّلـة، وذلـك بعـد أنّ بـدت أيضـاً خطـوط الاتّفـاق أوضـح فأوضح مـع كلّ جولة مفاوضـات جديـدة، حيـث أكّد لنـا وزير الخارجيّـة النّرويـجيّ آنذاك تأييـد كلّ من إسرائيـل والولايـات المتّحـدة على أنّ الجهـود الدّبلوماسـيّة باتـت منّصبـة على قنـاة أوسـلو، وليـس على تلك المفاوضـات الجاريّة بتعثّر شـديد في أروقة وممّـرات وزارة الخارجيّـة الأمريكيّة.

وثمّـة أيضـاً مـا أودّ قـوله عـن نتائـج هـذه الجولـة التّفاوضيّـة الّـتي تمـيّزت بانضمـام يوئيل سـينغر إلى الوفـد الإسرائيليّ، وهـو: إنّ المفاوضات بـدأت بالانتقال إلى الجانب العمليّ، لا سـيّما في المسـائل المتعلّقة بنقل السّـلطات، الأمر الّذي أدخل العمليّـة التّفاوضيّـة في مسـار زاخـر بالتّفاصيـل، ووضعنا على عتبـة عمليّة صياغة قانونيّـة نهائيّـة لم يتمّ التّفاوض بشـأنها في الجولات السّـابقة على الرّغم مـن أنّ وقتاً طويـلاً مـن هـذه الجولة قد تـمّ اسـتهلاكه في الحديث عـن المفاهيم وكيفيّـة تطبيق بنـود الاتّفـاق، وما إلى ذلك من أسـئلة أظهرت الاهتمـام الإسرائيـليّ المركّز بالأبعاد الأمنيّـة لتطبيـق كلّ بنـد مـن النبـود، وأظهـرت في الوقـت ذاتـه أن لدى إسرائيـل مفاهيـم مختلفـة عمّا لدنيا مـن مفاهيم متّصلة بجسـم السّـلطة ونقـل الصّلاحيات وإعادة انتشـار قوات الاحتـلال والانتخابات الفلسـطينية.

غـير أنّ أهـمّ ما شـهدته هـذه الجولـة يـومي ١٣ و١٩٩٣/٦/١٤، كان فيما طرحه يوئيل سـينغر بشـأن مسـألة المصالحـة التّاريخيّة، والاعـتراف المتبادل بـين اسرائيل ومنظّمـة التّحريـر الفلسـطينيّة، علمـاً أنّ لديهـا خشـية في أنّ تقـدّم تنـازلات على أرض تعهّـدات ووعـود كلاميّـة، ممّـا جعلهـا تطـرح مسـالة الاعـتراف المتبادل في وقـت مبكـر قبل الانتهـاء من اعـداد الاتّفـاق. وعليّ ان أذكـر أنني كنت شـخصيّاً

ضدّ مثل هذا الاعتراف إلى أنّ اتّخذت القيادة المكلّفة بالمتابعة والممثّل بالأخ الرّئيس أبو عمّار والأخ أبو مازن قراراً ملزماً بشأن الاعتراف المتبادل في وقت لاحق في إطار مفاوضات جرت في باريس خلال شهر أيلول سبتمبر، أي بعد توقيع الاتّفاق بالأحرف الأولى، وعشيّة التّوقيع على هذا الاتّفاق رسميّاً في حديقة البيت الأبيض في ١٩٩٣/٩/١٣م.

لقد أدّت المفاوضات في الجلسة السّادسة إلى تقليص مساحة الاختلافات بين موقف الجانبين إلى نحو خمس نقاط، وإلى صياغة عدّة مسودّات ذات مضمون واحد. إلّا أنّ هذه النّقاط على محدوديتها كانت بالغة الأهمّيّة، وبالتّالي كان الجسر على المواقف إزاء كلّ نقطة على يتطلّب مفاوضات أدهى وأمر ممّا كانت عليه المفاوضات في السّابق. لقد كان من الأسئلة الّتي طرحها يوئيل سينغر من سيوقّع الاتّفاق المزمع؟ هل هو الفريق الفلسطينيّ في الوفد الأردنيّ الفلسطينيّ المشترك، أم هو الوفد المفاوض في أوسلو؟ ولما كان من غير الممكن أنّ يوقّع وفدنا في واشنطن اتّفاقاً لا يعلم عنه شيئاً، فقد كان من غير الواقعيّ أن يوقّع وفدنا في أوسلو اتّفاقاً دون أيّ أشعار مسبق لمؤسّسات منظّمة التّحرير الفلسطينيّة.

على أيّة حال... انفضّت المداولات الوحشيّة لتلك الجلسة المضنيّة وسط مشاعر من الإحباط واليأس المتبادل بين الوفدين اللّذين ارتفعت أصواتهما عند السّاعة السّادسة صباحاً حين ركض كلّ منّا إلى حقيبته مهرولاً إلى الخارج، وهو يلقي اللّوم على الطّرف الآخر في الوصول إلى مثل هذا الاستعصاء المفاجئ، حيث شعرنا أنّ الاتّفاق الّذي بدا لنا قاب قوسين أو أدنى قد أصبح أبعد منالاً ممّا كان عليه من قبل، وهو الأمر الّذي يفسر من وجهة نظرنا خيبة الأمل الشّديدة، ويشرح أسباب ذلك التلّاوم والشّجار الّذي حدث في نهاية هذه الجولة التّفاوضيّة السّاخنة، وكاد أن يعصف بكلّ ما سبق التّفاهم عليه في السّابق.

بعد ذلك... عاد وفدنا إلى تونس لتدراس الموقف مع القيادة العليا وتقويمه. وتقديراً مني لأهمّيّة ومفصليّة ما كان يتم تداوله في المفاوضات، طلبت من الأخ أبي عمّار إشراك الأخ أبي اللّطف كوزير للخارجيّة في عمليّة دراسة المقترحات المطروحة، فقال لي القائد العام: «إنّ الأخ أبا اللّطف على اطّلاع على آخر التّفاصيل، وإنّه تسلّم صورة آخرى لمسودّة مشروع الاتّفاق، وإنّ أبا اللّطف علّق على تلك المسودّة قائلاً: «جيّد أن يكون ذلك صحيحاً». وعلى الجانب الآخر كان هناك تشاور مع الأخ محمّد غنيم (أبو ماهر)، وأنّه قد جرى معه البحث في مسألة الاعتراف المتبادل بين المنظّمة وإسرائيل.

وبالعودة إلى سياقات مفاوضات الجولة السّادسة، ووقائعها العاصفة، فأنّه يبدو أنّ الإسرائيليين- الّذين أصيبوا بخيبة أمل شديدة جراء إفراطهم بالتّفاؤل حيال إمكانيّة توقيع الاتّفاق بسرعة- قد تدارسوا الموقف من جديد، وأنّهم توصلوا إلى استنتاجات جديدة كان من بينها أنّ مسار أوسلو كلّه قد يتعرّض للانهيار إذا ما بقيت مواقف الطّرفين متعارضة بهذه الدّرجة من الحدّة، الأمر الّذي جعلهم يقترحون علينا عبر الوسيط النّرويجيّ عقد لقاء مصغّر في أوسلو، يقتصر على يوئيل سينغر من الجانب الإسرائيليّ الّذي تسبّب أصلاً في هذه الأزمة المفاجئة، وذلك كي يعيد على مسامعي شرح الموقف الإسرئيليّ حيال الأفكار والمقترحات المطروحة، لعلّ ذلك يقلّل من حدّة التّشاؤم، ويعيد بناء جسور الثّقة والتّفاهم.

على هذه الخلفيّة عاد يوئيل سينغر إلى اوسلو وحده في ١٩٩٣/٦/٢٧ فيما يمكن تسميته همزة وصل بين جولتين، أو جولة تفاوضيّة سابعة قصيرة، وعقدت معه اجتماعاً استهله المفاوض الإسرئيليّ الفظّ بالقول:» إنّ لديه

مقترحات جديدة، وإنّه مفوّض من جانب إسحق رابين عرض هذه الأفكار علينا، وإنّه أيضاً معنيّ قبل ذلك بتبديد ما حدث من سوء فهم في الجولة السّابقة»، الأمر الّذي حدا بي إلى طرح سيل من الأسئلة التّفصيليّة المقابلة لما كان قد طرحه علينا سينغر، والّتي انصبّت على جلاء حقيقة الموقف الإسرائيليّ تجاه عدد من القضايا المتعلقة بمختلف جوانب الاتّفاق المنشود بما في ذلك الانسحاب من غزّة وأريحا، والمعابر، والأمن، وعودة القيادات الفلسطينيّة من المنفى، والمستوطنات، وغير ذلك.

لقد اتّضح لي في غضون هذا اللّقاء أنّ عودة يوئيل سينغر السّريعة هذه كان الهدف منها تأكيد حرص إسرائيل على استمرار عمل القناة السّرّيّة، وتبديد ما علق في أذهاننا من شكوك او سوء فهم أو غير ذلك من عوامل احباط؛ أيّ أنّ الغايّة من وراء هذا اللّقاء التّفاوضيّ العاجل لم يكن الوصول إلى الاتّفاق المرغوب فيه بقدر ما كان إعادة الثّقة لدينا بجدّيّة الجانب الإسرائيليّ، ورغبته في اعتماد أوسلو كقناة وحيدة للمفاوضات، وأنّ كلّ ما نسمعه من تصريحات إسرائيليّة حول لقاءات تجري هنا أو هناك مجرّد مبادرات فرديّة يقوم بها أناس لا علم لهم بقناة أوسلو، وما يجري فيها من مفاوضات جدّيّة ورسميّة ومعتمدة على أعلى المستويات.

على أنّ أهمّ ما طرحه يوئيل سينغر في هذا اللّقاء التّفاوضيّ السّريع كان يتعلّق بمسألة الاعتراف المتبادل بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وإسرائيل، الأمر الّذي أوضح لنا أنّ إسحق رابين كان قد بدأ يولي هذه المسألة اهتماماً شديداً ومركزيّاً، ويقدّمها على غيرها من المسائل المتّصلة بمختلف جوانب مسودّة الاتّفاق الجاري التّفاوض عليه، وأنّ الاعتراف المتبادل بدأ يأخذ الاولويّة الأولى لدى الجانب الإسرائيليّ، بل إنّه كان يتقدّم على عمليّة استكمال المفاوضات بشأن

مسـودّة اتّفـاق إعلان المبـادئ، ثمّ قـدّم بعد ذلك مجموعـة من النّقـاط لعرضها على القيـادة الفلسـطينيّة؛ لتكـون الأسـاس الّذي سـيتمّ عليه التّفـاوض في وقت لاحق.

لم يمض سـوى أسـبوع واحد حتّى عدّنا في ١٩٩٣/٧/٦م إلى أوسـلو من جديد، وهـو مـا يشـير إلى ارتفـاع وتـيرة الجلسـات، ويعـني أنّ الحـسّ بمـرور الوقـت قد أخـذ يضّغط على الأعصاب، لا سـيّما على الجانـب الإسرائيليّ، وأنّ هنـاك اعتبارات داخليّـة قـد أخـذت تلح على حكمة إسـحق رابين للوصـول إلى اتّفـاق بدأت بعض وسـائل الإعـلام تتحدّث عنـه. وعلى ضوء المناقشـات الّتي اخذت مداهـا الكامل مع مشـاركة كلّ مـن اوري سـافير ويوئيل سـينغر الفاعلـة... جاء الوفـد الإسرائيليّ إلى الجولـة الثّانيّـة هـذه وهو يحمل مسـودّة رسـميّة مكتوبة لاعـلان المبادئ المشـترك، والّذي كان ينـصّ، بيـت بنـود اخـرى، على إقامـة حكـم ذاتيّ في غـزّة وأريحـا، تليه اتّفاقيّـة تسـوية مرحليّـة، تنتهي بتطبيـق الحكـم الذاتيّ في الضّفّـة الغربيّة، وتجري بعـد ذلـك مفاوضات الحـل النّهائيّ.

لـم نكـن في الجانـب الفلسـطيني بحاجـة سـوى إلى إلقـاء نظـرة سريعة على هـذه الوثيقـة كي نكتشـف أن بناءهـا، الّذي صـار أكـثر وضوحـاً مـن ذي قبـل ينطـوي على تراجعـات إسرائيليّـة شـديدة وواسـعة قياسـاً بما كنّـا قـد اتّفقنا عليه في السّـابق، حيـث بدا النّصّ الجديـد وكأنّه سـيعيدنا إلى المربـع الأوّل؛ فقد اقترحوا علينـا- مثـلاً- أنّ يتـمّ التّوقيـع على الاتّفـاق على مرحلتـين: الأولى بـين منظّمـة التّحريـر وممثّـل عـن حكومـة إسرائيـل في أوسـلو، والثّانيـة بـين فيصل الحسـيني وشـمعون بـيرس في احتفـال رسـميّ يجـري في واشـنطن، ويجـري في تلـك اللّحظـة الإعـلان عن قناة أوسـلو بصفة رسـميّة، وهـو ما يعني بالنّسـبة لنا اسـتبعاد القيادة الرّسـميّة الفلسـطينيّة المعـترف بهـا مـن عمليـة التّوقيـع على الاتّفاق.

وكان لافتاً لنا حديث الإسرائيليين معنا بصرامة نادرة، بل ومفاجئة، حيث أبدوا لنا مخاوف حقيقيّة إزاء الأمريكيين، وقال أحدهم:« إنّه يخشى أن يلقي هذا الاتّفاق ما لقيه اتّفاق لندن بين الملك حسين وشمعون بيريس قبل أعوام، حيث ادّت الحسابات الذّاتيّة الأمريكيّة إلى إجهاض ذلك الاتّفاق الّذي كان يعارضه على أيّ حال رئيس الحكومة الإسرائيليّة إسحق شامير». كما تبيّن لنا أنّ القيادة الإسرائيليّة لا تثق كثيراً بحسن نيّة بعض الأعضاء البارزين في ادارة الرئيس بيل كلينتون، وقال لنا: «إنّ بعض هؤلاء- وبالأسماء - حرفوا المفاوضات المباشرة عن مسارها الطّبيعيّ لحسابات محض شخصيّة»، وكانوا يعنون بذلك المفاوضات الجاريّة بتعثّر شديد في أروقة وزارة الخارجيّة الأمريكيّة.

وممّا يجدر ذكره عن مفاوضات تلك الفترة الزّمنيّة، أنّه بقدر ما بدت حكومة إسحق رابين مقتنعة بالانسحاب من أريحا في وقت متزامن مع الانسحاب من غزّة، إلّا أنّها بدت متشدّدة في مسائل أخرى مثل القدس، حيث رفض الوفد الإسرائيليّ المفاوض ذكرها في أيّ اتّفاق خشية انهيار الائتلاف الحكوميّ مع حزب (شاس) الّديني. كما انسحب هذا الموقف المتشدّد أيضاً على قضيّة النّازحين ومسألة التّحكيم الدّوليّ. أما فيما يتعلّق بالأمن- وهو بقرة إسرائيليّة مقدّسة- فقد تضمّنت الوثيقة المقترحة مفهوماً للأمن، يجعل من الأمن الخارجيّ نسخة طبق الأصل عن الأمن الدّاخليّ من النّاحية العمليّة والتّطبيقيّة.

وفي ردّنا على هذا الموقف التّفاوضي وضعنا بالتّشاور مع القيادة في تونس رداً تضمّن عدداً من المبادئ منها النّصّ على تنفيذ قرار مجلس الأمن الدّوليّ ٢٤٢، والرّبط بين المرحلة الانتقاليّة والمرحلة النّهائيّة، وحلّ الحكومة العسكريّة

والإدارة المدنيّة، ومشاركة أهل القدس في الانتخابات تصويتاً وترشيحاً، وحقّنا في تشكيل قوّة الشّرطة الفلسطينيّة من الدّاخل ومن الخارج، وأنّ اتّفاق غزّة-أريحا جزء من اتّفاق إعلان المبادئ وليس اتّفاقاً منفصلاً عنه، وتسليم غزّة وأريحا لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة عندما يتمّ الإعتراف المتبادل بينها وبين إسرائيل. ومن أجل الحفاظ على الوتيرة المتسارعة لهذه الجلسة، وإبقاء الزّخم التّفاوضيّ على حاله، اتّفقنا مع الوفد الأسرائيلي على اعتبار هذه المرحلة مرحلة اسّتكشاف.

وهكذا كانت هذه الجولة الاستكشافيّة بمثابة فاتحة عريضة لما سيلي من جولات متسارعة لاحقا، وحافلة بالتّطورات المهمّة، وحافلة أيضا بالتّسريبات الإخباريّة عن المفاوضات عبر الصّحافة الإسرائيليّة، وأيضا كذلك بالمقابلات والتّصريحات والتّعليقات عن مفاوضات سرّيّة فلسطينيّة إسرائيليّة تحرز تقدّما وتقترب من الوصول إلى نهايات إيجابيّة قد تعلن في وقت لاحق، الأمر الّذي أدّى إلى زيادة الزّخم في هذه القناة، وشكّل عامل ضغط على حكومة إسحق رابين للإسراع في إنهاء ما تبقّى من مسائل خلافيّة، ومن ثمّة الإعلان عن وجود مفاوضات بات من الصّعب على الجميع الاستمرار في إنكار وجودها.

ومع أنّه بقيت هناك بعض الفجوات القليلة والعميقة بين موقفيّ الطّرفين، فقد بدا المشهد العامّ لمجرى المفاوضات يوحي بأنّ الفلسطينيين والإسرائيليّين باتوا على وشك التّوصل إلى اتّفاق نهائيّ طال انتظاره، حيث أصبحت المدّة الفاصلة بين جولة تفاوضيّة وجولة تفاوضيّة أخرى لا تزيد عن أسبوع واحد. إنّ هذا التّتابع السّريع ولّد زخما أقوى من كلّ العوائق، حيث بات حدوث الاختراق التّاريخيّ يلوح في الأفق من دون أن يعني ذلك أنّ الطّريق

بـات مفتوحـاً بالكامـل. فقد بدا الطّـرف الإسرائيـليّ متعجّلا للغاية مـن أجل إنهاء المفاوضـات، وراح يلـحّ علينـا لاسـتكمال العمليّة... وهـو الأمر الّذي عـزّز موقفنا التّفـاوضيّ، وجعلنـا نسـتثمر عامـل الزّمـن لتحقيـق أقصى مـا يمكـن تحقيقه من مطالـب فلسـطينيّة كان الوفـد الإسرائيـليّ يحـاول تأجيلهـا إلى مرحلـة لآحقة.

وصلنـا إلى النّرويج يـوم ١٩٩٣/٧/١١ لبدء الجولة التّاسـعة، وكان فصل الصّيف في تلـك البـلاد البـاردة في أفضل حالاتـه. وما إن بـدأت المفاوضات حتّى اكتشـفنا أنّ الوفـد الإسرائيـليّ عاد إلينا بمواقف متشـدّدة إزاء كلّ القضايـا الخلافيّة المتبقيّة، الأمـر الّذي قـوّض الموقـف المتفائـل لدى النّرويجيين الّذيـن انخرطوا أعمـق من ذي قبـل في مجـرى العمليّـة التّفاوضيّـة، وقد كانـت أهمّ الموضـوعات الخلافيّـة ممثّلة في ثـلاث نقـاط: أمـن المسـتوطنات، وحـدود المناطـق الّـتي سـيتمّ الانسـحاب منهـا، وأمـن الإسرائيليّين الّذي يتنقّلون بين المسـتوطنات في الأراضي الفلسـطينيّة. وإزاء ذلـك قدّمـت ٢٥ تعديـلا أثارت حفيظـة الوفد الإسرائيـليّ مثل إدخال اسـم منظّمة التّحرير في نـصّ الاتّفاق.

لقـد انفجـر الوفد الإسرائيليّ غضبـا إزاء موقفنا المتشـدّد، وكان غضب أوري سـافير أشـدّ من غضـب أعضاء الوفـد الآخرين، وهو مـا أثار ارتيـاحي، حيث قلت في نفـسي: «هـا أنـا أذيقهم من الـشّراب نفسـه الّذي أذاقونا إيّاه في جولات سـابقة». ولتلطيـف حـدّة الأجـواء قمـت بتـلاوة الرّسـالة الّـتي حملناهـا معنا مـن الأخّ أبي عمّـار، المتضمّنـة التزامـا واضحا بأسـس عمليّة السّـلام، ونبذاً للإرهـاب، وإبطالا لـكلّ مـا ورد في الوثائـق التّاريخيّـة لدى الطّرفـين مـن نصـوص متعارضة مـع وثائق السّـلام النّهائيّـة، فضـلا عـن أنّ الحـلّ الشّـامل والمتوازن بـين الطّرفين من شـأنه أن ينـهي حالـة العـداء بـين الشّـعبين ويوقـف كلّ الأعمـال العدائيّـة ضـدّ الأفراد والحقـوق والممتلـكات، بمـا في ذلك منـع الإرهاب بكلّ أشـكاله.

أدّى هـذا كلّـه إلى مزيـد مـن التّشـدّد المتبادل بـين الجانبين، حيـث أصّر كلّ وفـد على موقفـه المعلـن، وهـو ما دعانـا إلى تأجيـل الجلسـة إلى صباح اليـوم التّالي مـن أجـل تبريـد الأجـواء السّـاخنة وإجـراء مشـاورات ومراجعـات عاجلـة مـع المرجعيّـات السّياسـيّة العليا.

في اليـوم التّـالي جلسـنا معـا، وتناولنا وجبـة الفطـور سـويّة، إلّا أنّ الجوّ ظلّ مكفهـرا، ولذلـك لـم تـدم هـذه الجلسـة طويـلا. وبعـد أخـذ ورد بـدا واضحـا أنّ كلّ وفـد بحاجـة إلى مراجعـة قيادتـه السّياسـيّة، فعدنـا كلّ إلى مـكان انطلاقـه دون إحـراز تقدّم كان مأمولاً في الجلّسـة السّـابقة. وهنـا تدخّل وزيـر الخارجيّة النّرويجيّ بصـورة مبـاشرة، حيث قـام بزيارة إلى تونـس التقى فيهـا الأخّ أبا عمّـار فيما ذهب تـيري لارسـون وزوجتـه إلى إسرائيل.

لخـصّ الأخّ أبـو عمّـار الموقـف الفلسـطينيّ أمـام وزيـر الخارجيّـة النّرويجيّ قائـلا: «إنّنـا بحاجـة إلى اخـتراق تاريـخيّ خاصّـة في غـزّة وأريحـا، وإذا كانـت هناك عقبـات فنحـن على اسـتعداد لإجراء فـكّ اشـتباك، والعكس صحيـح، وفي المرحلة النّهائيّـة فهـم مجـبرون على أن يقدّمـوا لنـا ممـرّا بريّـا بـين غـزّة والضّفـة الغربيّـة (كاريـدور)، ونحـن منفتحون على بينولوكس اقتصاديّ معهـم ومع الأردنّ في المرحلة الأخـيرة، والاتّفـاق معنـا سـوف يمكّـن رابين مـن التّوصـل إلى اتّفاق مـع الأردنّ ولبنـان وسـوريا فيمـا بعـد، وقوّاتنـا هي القـوّة الوحيـدة القـادرة على حفـظ الأمن، ونحـن نريدهـا أن تكون قوّات للأمن المركـزيّ تتكوّن في الدّاخـل والخارج، ونريد إعـلان مبـادئ بسرعـة. وبالنّسـبة للقـدس فـإنّ علينا إيجـاد طريقـة لتضمينها في نـصّ اتّفـاق إعـلان المبادئ».

وبالعـودة إلى زيـارة وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ إلى تونـس فقـد اتّضـح لنا أنّ

الوزيـر الضّيـف كان يريـد التّثبت من حقيقـة أنّ الزّعيم الفلسـطينيّ ياسر عرفات على اطّـلاع كامـل بمجريـات عمليّـة أوسـلو لتبريـر بعـض الشّـكوك مـن الجانب الإسرائيـليّ القائلـة أن أبـا عمّار قـد لا يكون على اطّـلاع كامل على هـذه العمليّة السّرّيّـة وأنّـه يمكـن أن يتنصّـل منهـا في أيّ وقـت مقبـل، ولذلـك فقـد حـرص الوزيـر النّرويجيّ على أن يرسـل تيري لارسـون إلى إسرائيل لاطلاع كبار المسـؤولين على فحـوى ونتائـج زيـارة الوزيـر النّرويـجيّ لتونـس بما في ذلـك التّأكيـد للجانب الإسرائيـليّ أنّ الأخّ أبـا عمّـار ليـس فقـط كان مطّلعـا على مجريـات القنـاة، وإنّما أيضـا كان يدعمهـا، ويرغـب في تحقيـق اختراق سريـع فيها.

على خلفيّـة زيـادة التّدخـل الدّبلوماسيّ النّرويـجيّ في العمليّـة التّفاوضيّة من جهـة أولى والاسـتعجال الّذي أبدتـه القيـادة الإسرائيليّـة للتّوصـل إلى اتّفـاق مغبّة اكتشـاف أمـر المفاوضـات من جهـة ثانيـة، حدثت طفـرة في الجلسـات التّفاوضيّة خـلال شـهر تمـوز/ يوليـو الّذي انعقـدت خلاله ثـلاث جلسـات متعاقبـة، حيث أنّ مـا أبـداه هـؤلاء المضيفـون مـن رغبـة مخلصة وجهـد دبلومـاسيّ، بمـا في ذلك نقـل الرّسـائل التّطمينيّـة والتّوضيحات، كان له أثـر بالغ وحقيقي في تسريـع العمليّة التّفاوضيّـة، وإيصالهـا لاحقـاً إلى مـا يمكـن أن نسـمّيه لحظـة الحقيقـة؛ أي وضـع الأسـس الثّابتـة لجولة المفاوضـات الحادية عـشرة، وهي جولة حاسـمة انعقدت بين الرّابـع والعشريـن والسّـادس والعشريـن من شـهر تمـوز/ يوليو.

بدأنـا هـذه الجولة بعرض معـدّل تعديلا طفيفـا لوثيقة اتّفاق إعـلان المبادئ الّـتي عرضناها في الجولة السّـابقة، متمسّـكين بالحـدود الدّنيا المطلوبـة لنا من أجل تلبيـة مصالـح شـعبنا الّذي كان يتابع مفاوضات واشـنطن العلنية المثيرة للإحباط، بينمـا كانـت أوضاعـه الاقتصاديّـة تتدهـور أكـثر فأكـثر مـع مـرور الوقـت. فقـد

تمسّكنا في نصّ الوثيقة هذه بعدد من العناصر المهمّة؛ مثل أنّ منظّمة التّحرير الفلسطينيّة شريك اساسي في هذه المفاوضات، وأنّ الانسحاب الإسرائيليّ من قطاع غزّة يجري في غضون ثلاثة أشهر، ناهيك عن إنشاء قوّة بوليس فلسطينيّ مكوّنة من عشرة الآف شرطيّ في غزّة وأريحا، وكذلك فرض السّيطرة الفلسطينيّة على المعابر الحدوديّة وغير ذلك.

وكما كان متوقّعا فقد رفض الجانب الإسرائيليّ هذا النّصّ، ولم يتردّد أوري سافير في مخاطبتي قائلا: «أبو علاء، إنك تتنكّر للتّفاهم الّذي سبق أن أحرزناه، وإذا ما أطلعنا بيريس ورابين على هذه الوثيقة فإنّ ذلك سيعني نهاية المفاوضات، فإمّا أن نعود إلى الوثيقة السّابقة لهذه، أو تنتهي هذه المفاوضات»، فأجبت سافير على الفور: «أوري، عليكم أن تستمعوا جيّدا إلى وجهة نظرنا، فنحن لا نتجاهل الوثيقة المشار إليها، فيما المواقف الّتي نطرحها في هذه الوثيقة مفتوحة للنّقاش بيننا تماما مثلما هو حال الوثيقة السّابقة. أمّا إذا تجاهلتم ما نقدّمه لكم من نصوص فنحن أيضا لا نستطيع العودة إلى تونس، ولن يكون بإمكاننا عرض ذلك على القيادة الفلسطينيّة، لاسيّما على الأخّ أبي عمّار».

في واقع الأمر كنا نشعر خلال هذه الجولة وهي الأخيرة في شهر تموز/يوليو أنّنا على عتبة اتّفاق كبير ومهم، وأنّنا نقترب من لحظة الحقيقة، الأمر الّذي خلق لدينا في قرارة أنفسنا مشاعر مختلطة ومتناقضة إلى حدّ ما، فمن جهة أولى كنّا نشعر بثقل المسؤوليّة الملقاة علينا في هذه المرحلة، وبوطأة عبء مواجهة القيادات والجماهير الفلسطينيّة والمسؤولين العرب والرّأي العامّ، وذلك إذا ما توصّلنا إلى اتّفاق لا يرضي كلّ هؤلاء، إن لم يكن من المستحيل تماما إرضاء كلّ هؤلاء الّذين سيتفاجؤون بما سيعلن في نهاية هذه المفاوضات القائمة في نطاق السّرّيّة والتّدرج الزّمانيّ والمراحل المتعاقبة.

كان يزيد من حراجة الموقف - ونحن نفكّر في كلّ ذلك - أنّنا نحن في الثّورة الفلسطينيّة أكثر من أسهموا في بناء موقف شعبيّ معارض لأيّ تسويّة تنقص من حقّ الشّعب الفلسطينيّ في كامل ترابه الوطنيّ، واننا نحن من عمل على مدى عقود زمنية طويلة على تعميق مثل هذه القناعات لدى الفلسطينين والعرب كافّة. إلّا أنّنا من جهة مقابلة كنّا على استعداد تامّ لمواصلة الإمساك بلحظة سياسيّة لا سبق لها في تاريخ الصّراع الشّديد، تبشّر بإمكانيّة التّوصّل إلى اتّفاق انتقاليّ يفتح صفحة عريضة وجديدة أمام مسار الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة الّتي واجهت في تلك الفترة، لاسيّما بعد حرب الخليج الثّانية، خيارات قاسيّة وصعوبات لا حدّ لها مع الأسف الشديد.

من ناحية ثانية، وفيما كنّا نتحسب لردود أفعال فلسطينيّة نعرف سلفا منطلقاتها ودوافعها واتجاهاتها، كنّا نخشى أيضا ردّات فعل أشقائنا العرب ولاسيّما شركاؤنا في اللّعبة التّفاوضيّة الجارية في واشنطن منذ عدّة أشهر، إلّا أنّ هذه الخشية وذلك التّحسب لم يحولا دون استمرار خوفنا من إمكانية هبوب رياح قويّة تقلب المركب الصّغير المبحر في أعالي البحار، وتجعلنا متخلّفين عن المركب العربيّ الّذي قد ينطلق بعيدا عنّا، ويتركنا خلفه نتخيط بين أمواج مفاوضات واشنطن المتعثّرة وبين أنواء المأساة الفلسطينيّة السّياسيّة والاجتماعيّة المتفاقمة بفعل تداعيات حرب الخليج الثّانية، الأمر الّذي يحفزنا لمواصلة مثل هذه المجازفة السّياسيّة المحسوبة والتّقدّم نحو نقطة الحسم بكلّ ما فيها من مخاطرة كبيرة.

لقد كنّا نرى في الاتّفاق الّذي ظلّت بشائره تلوح في أفق قريب المنال فرصة لا يجب هدرها أبدا، مثل كسر جملة من اللآءات الإسرائيليّة وإقامة

مجلس وطنيّ فلسطينيّ منتخب، وهو أمر يشكّل في حدّ ذاته سيادة واقعيّة على أوّل أرض فلسطينيّة متاحة، وذلك باعتبار أنّ السّيادة هي لمن يمارسها على الأرض وتنفيذ قراري مجلس الأمن الدّوليّ ٢٤٢ و ٣٣٨ وهو ما سيؤدّي إلى قيام دولة فلسطينيّة مستقلّة مهمّا كانت الصّعوبات والتّحدّيات والعراقيل، فالمفاوض الإسرائيليّ كان يعي وهو يفاوض حركة وطنيّة فلسطينيّة ذات برنامج استقلاليّ أنّ ذلك سيقود في نهاية المطاف إلى قيام دولة فلسطينيّة مستقلّة.

لذلك قرّرنا متابعة هدفنا النهائيّ بكلّ قوّة والتّمسك به حتّى النفس الأخير على الرّغم ممّا رافق جولات المفاوضات الأخيرة من حدّة، وما صاحبها من أجواء مشحونة بالشّك من احتمال انهيار المفاوضات في اللّحظة الأخيرة، ولذلك ومن أجل إبقاء الأبواب مفتوحة لمزيد من المفاوضات في المستقبل قمنا بمحاولة مشتركة لانقاذ العمليّة التّفاوضيّة، إلّا أنّ هذه المحاولة باءت بالفشل، بل أثمرت أزمة مستعصية لا سابق لها، بعد أن تخلّل هذه الجولة كثير من الاتهامات والصّراخ المتبادل والعبارات الحادّة، حيث خاطبت أوري سافير في صيغة حادة قائلا: «إنّ ما تعرضونه علينا في حقيقة الأمر هو لا شيء في واقع الامر، وهو ليس سوى الإبقاء على الاحتلال بصورة ووسائل أخرى، لذلك فإنّنا نفضّل الانتظار لمدّة عشر سنوات أخرى لتحقيق اتّفاق منطقيّ ومقبول».

حينها ردّ عليّ أوري سافير بنبرة بائسة، وبما معناه: «ليس في قدرتنا سوى الانتظار، وأنّنا معا سننتظر قدوم المسيح المخلص بينما ستتواصل آلآم الشّعبين». ثمّ أضاف: «لن نتخلى عن الأمن، لقد حارب كلّ طرف الآخر مئة سنة، وسنستمر في هذه الحرب، إنّنا نتفاوض حول الحكم الذّاتي المرحليّ، أمّا محادثات التّسوية الدّائمة حول الحقوق الوطنيّة الكاملة والدّولة الفلسطينيّة فهي

مرحلـة لاحقـة». وهكذا اسـتمرّ التّراشـق بالكلمات وتبـادل الصّراخ فيمـا قام بعض أعضـاء الوفـد الإسرائيليّ برثاء عمليّة أوسـلو بشـكل دراميّ، ثمّ وقعـت الأزمة الّتي كنّـا نحـاول تحاشـيها عندما اقترح سـافير إنهاء المفاوضـات عند هذا الحـدّ، على أن يقـوم كلّ وفـد بإبـلاغ مرجعيته بمـا آل إليه حـال العمليّـة التّفاوضيّة.

اقتـضى هـذا الموقـف مـنّي الموافقـة الفوريّـة على إنهـاء المفاوضـات ورحت أجمـع عـن الطّاولـة أوراقي المتناثـرة، بينمـا راح سـافير يجمـع أوراقـه هـو الآخـر، وسـادت لحظـة ثقيلـة مـن الوجـوم والكآبـة. وقبـل أن ينهـض كلّ منّـا عـن مقعده للمغـادرة طلبـت مـن الجميـع الجلـوس على مقاعدهـم لـلإدلاء بتصريح شـخصيّ، فقلـت والتّأثّـر باديا عليّ: «لقـد وصلنا إلى طريق مسـدود بعد الآن، وأنا لا أسـتطيع الاسـتمراريّة في تقديـم أيّ مسـاهمة بعـد الآن، أودّ أن أعلمكـم بأنّـني سـوف أسـتقيل مـن هـذه المهمّـة، والأخ أبـو عمّـار سـيقرّر من هو الشّـخص الّذي سـوف يحـلّ محلّي، وأشـكركم على مـا أبديتموه من تعـاون، وقد كان التّعرّف عليكـم شـيئا ممتعـا ومفيـدا بالنّسـبة لي، آمـل أن نلتقي في المسـتقبل».

كان تصريـحي هـذا وكأنّـه منـاورة تفاوضيّـة بينمـا هـو تعبـير عـن اليـأس والإحبـاط، ولـم أكـن أدري إذا كانت هـذه المناورة سـتنجح أم لا في تليـين الموقف الإسرائيـليّ، وكنـت أعلم أنّ هذه المفاوضات ليسـت ملك لشـخص ليقـرر الإبقاء عليهـا مـن عدمـه، ولذلـك تجنّبـت في تصريحي الإعـلان عن إغـلاق هـذه القناة، وهـو مـا التقطه سـافير بدقّة حين قال: «أشـعر بالأسـف للقـرار الّذي اتّخذتـه يا أبو عـلاء، وفي رأيي أنّ هـذا قـرار خاطئ، بيد أنّني سـأحترمه، وباسـمي وباسـم زملائي أتمـنى لك النّجاح ولا شـكّ في أنّنا سـنواصل العمـل في هذه القناة مـع البديل الّذي سـيحلّ محلّك».

أدّى هـذا التّعقيـب الجـافّ على كلمـتي من جانـب رئيس الوفـد الاسرائيلي المفـاوض إلى شـحن الاجـواء بمزيـد مـن التّوتّـر، وعمّق من حدّة الشّـعور المشـترك بخيبـة الأمـل والصّدمـة لدى الجميـع، ولـم تنفع كلمـات المجاملة مـن جانب بعض أعضـاء الوفـد الإسرائيـليّ مـن تخفيـف حالـة الوجـوم والتّجهـم السـائدة. بعدهـا توجّهـت الأنظـار نحـوي إلّا أنّـني بقيـت صامتـا وغاضبا، ثـمّ نهضت مـن مقعدي، وطلبـت مـن أعضـاء وفدنـا حـزم الحقائـب. توجّهـت نحـو بـاب القاعـة، وخرجنا معـا دون أن نلـقي التّحيّـة أو حـتّى مجـرّد نظـرة إلى الوراء، كمـا لم أتبـادل الحديث مـع مضيفينـنا النّرويجيـين الّذيـن كانـوا في انتظارنا بالخـارج، وتوجّهـت إلى الفندق لأجـري مكالمـة هاتفيّـة مـع الأخّ أبي مازن لأخـبره فيهـا أنّ المفاوضات قـد انتهت.

طالبـتُ تـيري لارسـون بغضب أن يحضر لنـا السّـيّارات، وأن يغـيّر لنا موعد حجـز التّذاكـر قائـلا له: «لـن أعـود مـرّة أخـرى إلى هـذا المـكان»، وبقيـت في بهو الفنـدق أتعجّـل ركـوب السّـيّارة والمغـادرة. بعـد حـين قليـل اقترب لارسـون منّي بـتردّد وعلامـات الحسّ بالفشـل باديـة على وجهه، وقـال لي إنّه يريـد الحديث معي، فأجبتـه بـلا تـردّد: «عَمَّ نتحـدّث؟ ولمـاذا لا تذهـب إلى أصدقائـك الإسرائيليين؟» فـردّ بنبرة يائسـة فيها شيء من التّوسـلّ والرّجـاء قائلا: «أبو علاء، تحـدّث مع أوري سـافير على انفراد، إنّهـا الطّريقة الوحيـدة لإصلاح الموقف واسـتئناف المفاوضات». فرفضـت الفكـرة من أساسـها، وأبديت قـدرا من الانـزعاج والغضـب الإضافيّ.

إلّا أنّ تـيري لارسـون اللّطيـف الدّمث تحمّلـني كثيرا وتحمّل فـورات غضبي أكـثر ممّـا يسـتطيع المرء تحمّلـه، وعاد قائلا: «أرجوك يـا أبو علاء، اذهـب إلى أوري، افعلهـا مـن أجـلي». فأجبتـه وأنـا أدرك أنّ هـذا المضيـف الصّـادق الـودّ قـد وضـع كرامتـه الشّـخصيّة على المحـكّ: «لا تفعـل ذلـك معي... أنـت لا تسـتطيع أن تطلب

مـنّي أن أفعـل شـيئا كهـذا». إلّا أنّ النّرويجيّ التّبيل لـم ييأس، وبـدا لي وكأنّه غريق يتعلّـق بقشّـة، فطلـب مـنّي للمـرّة الثّالثـة أن أقابـل أوري سـافير راجيـا أن أقـوم بذلـك هـذه المـرّة لأجله شـخصيّا، وبعـد أن تنقل لارسـون بـين الطّرفين مـرارا لم أجد بـدّا من الاسـتجابة لاسـتغاثته.

كان أكـثر مـا أثّـرّ فيّ وحملـني على الاسـتجابة لهـذا الإلحـاح هـو مـنى غـول/ زوجـة تيري لارسـون الّتي بكت بحرقة شـديدة. فقد ذهب لارسـون بعـد موافقتي إلى حيـث يقيـم أوري سـافير، وتحدّثـا معا لبعـض الوقـت وأنـا لا أزال في مقعدي، ثـمّ عاد تـيري وقـد اكتسـت قسـمات وجهه بعلامـات الارتيـاح والحبـور قائلا لي: «إنّ لدى أوري بعـض النّقـاط المحـدّدة يـودّ أن يبحـث فيهـا معك على انفـراد»، ثمّ انسـحب لارسـون بعد أن جلسـت أنـا وأوري على انفراد، وتبادلنـا بعض الأحاديث المتعلّقـة بجذور المشـكلة لا بأعراضها السّـطحيّة.

ولكـسر حلقـة الاسـتعصاء الّـتي انزلقـت المفاوضـات إليهـا، اجتمعـت أنـا وأوري سـافير على حـدة بنـاء على الإلحـاح الّذي سـبق أن وضحته مـن جانب تيري لارسـون. وبعـد عدّة جمـل اسـتهلاليّة وجدت سـافير يطـرح عليّ فكـرة البحث في مسـألة الاعـتراف المتبـادل بـين إسرائيـل ومنظّمـة التّحريـر الفلسـطينيّة مدّعيـاً أنّـه يقـوم بمبـادرة فرديّة مـن جانبه شـخصيّاً، وأنّـه لم يتلـقّ موافقة مـن الحكومة الإسرائيليّـة على هـذا الطـرح قائـلاً : «إنّه سيسـتفسر منها حول مـا يمكن أن يلي مـن خطـوات؛ للخروج مـن حالـة الاسـتعصاء المفاجئة».

والحقيقـة أنّـني وجـدت في صفقـة الاعـتراف المتبـادل هـذه- على الرّغـم من موقـفي المتحفّـظ منهـا- ما يحـول دون توقّف عمـل القنـاة الّتي قضينا فيهـا الكثير مـن الوقـت والجهـد. كمـا وجـدت أيضـاً أن العـرض الإسرائيـليّ هـذا ينطوي على

أمـر مهـمّ بالنّسـبة للقيـادة الفلسـطينيّة شـبه المحـاصرة والممنوعـة من الاشـتراك في مؤتمـر مدريـد، أو في أيّ بحـث يخـصّ حاضر الشّـعب الفلسـطينيّ ومسـتقبله. وعليـه فقـد رأيـت في مقترح إسرائيـل الاعـتراف بمنظّمـة التّحرير اعترافـاً بحقّها في تمثيـل الشّـعب الفلسـطينيّ، ولـو على نحـو ضمـنيّ، ناهيك عـن القبـول بجدول الأعمـال السّـياسيّ لهـذه المنظّمـة، والّـتي يقـع في رأس أهدافهـا المعلنـة تفعيل حقّ الفلسـطينيّين في تقريـر مصيرهـم بأنفسـهم بمـا في ذلـك إقامـة دولـة فلسـطينيّة مستقلّة .

على أيّ حـال عاد أوري سـافير مـسرعاً للحـاق بالطّائـرة بينمـا، بـقي يوئيـل سـينغر معنـا ليواصـل الخـوض في تفاصيـل الاتّفـاق ومكوّنـات صفقـة الاعتراف المتبـادل ،حيـث كان هنـاك الكثـير من النّقـاط الّتي ينبـغي علينا دمجهـا في الاتّفاق العنيـد، مثـل جـدول أعمـال مفاوضـات الوضـع الدّائـم، وإدخـال قـرارات الأمـمّ المتّحـدة في وثيقـة إعـلان المبـادئ، فضـلاً عـن قضايـا الأمـن، وإطـار اتّفـاق غزّة أريحـا أوّلاً، حيـث عـرض الجانـب الإسرائيـليّ سـبع نقـاط تشـكّل في مجموعهـا مكوّنـات صفقـة الاعـتراف المتبـادل منهـا حـقّ إسرائيـل في الوجود بأمن وسـلام، والقبـول بقـراريّ مجلـس الأمـن الدّولي ٢٤٢و ٣٣٨، والتّخـلي عـن الأرهـاب، وحلّ الـنّزاع بالطّـرق السّـلمية، ووقـف الانتفاضة.

في واقـع الأمـر انتهـت هـذه الجولـة التّفاوضيّـة بأزمة عاصفـة، لكنّهـا أزمة لـم تغلـق الأبـواب، إن لم نقـل أنّهـا أدّت إلى فتـح المزيد منهـا، أو على الأقـلّ إدامة عمليّـة أوسـلو بالحـدّ الأدنى مـن الزّخـم التّفـاوضيّ، وهـو الأمـر الّذي يؤكّـد صحّة المنهـج القائـم على خلـق أزمـة متعمدة، لتحريـك العمليّـة التّفاوضيّة من أساسـها، وهـو أسـلوب معـروف على أوسـع نطـاق في أيّ مفاوضـات متعثّرة، وهنـا نحن نجرّب

هـذا المنهـج التّأزيـميّ المنفعـل في هـذه الجولـة، وننجح في فتـح ثغرة في جـدار كان مسـدوداً أمامنـا بإحـكام، حيـث تحدّدت نقـاط الخلاف، وتـمّ حصرهـا في مجموعة مـن النّقـاط الّـتي يمكـن الحديـث فيها خـلال الجـولات اللاّحقة.

وبالعـودة إلى مسـالة الاعـتراف المتبـادل، فـإنّ عليّ القـول: إنّـني كنـت هذه المـرة أكـثر تقبّـلاً للفكـرة الّـتي قاومتهـا في السّـابق، وإن لـم أتخـلَّ عـن حـذري الشّـديد إزاءهـا، خصوصـاً وأنّ أوري سـافير الّذي قـام بلعـب هـذه الورقـة الرّابحة مـن وجهـة نظرة، أوضـح لي أنّه سـيأخذ موافقة إسـحق رابين عليهـا. إلّا أنّني كنت على قناعـة بـأنّ هـذا الطّـرح المتكـرّر لا يمكـن أن يكـون مجـرّد مبـادرة فريدة وشـخصيّة باعتبـار أنّ هـذا الطّـرح ينطـوي على اعـتراف إسرائيـليّ بمـن تمثّلهـم المنظّمـة، ومـا تعـبّر عنه مـن أجندة سياسـيّة مقابل اعـتراف المنظّمة بحـق إسرائيل في الوجـود، وشـجب الإرهاب.

على أيّ حـال أثمر التّشـدد الّذي واجهنا به التّشـدّد الإسرائيـليّ نتائج إيجابيّة كثـيرة، فقـد ظهـر لنا في حينه إنّ تمسّـك إسرائيل بهـذه القناة لا يقلّ عن تمسّـكنا بهـا. كمـا أدّت هـذه الأزمـة المفتعلة في جـزء منها إلى حـدوث تداعيـات لم تكن متوقّعـة مـن قبـل، وهي تداعيـات إيجابيّـة كان في مقدمتها طرح مسـألة الاعتراف المتبـادل على مائـدة البحـث، وهو مـا عزّز موقعنـا التّفاوضيّ بمسـتقبل هـذه القناة الّـتي كانـت قـد بلغت في تلـك المرحلـة درجة عاليـة مـن الموثوقيّـة والاعتماديّة لم تكـن قـد بلغتهـا مـن قبـل، وإلى فتح باب أوسـع أمـام إمكانيّـة التّوصّـل إلى اتّفاق سـلام منشود.

على خلفيّـة كل مـا جـرى في جولـة المفاوضـات السّـابقة بدأنـا جولـة أخرى جديـدة راحـت فيها عقارب السّـاعة المتوقّفـة في الجولتين السّـابقتين تتحرّك ببطء

هـذه المـرّة، ولكـن وفـق إيقـاع زمـنيّ صـارم، ينـبىء بـأن العقربـين في طريقهما إلى التّعامـد بعـد وقـت قـد لا يكـون طويـلاً، وأنّ المسـافة الزّمنيّـة المتبقيّـة على هـذا التّعامـد الّذي لا مفّـر منه تسـتدعي العمل بـكل جدّيّة ومثابرة؛ لاسـتكمال مهمّـة شـاقة وعسـيرة ومنهكـة للأعصـاب في ضـوء مـا حـدث معنـا في الجولتـين السّـابقتين من انفعالات شـديدة، واتّهامـات متبادلة، وتهديد بالاسـتقالة، وخيبات أمل مشـتركة.

في غضـون ذلـك وقـع حـدث سـياسيّ لا يمكـن إغفـاله وتأثـيره على مجرى عمليّـة أوسـلو، ونعـني بـه سـفر وزيـر الخارجيّـة الأمريكـيّ وارن كريسـتوفر في جولـة له في الـشّرق الأوسـط. كان أوري سـافير قـد أخـبرني في الجولـة السّـابقة بـأنّ كريسـتوفر سـيقوم بوسـاطة بـين سـوريا وإسرائيـل ، أيّ بعيـداً عـن الموضوع الفلسـطينيّ، وإنّ مـن شـأن ذلـك أن يحـدث تغيـيراً في جـدول أعمـال الحكومـة الإسرائيليّـة، لا سـيّما وأنّ رابـين يعتقـد أنّ المفاوضات حول هضبة الجولان سـوف تكـون أجـدى وأسـهل مـن هـذه المفاوضـات المعقـدة والمتشـعبة، بـل وأقـلّ ألمـاً للإسرائيليّـين عندمـا يتعلّـق الأمر بالقضيّـة الفلسـطينيّة الّتي تتطلّـب بالضّرورة تنـازلات مؤلمة».

وفيمـا كان وزيـر الخارجيّـة الأمريكيّة يعـدّ الخُطى على الطّريق بين دمشـق وتـل أبيـب ناقلاً الرّسـائل لأوّل مرّة بـين القيادتين السّـوريّة والإسرائيليّـة، ومحقّقاً قـدراً مـن التّفاهمـات في إطـار ما سـمي آنـذاك بصفقة الانسـحاب الكامـل مقابل السّـلام الكامـل، كانـت القيـادة الفلسـطينيّة تتحسّـب الأمـر، وتخـشى أن يـؤدّي ذلـك إلى تراجـع الاهتمـام الإسرائيـليّ بالمسـار الفلسـطينيّ إلى مرحلـة متدنيّـة، مـن منطـق ادراكنـا أنّ إسـحق رابـين لا يسـتطيع أن يقـدم التّنازلات هنـا وهناك

في وقت واحد، وربما لا يقدر عليها جراء ما قد يثيره ذلك من ردود أفعال داخليّة إسرائيليّة واسعة وعنيفة.

وزاد من خشية القيادة الفلسطينيّة أنّ العلاقات مع دمشق كانت مقطوعة منذ أعوام سابقة، الأمر الّذي لا يتيح لنا الوقوف عن كثب على سير الحركة المكوكيّة الجاريّة بين دمشق وتلّ أبيب، والتّنبؤ بما يمكن أن تفضي إليّه هذه الوساطة الّتي يقف وراءها الرّئيس الأمريكيّ الجديد بيل كلنتون الرّاغب في تحقيق إنجاز سياسيّ كبير يستهل به عهده، ويعزّز صورته كصانع سلام في الشّرق الأوسط، وهو ما فاقم من خشيتنا حيال إمكانيّة تهميش القضيّة الفلسطينيّة، وتحرير حكومة رابين من ضغوط معسكر السّلام الإسرائيليّ إذا ما تحقّق سلام كامل مع دولة عربيّة في وزن سوريا.

كانت كلّ هذه المعطيات والهواجس والتّحسّبات حاضرة في الذّهن، غير أنّني واصلت العمل من أوسلو على محاولة استكمال المهمّة الّتي أتيت من أجل تحقيقها قبل ثمانيّة أشهر من دون أن أبدي أيّ انزعاج أو تلهّف على استعجال الخطوات التّاليّة، مستذكراً إشارة أوري سافير إلى ضرورة التّعجل في التّوصل إلى اتّفاق قبل أن يصل وارن كريستوفر إلى الشّرق الأوسط، وهي إشارة أعتبرها في ذلك الوقت عمليّة ضغط وابتزاز، وتعاملت معها وكأنّني لم أسمع بوقع نبرتها المتشفيّة ... موطّداً العزم على مواصلة مهمتي التّفاوضيّة بكلّ ما تتطلّبه منّي من صبر وحرص ومسؤوليّة وواقعيّة واعتدال وموضوعيّة.

في حينه، انتقلت إلى باريس لمواصلة النّقاش مع يائير هرتسفيلد عضو الوفد الإسرائيليّ المفاوض كي نستكمل النّقاش حول صفقة الاعتراف المتبادل، حيث قام الوسيط النّرويجيّ بكلّ التّرتيبات اللاّزمة لعقد هذه المفوضات في

مبنى في باريس عتيق الطّراز. وفي تلك الاجواء البعيدة عن صخب الفنادق والقاعات الرّسميّة جرت مفاوضات استمرّت نحو سبع ساعات عمل متواصلة، أنجزنا فيها كثيراً من بنود الاتّفاق الّذي أصبح واضحاً أكثر من أيّ وقت مضى... وكان ذلك يوم ١٩٩٣/٨/٦، حيث قررّنا عقد جولة أخرى بعد أسبوع من تاريخه في النّرويج؛ أيّ في يوم الرّابع عشر من الشّهر نفسه.

عليّ أن أتحدّث هنا كذلك عن المشهد السّياسيّ الأوسع الجاري بلورته في المنطقة، والّتي كان يواصل فيها وزير الخارجيّة الأمريكيّ جولاته المكوكيّة بين دمشق وتل أبيب، ويحرز بعض التّقدّم بينهما. فقد ساد لدنيا اعتقاد أنّ إسحق رابين المصاب بداء الارتياب والشّكّ إزاء منظّمة التّحرير أخذ يميل إلى الأخذ بالخيار السّوريّ أولاً، خصوصاً وأنّه أكثر ثقة بالالتزامات الّتي يقطعها له الرّئيس حافظ الأسد. فيما كان الوفد الفلسطينيّ المفاوض في واشنطن استقالة جماعيّة احتجاجاً على استجابة القيادة الفلسطينيّة لمبادرة أمريكيّة تضمّنت ما وصف بتنازلات فلسطينيّة كبيرة.

في مثل هذه الأجواء المفعمة بكلّ التّطورات المحتملة عدنا مرّة أخرى إلى العاصمة الّتي احتضنت المفاوضات بكلّ دفء وحرص وجدّيّة، لنعقد جولة أخرى في أوسلو مربط خيلنا، حيث وجدنا أنفسنا عند اللقاء بالوفد الإسرائيليّ أنّه بات أكثر لطفاً وأشدّ كياسة وأعمق رغبة في التّوصّل إلى الاتّفاق، لتحل بذلك أجواء تفاوضيّة مواتيّة على العكس ممّا كانت عليه في الجولة السّابقة، الّتي علت فيها الأصوات والاتّهامات، وانتهت بأزمة حادّة – وإن كانت مفتعلة- أدّت في واقع الأمر إلى تحقيق انفراج بين الطّرفين المتفاوضين، وهو انفراج كنّا بأمسّ الحاجة إليه للحفاظ على زخم العمليّة التّفاوضيّة.

في هـذه الجولـة، وهي الحاديّـة عـشرة، اتّضـح فيما بعـد أنّها كانـت الجولة ما قبـل الأخـيرة، حيـث اتّفـق الوفـدان مـن حيـث المبـدأ على التّوصّـل أوّلاً إلى اتّفاق بشـأن إعـلان المبـادىء المشـترك، وبعـد توقيعه نبـدأ التّفـاوض من أجـل التّوصّل إلى صفقـة الاعـتراف المتبـادل، هـذه الصفقة الّتي من شـأنها أن تفتـح الطّريق أمام اتّفـاق آخـر، تنتقل بموجبـه القيادة الفلسـطينيّة من تونـس إلى قطاع غـزّة وأريحا، على أن يتـمّ في غضـون ذلـك معالجـة الجوانـب الخلافيّـة المتعلّقـة بالقـدس، وذلك مـن خـلال قيام وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ بتوجيه رسـالة يتعهّد فيهـا بالحفاظ على المؤسّسـات المقدسـيّة بمـا في ذلـك المقدسـات الدّينيّة وبيـت الشّرق.

ومـع أنّ مواقـف الطّرفـين بـدت متقاربـة أكـثر مـن أيّ وقت مـضى، إلّا أنّ المواقـف ظلّـت متباعـدة ومتعارضة حيـال العديد من المسـائل الفرعيّـة، وعدّدها ١٤ مسـألة. فـكان علينا أن نبدي مرونة في سـبع منها مقابل ابـداء الوفد الإسرائيليّ مقابـل مرونـة مماثلـة في النّقاط السّـبع الأخرى. كمـا كان علينا أيضـاً أن نتّفق على مكّونـات صفقـة الاعـتراف المتبادل، الّـتي سـبق أن عرضها الإسرائيليـون بهدف تليّـين الموقـف الفلسـطينيّ حيـال الموضـوعات الخلافيّـة القائمـة في صلـب وثيقة إعـلان المبـادىء المقترحـة، هـذه الوثيقة الّـتي كنّا نـرى أن لها الأولويّـة على صفقة الاعـتراف المتبـادل، الّـتي لم أكن متحمّسـاً لها على نحو ما سـبق أن ذكرتـه من قبل.

جلسـنا صبيحـة ذلـك اليـوم وكان أمامنـا جبـل مـن العقبـات والمشـاكل المتبقيّـة؛ فقد كان أمامنا مشـكلة السّـيطرة على المعابـر، وأفق تنقلات المسـتوطنين، والجـدول الزّمنيّ للانسـحاب الإسرائيليّ، ونقل السّـلطات من الحكومة العسـكريّة الإسرائيليّـة، وتعريـف مدينـة أريحـا(مدينـة أو منطقـة). وفي حينـه انتزعنـا مـن الجانـب الإسرائيـليّ الموافقـة على أنّ قضايـا المفاوضـات النّهائيّـة سـترد في صلـب

اتّفاق إعلان المبادئ، بما في ذلك القدس واللاّجئين، كما وافق ذلك الوفد على أنّ المحادثات النّهائيّة ستؤدي إلى تطبيق قراريّ مجلس الأمن الدّوليّ رقم ٢٤٢ و ٣٣٨، وهو القرار الّذي لا يجيز احتلال أراضي الآخرين بالقوّة. كما اتّفقنا أيضاً على تجنيد العواصم والمؤسّسات الدّوليّة لجلب المساعدات الاقتصاديّة.

انتهت الجولة فيما بقيت خمس قضايا عالقة دون اتّفاق، ولما طلبت من أوري سافير ارجاء سفره ليوم آخر، أصرّ على السّفر، ليتّضح لي أنّه كان مرتبطاً بجدول زمنيّ صارم من المقرّر فيه أن يسافر شمعون بيريس إلى اسكندنافيا في ٨/١٦، وبالتّالي فقد كان سافير مضطراً للحاق به. وفي اليوم التّالي اتّصل بيريس بوزير الخارجيّة النّرويجيّ الّذي كان في زيارة إلى أيسلندا، وقال له:»هل تساءل الوزير النّرويجيّ عن سبب ذلك»، قال له بيريس: « إنّنا نمرّ في لحظة فاصلة بخصوص قناة أوسلو الّتي لم تكن في واقع الأمر قد أنجزت كلّ ما كان مطلوباً منها».

استقلّ جوهان يورغن هولست طائرة خاصّة إلى استكهولم ووصل إليها قبل أن يصل شمعون بيريس، حيث جرى اللقاء بينهما في ساعة متأخرة من تلك الليلة، وأعلن بيريس أمام النّرويجيين أنّه يريد أن ينهي المفاوضات في هذه الليلة، فطلب من هولست أنّ يتّصل بالرّئيس ياسر عرفات عبر الهاتف، ويعلمه أنّ وزير الخارجيّة الإسرائيليّ يجلس إلى جانبه، وأنّه سيبقى إلى جانبه طوال الوقت، بينما سيكون إسحق رابين على الطّرف الآخر من تل أبيب، وأوري سافير على الهاتف من القدس، متهيّئاً للالتحاق بوزير خارجيته في أيّ لحظة يطلبه فيها؛ لحلّ جميع ما تبقى من قضايا خلافيّة من وثيقة اتّفاق إعلان المبادئ المشترك.

كنت في تونس تلك الليلة، ولم يكن قد جرى معي أيّ تنسيق بخصوص هذه المكالمة، الّتي استهلّها هولست بالبحث عني هاتفياً في مكتبي وفي منزلي، ولم أكن في أيّ منهما، وحاولت زوجتي البحث عني فلم توفق، ثمّ انتقل هولست للحديث مع الرّئيس عرفات، ونقل إليه أنّه يريد أن ينهي مع الضّيف الموجود لديه (يبريس) كلّ القضايا المتبقّية، واعداد الوثيقة للتّوقيع. فقال له أبو عمّار: «إنّه سيبحث عن أبي علاء كي يكون إلى جانبه، فهو المتابع لكلّ تفاصيل هذه المفاوضات». وجدني الأخّ أبو عمّار في مكتب الأخ أبو مازن، وكان معنا الأخ محسن إبراهيم القياديّ اللبنانيّ البارز، التقينا جميعاً في مكتب الأخ القائد العامّ بحضور كلّ من الأخوة أبي مازن، وأبي علاء وياسر عبد ربّه، وحسن عصفور إضافة إلى الأخ محسن إبراهيم.

جرت تلك المكالمة الهاتفيّة المطوّلة بين تونس واستكهولم من السّاعة العاشرة مساء وحتّى الرّابعة صباحاً، حيث تحملت السّويد تكاليف أطول محادثة هاتفيّة عن ضيوف لديها لا تعرف هي طبيعة المحادثة ولا ماذا وراءها. وفي واقع الأمر كنت أنا المتحدّث الآخر من الخطّ، فيما كان مطبخ القرار الفلسطينيّ إلى جانبي برئاسة الأخ أبي عمّار، والأخوة الآخرين المذكورين آنفاً، حيث تمّت مناقشة جميع القضايا العالقة، والّتي لم تكن قد حسمناها في الجلسات الأخيرة المتعاقبة، تلك الّتي جرت وجهاً لوجه في أوسلو.

على الجانب الآخر كانت هناك محطّتان مهمتان: الأولى كانت في استكهولم تضمّ شمعون بيريس ويوئيل سينغر وآفي جيل بحضور وزير الخارجيّة النّرويجي يورغان هولست وتيري لارسون وزوجته منى غول، والثّانية كانت في تل أبيب، حيث كان يجلس فيها إسحق رابين ليتابع هاتفياً مجرى المفاوضات لحظة

بلحظة. وما أن بلغت السّاعة الرّابعة صباحاً حتى انتهت تلك المكالمة، فقبّل كلّ منا الآخر في تونس، وقلنا لبعضنا بعضاً: نعم، لقد أصبح لدينا الآن اتّفاق نهائيّ غير قابل للتّراجع. وناديا على مصوّر الأخّ (أبو عمّار) الخاصّ لأخذ صورة تذكاريّة لنا بهذه المناسبة التّاريخيّة.

نحن الآن في آخر مدّة الحمل الّتي تشارف على نهاية الشّهر التّاسع، أي أنّه لم يتبق سوى أسابيع قليلة على موعد الوضع لوليد صرنا نعرف شكله الخارجيّ، غير أنّنا لسنا على ثقة كاملة من صحته البدنيّة. ونحن الآن في أواسط شهر آب/أغسطس من عام ١٩٩٣، أي في الزّمن الّذي أنهى فيه وزير الخارجيّة الأمريكيّ جولته الشّرق أوسطيّة، والّتي تنقّل فيها بين دمشق وتلّ أبيب على نحو مكوكيّ، دون أن يرق إلى علمنا أي من نتائج هذه الجولة، رغم رواج بعض الأنباء الصحافيّة الّتي تحدّثت عن إخفاق وارن كريستوفر في إنهاء آخر فصل من فصول الصّراع بين إسرئيل والدّول العربيّة.

في واقع الأمر لم تكن القيادة الإسرائيليّة حتّى ذلك الوقت قد حسمت أفضلياتها بين المسارين السّوريّ والفلسطينيّ، بل أنّه يمكن القول أن إسحق رابين كان يميل إلى العمل على المسار السّوريّ نظراً لثقته الشّديدة بتعهّدات حافظ الأسد، وأنّ ذلك سيفضي بالضّرورة إلى حلّ مماثل على المسار اللبنانيّ، وبالمقابل فإنّ شمعون بيريس، بما يمتلك من رؤية أوسع، وتجربة سياسيّة طويلة، كان يميل إلى الأخذ بالمسار الفلسطينيّ ويعطيه أولويّة أولى على غيره من المسارات، اعتقاداً منه بأهمّيّة حلّ الجذر المزمن للصّراع في المنطقة، وذلك على قاعدة تقاسم الأرض ومفهوم الحلّ الوسط، وتحقيق شرق أوسط جديد، كان يأسر قلب بيريس الحالم بدمج إسرائيل في محيطها الجغرافيّ.

على هـذه الخلفيّـة يمكـن فهـم المبـادرة الّـتي قـام بهـا شـمعون بيريـس من اسـتكهولم في تلـك اللحظـة السّياسـيّة، ناهيـك عـن أنّ قناة أوسـلو كانـت تعرف باسـم قنـاة « شـبيبة بيريس» الأمـر الّذي دفـع بالرّجل الثّـاني في قيادة حـزب العمل الحاكـم، إلى المـاضي حـتى آخر الشّـوط لتحقيـق رهاناته السّياسـيّة الكـبرى، هذه الرّهانـات الّـتي باتـت عرضـة للإخفـاق لدى تعطّـل المفاوضـات عنـد نقطة كانت تتطلّـب اتّخـاذ قـرارات سياسـيّة قـد لا يكـون في وسـع المتفاوضـين على الطّاولـة حلّهـا بصـورة مرضية لـكلّ الجانبين.

إذ بحسـب الرّوايـة الإسرائيليّـة الّـتي توفـرت لنـا فيمـا بعـد، فقد أقـام عدد محـدود مـن أصدقـاء عجـوز السّياسـة الإسرائيليّة حفـلاً بعيـد ميلاده السّـبعين، ألـقى فيـه بيريـس كلمـة مقتضبـة، أصبحـت إسرائيـل قويّـة بما فيـه الكفايـة، لم يبـقَ أمـامي سـوى جلـب إسـحق رابـين، حيـث قـرّر الرّجـلان، في اجتمـاع ثنـائيّ مغلـق، تفويـض بيريـس بالعمل خـلال الزّيارة الّتي سـيقوم بهـا في اليـوم التّالي إلى اسـكندنافيا، بمـا في ذلـك حـلّ القضايا العالقـة في اتّفـاق إعلان المبـادئ، وتوقيع هـذا الإعـلان في نهايـة الجولـة، والّتي سـتنتهي في النّرويج يوم التّاسـع عشر من آب /أغسـطس؛ أيّ خـلال يومـين أو ثلاثـة أيـام مقبلة.

وكمـا أشرت سـابقاً، اتّصـل شـمعون بيريـس بنظـيره النّرويـجي ورتّـب معـه أمـر تلـك المكالمـة الطّويلـة والمفاجئة للأخ (أبـو عمّـار) وربما لفريـق المفاوضات الإسرائيـليّ، ولي أيضـاً، الأمر الّذي جعلنـا نغلق الباب على أنفسـنا في تونس، ونمنع تمريـر أيّ مكالمـة لـلأخ القائـد العـامّ، حيـث كنـت أتحـدّث بصـوت عالٍ داخـل غرفـة مغلقـة لـم ينفتـح بابهـا إلّا لإدخـال فناجين القهـوة وعلـب السّـجائر، الّتي أدّت أدخنتهـا الكثيفـة إلى مزيـد مـن التّوتّـر حـتى الاختنـاق، لا سـيّما وأنّ جميـع

الحاضرين في مكتب الأخ الرّئيس ياسر عرفات كانوا يدركون أهمّيّة تلك المفاوضات الهاتفيّة، والّتي انخرط فيها كلّ من شمعون بيريس وياسر عرفات مباشرة.

وبينما كنت أتلقّى الاقترحات عبر وزير الخارجيّة النّرويجيّ، ثمّ أتّشاور مع الخلية القياديّة كي أقوم بإعادتها إلى الأسرائيليين بالواسطة ، رحت أفقد شيئاً من صوتي، كوني كنت أتحدّث بصوت مرتفع حتّى يسمع جميع الحاضرين معي فحوى المساومات الجاريّة، حيث مرّت لحظات استعصاء قاتلة، ومناورات ومراوغات إسرائيليّة بتنا نعرفها ونحفظها عن ظهر قلب، مثل تهديد بيريس بإغلاق ملفّ أوسلو كلّه، واستبداله بملفّ المفاوضات بشأن هضبة الجولان المحتلّة مع الرّئيس السّوريّ حافظ الأسد.

ومع ذلك لم نستجب لتلك الضّغوط الإسرائيليّة، فاستمرّت المفاوضات عبر الهاتف بصعوبة، وأحياناً بمدّة طويلة حول المسائل المعلّقة، وكان عددها بعد منتصف الليل ثلاث نقاط، وجرى الاتّفاق على صيغة مرضية لكلا الطّرفين حول كلّ نقطة بعينها. وكان الجانب الإسرائيليّ خلال هذه المفاوضات الهاتفيّة يبدي- كعادته الدّائمة- حرصاً شديداً على البعد الأمنيّ لكلّ مسألة صغيرة كانت أم كبيرة، ولذلك فقد تمسكوا بالأمن الخارجيّ وأمن المستوطنات والمستوطنين، والمعابر والحدود، وبالمقابل فقد تمسكنا نحن بالصّلاحيّات والجدول الزّمنيّ والإنتخابات، وتحديد جدول مفاوضات الوضع الدّائم، ونقل الصّلاحيّات من الحكم العسكريّ إلى المجلس الفلسطينيّ المنتخب.

كان الهزيع الأخير من الليل قد إنقضى أو كاد، وأخذت خيوط الفجر تلوح بتباشير فجر جديد في حياة شعبنا. فقد وقفت القيادة الفلسطينيّة العليا

أمـام مسـؤوليات تاريخيّـة جسـيمة، متمثّلـة في عدم ترك هـذه الفرصـة تفلت من أيديهـا، لا سـيّما وأنّـه قد بـدا لنا عبر تلـك المكالمـة الطّويلة أن شـمعون بيريس قد أخـذ على عاتقـة متابعـة هـذه الفرصـة مـن الطّـرف المقابل، وأنّـه كان يبـدي قدراً كبـيراً مـن الاهتمـام والجديّـة والرّغبـة في تجـاوز الصّعـاب، ومـن ثمّـة التّوصّل إلى حـلّ، كان ثعلـب السّياسـة الإسرائيليّـة قـد راهـن عليه قبل نحو تسـعة أشـهر من بـدء هـذه العمليّة.

وهكـذا انتهـت المفاوضـات الماراثونيّـة عـبر الهاتـف، وبـات لدينـا اتّفـاق إعـلان مبـادئ مشـترك، فنظرنـا في وجـوه بعضنـا بعضـاً داخـل مكتـب القائـد العـامّ، وتبادلنـا بعض التّعليقـات الموزّعة بين الـسّرور والارتيـاح والقلق المشروع، خصوصـاً وأنّ المهمّـة العاجلـة تقتـضي اطّـلاع بقية المسـؤولين الفلسـطينيين على قصـة أوسـلو السّرّيّـة، وما أسـفرت عنـه من اتّفـاق من المقـرّر أن نوقعـه بالأحرف الأوّلى في اليـوم التّـالي في العاصمـة النّرويجيّـة، ورغـم هـذه الأجواء المشـحونة فقد بـادرت إلى تهنئـة الأخ أبي عمّـار وبقيـة الأخـوة الموجوديـن في المـكان، ثـمّ تبادلنـا القبـل على الطّريقـة الفلسـطينيّة التّقليديّـة.

وكمـا قلـت آنفـاً، فقد كان علينـا اطّلاع شركائنا في مسـيرة الثّـورة بتفاصيل مـا جـرى، حيث تـولي الأخ أبـو عمّـار والأخ أبـو مـازن اطّـلاع اللّجنـة المركزيّة لحركـة فتـح على مـا جـرى. كمـا كان عليّ أن أتدبـر أمـر سـفري في اليوم التّـالي إلى أوسـلو لتوقيع الاتّفـاق بالأحرف الأولى مع أوري سـافير، وبحضور شـمعون بيريس، الّذي كان مـن المقـرر له أن يصـل في ذات اليـوم من اسـتكهولم. وقبـل أن أمضي في ترتيبـات هذه السّـفرة العاجلة بـادر الأخ أبو مـازن إلى الاتّصال مـع خبير القانون الدّوليّ- وهـو مـصريّ الجنسـيّة- السّـيّد طاهـر شـاش الّذي كان يعمـل مستشـاراً

قانونيّاً لوفدنا المفاوض في واشنطن، كي يلحق بنا إلى أوسلو ويراجع الاتّفاق من الجوانب الفنيّة والحقوقيّة.

وقبل أن أغلق الهاتف مع وزير الخارجيّة النّرويجيّ ليلة المفاوضات الطّويلة كان جوهان يورغن هولست قد أبلغني أنّ عليّ الحضور إلى أوسلو يوم ١٩/ ٨، لا من أجل توقيع الاتّفاق بالأحرف الأولى فقط، وإنّما أيضا من أجل استكمال مناقشة صفقة الاعتراف المتبادل كي تتمكّن منظّمة التّحرير من توقيع الاتّفاق بصفتها ممثّلة للشّعب الفلسطينيّ، وأنّ شمعون بيرس سينتظر في العاصمة النّرويجيّة ولن يعود إلى تل أبيب إلا وهو يحمل معه اتّفاقا نهائيّا لعرضه على الحكومة الإسرائيليّة الّتي ستجتمع بصورة استثنائيّة للمصادقة على الاتّفاق الّذي أصبح واقعا على الورق بعد أن تصبح جاهزة.

وصلت إلى أوسلو في التّاريخ المحدّد سلفا حيث أعدّ النّرويجيّون كلّ شيء حسب الأصول لتوقيع اتّفاق سرّيّ سيأخذ بعد الآن صفة العلنيّة. وبينما كان شمعون بيريس ينزل في مقرّ رسميّ تابع للحكومة النّرويجيّة كان الوفدان المفاوضان يبدآن الجولة الثّانية عشرة والأخيرة في فندق بلازا الواقع في قلب أوسلو. والحقّ أنّ هذه الجولة لم تكن تفاوضيّة بعد أن حسمت كلّ النّقاط عبر المحادثة الهاتفيّة المطوّلة؛ بل كانت من أجل طرح بعض الاستفسارات وتقديم التّوضيحات المناسبة، إلّا أنّ أكثر ما ركز عليه الوفد الإسرائيليّ كان مطالبته لنا بأن تصدر القيادة الفلسطينيّة بيانا تدعو فيه إلى وقف الانتفاضة، فكان جوابنا: «إنّ هذه الانتفاضة لم تنطلق بقرار كي يتمّ وقفها بقرار آخر».

في ذلك الوقت راجع خبير القانون الدّوليّ السّيّد طاهر شاش نصّ وثيقة إعلان المبادئ، وكان رأيه أن لا عيوب قانونيّة في النّص، بينما كنّا نتفاوض

باسترخاء ودون مناورات أو مراوغات، كان النّرويجيّون منهمكون في الإعداد لترتيبات حفل توقيع الاتّفاق، حيث استقرّ قرارهم على أن يجري الحفل في بيت الضّيافة الرّسميّ الّذي ينزل شمعون بيرس في أحد أجنحته، وأن يتمّ حفل التّوقيع عليها بعد الانتهاء من العشاء الرّسميّ الّذي أقامه جوهان هولست لنظيره الإسرائيليّ، وبعد أن يكون المدعوون للحفل قد غادروا المكان إلّا من الضّيوف الإسرائيليّين والفلسطينيّين الّذين سيقومون بعملهم بعيدا عن الأضواء.

كانت السّاعة بلغت الثّانية بعد منتصف اللّيل حين تمّ إخلاء القاعة المخصّصة للتّوقيع من رجال الأمن، وكان كلّ منّا يرتدي بدلة رسميّة غامقة اللّون. وفي تلك الأثناء غمرتني مشاعر مختلطة، حيث كنت سعيدا بهذا النّجاح سعادة يغالبها القلق والحسّ بالمسؤوليّة إزاء هذا التّطور المفتوح على كلّ الاحتمالات، كما انتابني شعور من أنجز إنجازا تاريخيّا لا يستطيع الاحتفال به أمام شعبه ورفاقه.

في تلك اللّحظات تقدّم تيري لارسون وهو أكثر الحضور حفاوة بإنجاز له ونجاح بلاده، واتّجه نحو بشيء من الارتباك وتأبّطا ذراعي وقال: «حسنا أبا علاء.. هيّا». وحين وصلت إلى صف الضّيوف تقابلت عيناي لأوّل مرّة بعينيّ شمعون بيريس، فنظر كلّ منّا إلى الآخر نظرة متفحّصة وطويلة، ثمّ تصافحنا مصافحة قصيرة دون التّحدّث بكلمة واحدة... إلّا أنّني سمعت بيريس- وأنا أسحب يدي من يده - يتمتم: «إنّه أمر يسعدني».

انتقلنا بعد ذلك إلى المقاعد الإمبراطوريّة الزّاهية المعدّة لتبادل الكلمات الاحتفاليّة، حيث استهلّها وزير الخارجيّة النّرويجيّ بكلمة مرتجلة، ثّم تقدّمت أنا إلى المنصّة وكانت آثار الدّموع لا تزال بادية على وجهي، وألقيت كلمة

احتفاليّة مماثلة، وتبعني على المنصّة ذاتها أوري سافير وألقى كلمة معدّة سلفا، بعد ذلك جاء دور تيري لارسون الّذي بدا مثل أمّ العريس، فألقى كلمة قصيرة استذكر فيها بدايات هذه العمليّة. وفي أعقاب ذلك كلّه فتحت الأبواب ودخل رجال الأمن النّرويجيّون الّذين تولّوا بأنفسهم تقديم المشروبات، فانتهت عند هذا الحدّ من المفاوضات الّتي استغرقت نحو تسعة أشهر حافلة بالمساومات والمناورات والأخذ والردّ.

عدنا بعد ذلك إلى الفندق وتخلّى كلّ واحد عن حذره وبدأ كلّ منّا يستعيد اللّحظات المشرقة الّتي أمضيناها معا، بما في ذلك المشاهد المضحكة والمشاهد الغاضبة، وأخذ كلّ طرف يفسر الطّريقة الّتي كان يتبعها في المفاوضات بما في ذلك تكتيكات الطّرف الآخر وألاعيبه، واستعدنا على نحو خاصّ بعض مشاهد الأزمة الّتي حدثت يوم أعلنت عن تقديم استقالتي، وانسحابي من هذه العملية. وفي تلك الأثناء المفعمة بكلّ المشاعر المتناقضة تقدّم يوئيل سينغر منّي وقال في اعتراف لم أكن أتوقعه: «أبو علاء.. إنّك سيّد كلّ المفاوضين». فأجبته بروح تملؤها الدّعابة: «حسنا.. إنّنا جميعا محتالون».

كان مشهد الاتّفاق في ذلك الحين أقرب ما يكون إلى حلقة دائريّة لم تكتمل وتغلق بالكامل، فقد كان علينا أن ننجز في وقت قصير فعليّا وثيقة الاعتراف المتبادل، ممّا يعني خوض مفاوضات أخرى تتعلّق هذه المرّة بالعقائد والرّموز، وتستدعي إحداث اختراق في المفاهيم والثّوابت التّاريخيّة والقيم بين طرفين مثقلين بمشاعر الكراهية والعداء، ومتمترسين وراء قلاع من مشاعر الظّلم والاضطهاد والارتياب والصّور النّمطيّة والمزاعم والحقائق والأوهام المتبادلة. وفي تلك الأثناء اتّصلت بالأخ (أبي عمّار) من أوسلو وأخبرته أنّ

الاتّفـاق قـد وقع بالاحـرف الأولى على أن يجري توقيعـه بصورة رسـميّة ونهائيّة بعد عشرة أيـام مـن تاريخه.

وضمـن ما تـمّ الاتّفاق عليـه أن تتمّ مصادقة المؤسّسـات الشّرعيّـة عليه لدى الطّرفـين في غضـون فـترة الأيام العـشرة، أمّا فيما يخـصّ صفقة الاعـتراف المتبادل الّذي ينبـغي إنجـازه قبـل التّوقيـع الرّسـميّ على الاتّفـاق، فقـد اتفقـت مـع الأخّ أبي عمّـار أن يكـون الاعـتراف بالمنظّمة على أنّها الممثّل الشّرعيّ للشّـعب الفلسـطينيّ في مقابـل إجـراء تعديـلات طفيفـة في بنـود الميثـاق الوطـنيّ الفلسـطينيّ، وبشرط أن تقـوم منظّمـة التّحريـر بصفتهـا هـذه وبمـن تخـوّله نيابة عنهـا بتوقيـع الاتّفاق الخـاصّ بإعلان المبادئ المشـترك على نحو رسـميّ ونهـائيّ تحت الأضـواء في العاصمة الأمريكيّـة الـتّي بـدأت كامل اسـتعدادها لاسـتضافة هذا الحـدث التّاريخيّ.

تـمّ ترتيـب لقاء عاجل بيني وبين شـمعون بيريـس، وكان هـذا أوّل لقاء لي مع وزيـر إسرائيـليّ رفيع المسـتوى، حيـث دار الحوار أساسـا بشـأن مسـتقبل الاتّفاق، ومسـتقبل العلاقـات، وأهمّيّـة الحـلّ مـع الفلسـطينيين بالنّسـبة لمجمـل أوضـاع المنطقـة. وتحـدّث بيريـس عن المشـكلات المتوقّعـة خصوصـا في الأطـر الحكوميّة والمؤسّسـات التّشريعيّـة، إلّا أنّـه أكـدّ لي رغبته الشّـديدة في مواصلـة العمل، وقال: «إنّ علينـا أن نطـير بهـذا الاتّفـاق والمفاوضـات اللاّحقـة بأقصى سرعـة وعلى أعلى ارتفـاع ممكـن»، وأضـاف:»إنّ أمامنا شـهرا على الأكـثر، وإنّ علينا اسـتغلال هذا الشّـهر إلى أقـصى الحدود».

وفيمـا بـدا أنّـه أمـر مفـاجئ، أكـدّ شـمعون بيريـس أنّ جدّيّـة هـذا الاتّفاق وشرعيتـه تكمنـان في توقيعـه من جانب منظّمـة التّحرير وليس مـن جانب الوفد المفـاوض، حـتّى يتمّ تعزيـز الاتّفاق وتقويته، وأشـار إلى المكانة المهمّة الـتّي تتمتّع بها

منظّمة التّحرير على المستويات المحليّة والعربيّة والدّوليّة، ومن جانبي شدّدت على أنّ نجاح الاتّفاق مسؤوليّة مشتركة وأنّ الدّعم الأمريكيّ لا غنى عنه، وممّا سيعزّز أهميّة الرّعايّة الأمريكيّ للاتّفاق أنّها ستؤدّي إلى إعادة علاقات واشنطن مع منظّمة التّحرير وإلى فكّ الحصار الماليّ والسّياسيّ المضروب عليها، لاسيّما ونحن ندرك أنّ هذا الحصار كان قرارا أمريكيّا بالدّرجة الأولى.

ومن أجل تفعيل هذا الاتّفاق وتحويله إلى حقائق عمليّة يراها النّاس المخاطبون به، طالبت بيريس بأن تبادر الحكومة الإسرائيليّة إلى إعادة المبعدين من مرج الزّهور في لبنان، وإطلاق سراح المعتقلين، ووقف الممارسات القمعيّة، ورفع الحصار عن القدس، والكفّ عن كلّ ما تقوم به إسرائيل من إجراءات قمعيّة في المدينة المقدسة ما استطاعت الى ذلك سبيلا، والتّحول إلى بناء جسور الثّقة بين الجانبين، فردّ بيريس: «إنّ هذه مطالب محقّقة وأنّ إسرائيل ستقوم بأكثر من ذلك»، وقال لي: «انتظروا قليلا، أعطونا مدّة شهر، فكلّ شيء ممكن». بل حتّى أنّ بيريس قال لي وهو يبدي أقصى ما لديه من حسن نيّة؛ ما إذا كان لديّ قوائم بالمبعدين والمعتقلين.

انتهى اللّقاء مع شمعون بيريس فجر يوم ٢٠/ ٨/ ١٩٩٣، وعند عودتي إلى الفندق اتّصلت بالرّئيس ياسر عرفات فورا ووضعته في صورة ما حدث، وطلبت إليه ضرورة الإسراع في إنجاز صفقة الاعتراف المتبادل، لاسيّما وأنّنا في أوسلو نواصل مع الوفد الإسرائيليّ مناقشة المسودّة الموجودة لدينا، كما كان على القيادة الفلسطينيّة أن تاخذ من جانبها بعض التّرتيبات المتعلّقة بالاتّفاق، ومن ذلك إطلاع قيادة حركة فتح، ثمّ غيرهم من القيادات الفلسطينيّة الأخرى على قصّة أوسلو من ألفها إلى يائها، ووضع جميع من يعنيهم الأمر في صورة اتّفاق إعلان المبادئ الّذي تمّ التّوصل إليه رسميّا.

تـولّى كلّ من الأخويـن (أبو عمّار)، و(أبـو مازن) إطلاع إخوانهمـا في اللّجنة المركزيّـة لفتـح على مضمـون هذا الاتّفاق المفـاجئ، وحمل الجميـع على تقبّل مثل هذه الانعطافـة الكـبرى، كمـا تقرّر أن يتـمّ إطلاع عدد محـدّد من القادة الفلسـطينيّين والقـادة العـرب، فذهـب أبو مـازن إلى موسـكو، وقـرّر الأخّ أبو عمّـار القيام بجولة عربيّـة سريعـة لـكلّ مـن القاهـرة ودمشـق وعمّـان، كما جرى اسـتدعاء عـدد من رجـال الأعمـال الفلسـطينيّين إلى تونـس، جـرى أيضا اسـتدعاء عدد مـن قيادات عـرب ال ٤٨ لوضعهم في صـورة الاتّفاق.

كنـت في تلـك الأثنـاء أواصـل من أوسـلو واحـدة من أطـول الزّيـارات التّي قمـت بهـا للعاصمـة النّرويجيّـة، إذ كنـت أبحـث مـع الوفـد الإسرائيـليّ في صيغـة الاعـتراف المتبـادل. بعـد ذلـك عـدت إلى تونـس في أواخـر آب حيـث كان خـبر الاتّفـاق قـد شـاع تمامـا وانتشر على صـدر الصفحـات الأولى من الصحـف بما في ذلـك الصحـف الإسرائيليّة، وكان الجميـع يتحدّث عن أبي مـازن وبيريس كصناعي هـذا الاتّفـاق، ولم يرد ذكـر لي أو لأوري سـافير، ولم يكن الأمر مزعجـا لي لكنّني لاحظـت انزعاجـا لدى الأخّ أبـو عمّار الّذي أخـذ يرى في هذه الأنبـاء عمليّة تلميع سـياسيّ لـلأخّ أبو مـازن، ويبدي قلقا وحساسـيّة مفرطـة ولا لوزم لها، لاسـيّما وأنّ مكانـة الأخّ ابـو عمّـار على رأس هرم المؤسّسـة الفلسـطينيّة المعترف بها على أوسـع نطـاق دوليّ، كانـت مكانـة ليسـت محـلّ نـزاع أو منافسـة مـن جانب أيّ مسـؤول فلسـطينيّ آخر.

في ختـام جولـة الأخّ أبي عمّـار العربيّـة، تمّت الدّعـوة لعقد اجتمـاع اللّجنة المركزيّـة لحركـة فتـح يـوم ٢٦/ ١٩٩٣/٨ في تونـس، أي قبـل نحـو ثلاثـة أسـابيع من الموعـد المقـرّر للتّوقيـع على مـا بات يعرف باسـم اتّفاق أوسـلو، ثـمّ عقد أبـو عمّار

في اللّيلة ذاتها اجتماعا آخر للجنة التّنفيذيّة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، ذلك الاجتماع الّذي غابت عنه الجبهة الشّعبيّة، وحضره محمود درويش الّذي كان قد أعلن استقالته من اللّجنة التنفيذيّة قبل وقت قصير، بينما قاطعه شفيق الحوت الّذي كان قد قدّم استقالته من اللّجنة عبر وسائل الإعلام احتجاجا على ما تسرّب من بنود اتّفاق إعلان المبادئ.

في اجتماع اللّجنة التّنفيذيّة لم يكن الاخّ أبو عمّار صريحا بما فيه الكفاية، فبدلا من أن يتحدّث عن اتّفاق أوسلو تحدث عن ورقة مصريّة قدّمت للإدارة الأمريكيّة، وأنّ هناك احتمالا أن توافق كلّ من أمريكيا وإسرائيل على هذه الورقة، ثمّ عرّج على مفاوضات واشنطن وأسهب في الحديث عن تعثّرها، فراح بعض الحاضرين يهاجمون مصر والدّور المصريّ ويطالبون بوقف المفاوضات والانسحاب من عمليّة السّلام. وبعد ذلك الاجتماع تقرّر إطلاع الوفد المفاوض في واشنطن على ما آلت إليه مفاوضات أوسلو من نتائج، وعندما سأل بعضهم (أبو عمّار) عن وجود قناة سرّيّة قال:»إنّه توجد عدّة قنوات، وإنّه حين يتمّ التّوصّل إلى نتائج ملموسة سيطرح الموضوع على اللّجنة التّنفيذيّة والمؤسّسات التّشريعيّة للحصول على مصاداقتها».

كانت الأنباء عن اتّفاق أوسلو قد أخذت تتنشر انتشار النّار في الهشيم، ولم ينفع كلّ من النّفي الفلسطينيّ والإسرائيليّ في الحدّ من ردود الأفعال الّتي كانت تصدر تباعا عن المنظّمات الفلسطينيّة في دمشق والقاهرة وعمان.

في تلك الأثناء اتّصل بنا شمعون بيريس في تونس طارحا فكرة عودتي إلى أوسلو من أجل متابعة المفاوضات المتعلّقة ببنود الاعتراف المتبادل. وبينما كنت متردّدا في إتمام هذا الاعتراف كان الإسرائيليّون يزدادون قناعة مع مرور

الوقـت بأنّ توقيـع منظّمة التّحريـر على اتّفاق إعـلان المبادئ أفضـل لإسرائيل من توقيعـه مع وفد فلسـطينيّ قـد يتمّ الطّعـن بشرعيته في المسـتقبل.

كان الاعـتراف المتبادل ينطوي على صعوبات سياسـيّة ونفسـية لدى الطّرفين، وكانـت تلـك الصّعوبات حـاضرة في ذهني وأنـا أعود مجـددا إلى العاصمـة النّرويجيّة لمقابلـة يوئيـل سـينغر، الّذي أحـضر معه صيغـة معدّلـة تضمّنت اعـتراف المنظّمة بحـق إسرائيـل في الوجـود بأمـن وسـلام، ونبـذ الإرهـاب، ووقـف أعمـال العنف، وتعديـل الميثـاق الوطـنيّ، وأنّ يـاسر عرفات مسـتعدّ للقـاء أيّ مسـؤول إسرائيليّ، حيـث تمّ دراسـة هـذه الصّيغة مع القيـادة الفلسـطينية الـتّي رأت أنّ أصعب ما في هـذه الصّيغـة مـا يتعلّـق بنقطـة إلغاء بعـض بنود الميثـاق الوطـنيّ باعتبـار أنّ ذلك حقّـا مـن حقوق المجلـس الوطـنيّ وحده.

لـم يكـن التّوصّـل إلى اتّفـاق الاعـتراف المتبادل مسـألة سـهلة، فقد اقتضى الأمـر عـشرة أيام وتطلّـب تدخّل وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ والانتقال من أوسـلو إلى باريـس. وبعـد طـول معانـاة تفاوضيّـة جـرى توقيـع الاتّفـاق بالأحـرف الأولى في باريـس منتصـف ليلـة ٩/ ٩/ ١٩٩٣ مبـاشرة بعـد اقـرار اللّجنـة التّنفيذيّـة لهذه الوثيقـة الخاصّـة بالاعـتراف المتبـادل، بمـا في ذلـك رسـالة الاعـتراف الموجّهة من المنظّمـة إلى اسرائيل ورسـالة الاعتراف مـن الحكومة الإسرائيليّـة بمنظّمة التّحرير الفلسـطينيّة، ناهيـك عـن رسـالة أخـرى موجّهـة مـن الأخّ أبي عمّـار إلى وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ يتعهّـد فيها بالطّلب في إحـدى خطبه بدعوة الفلسـطينيّين إلى التّوجّـه نحـو السّـلام والتّنميـة بدلا مـن الدّعـوة إلى وقـف الانتفاضة.

بعـد ذلـك سـافر كلّ مـن وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ ونظـيره الإسرائيـليّ إلى واشـنطن حيـث قابـلا وارن كريسـتوفو وأبلغاه بما حـدث، واتّفقا معـه على عمليّة

إخـراج هـذا الاتّفـاق إلى العلـن وتقديمـه إلى الرّأي العـام الدّوليّ، كمـا اتّفق وزراء الخارجيّـة الثّلاثـة على الإخـراج الدّبلومـاسيّ لهذا الاتّفـاق الّذي سـتتبناه الولايات المتّحـدّة الـتّي سـتعيد اتصالهـا مـع منظّمـة التّحريـر، وتحمـل الأطـراف العربيّـة المعارضـة على تقبّـل الاتّفـاق ولـو على مضـض لاسـيّما الأردنّ وسـوريا ولبنـان، ثمّ اصـدر الـوزراء أنفسـهم بيانـا مشـتركا أعلنـوا فيه أنّـه سـيتمّ التّوقيـع على الاتّفاق رسـميّا في واشـنطن بعـد أن يتـمّ الاتّفـاق على صفقـة الاعـتراف المتبادل.

اجتمعـت الحكومـة الإسرائيليّـة يـوم ٢٩/ ٨، وقام رابين بإطـلاع وزرائه على أنّـه تمّ عقد اتّفاق سـلام مـع منظّمة التّحرير الفلسـطينيّة. وفي صباح اليوم نفسـه دخـل أحـد الصحافيـين على الوفـد الفلسـطينيّ المفـاوض في واشـنطن وبيـده نصّ الاتّفـاق، وهـو الأمر الّذي شـكّل مفاجـأة لأعضـاء الوفد، فيمـا قام وزيـر الخارجيّة النّرويـجيّ بعقـد مؤتمـر صحـافيّ في أوسـلو أعلن فيـه باعتزاز شـديد عـن التّوصّل إلى هـذا الاتّفـاق، بينمـا كنـت أعقد اجتمـاعات مكثّفـة في باريس لاتمـام صفقة الاعـتراف المتبـادل، حيـث انضـمّ إلينـا وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ الّذي انتقل من دور المسـهّل إلى دور الشّريـك المباشر.

مـضى يومـان عسـيران مـن المحادثـات الـتّي شـارك فيهـا وزيـر الخارجيّـة النّرويـجيّ بكثافـة دون أن نتوصـل إلى الاتّفـاق الّذي عـدت مـن أجله إلى أوسـلو وباريـس. وفي تلـك الأثنـاء عقـد الكنيسـت جلسـة عاصفـة اتّهـم فيهـا اليمـين اللّيكـودي كلا مـن رابـين وبيريس بالتّخـلّي عن أرض إسرائيـل التّاريخيّـة، وتعهّد قادة اللّيكود بالوقوف ضدّ الاتّفاق وإسـقاطه، كما قام آلآف المسـتوطنين بمسـيرات احتجاجيّـة فظّـة. وفي بعـض العواصـم العربيّة صـدرت بيانات اسـتنكاريّة وأعلن المعارضـون مواقـف ناريّـة، في حـين اسـتقبل كثـير مـن الفلسـطينيّن في الضّفـة

الغربيّة والقدس وقطاع غزّة الاتّفاق بقدر كبير من مظاهر الابتهاج، حيث لوّح الشّبان بأغصان الزّيتون وبأعلام فلسطينيّة كانت ممنوعة حتّى الأمس القريب.

كان الوقت الضّيق يمرّ بسرعة حيث موعد توقيع الاتّفاق تحدّد يوم ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ فبدا الإسرائيليّون وكأنّهم في سباق مع الزّمن للتّوصل إلى اتّفاق الاعتراف المتبادل في غضون العشرة أيام المتبقيّة، الأمر الّذي دفع شمعون بيريس إلى التّوجّه لباريس طالبا من وزير الخارجيّة النّرويجيّ القيام بمهمة مشابهة لتلك المهمّة الّتي جرت في أوستكهولم. وقد أمضى بيريس يومين في باريس للتّفاوض مع الأخ أبي عمّار هاتفيّا عبر وزير الخارجيّة النّرويجيّ، ورغم الاستعجال الشّديد لم يتفقا سوى على نقطتين، ثمّ عاد وزير الخارجيّة الإسرائيليّ إلى تلّ أبيب، فيما عاد نظيره النّرويجيّ إلى أوسلو وهو مصممٌ على عدم السّماح لأيّ عقبة بأن تحول دون الاحتفال بتوقيع الاتّفاق في واشنطن.

واصل جوهان يورغن هولست عمله من بيته في أوسلو، وأمضى ليلة على الهاتف مع الأخّ (أبو عمّار) الّذي كان يقضي حينها زيارة للقاهرة. ولما تعقّدت الأمور طلب هولست من (أبو عمّار) أن يأتي أبو علاء إلى العاصمة النّرويجيّة، وكنت حينها في تونس غير أنّني امتنعت عن العودة إلى أوسلو رغم إلحاح الأخّ (أبي عمّار) عليّ، وبقيت على هذه الحال إلى أن فوجئنا بعودة بيريس والوفد المفاوض إلى باريس على أساس وعد من هولست بأنّني سأحضر لمتابعة المفاوضات من جديد، وهو الأمر الّذي زاد من ضغوط الأخوة في القيادة عليّ، فضلا عن ضغوط يورغن هولست الصّديق للشّعب الفلسطينيّ، فعدت إلى العاصمة الفرنسيّة مجدّدا لأداء مهمّة لست مقتنعا بها، وكان الاستياء باديا عليّ،

وهـو الأمـر الّذي لاحظه هولسـت فـزاد من درجـة الـودّ واللّطق والكياسـة لإقناعي بمقابلـة أوري سـافير ويوئيل سـينغر.

حـضر جوهـان يورغـن هولسـت بصحبه فريـق المفاوضـات النّرويـجيّ، وكان معهـم جهـاز كمبيوتـر محمـول وبعـض قواميـس اللّغـة تحسـبا للوقـوع في شرك الكلمـات غـير المحدّدة مـن حيث المعنى، واسـتمرّت المفاوضـات طوال تلـك اللّيلة التّي تسـبق الموعـد المقرّر لتوقيع الاتّفاق في واشـنطن بخمسـة أيـام، وحدث خلاف أدّى إلى انـدلا ع صراخ مـلأ أرجاء الجنـاح رقمم ١١٩ من فندق بريسـتول الباريسيّ، وصـدف أن فتـح أحدنا البـاب للتّخفيف مـن روائح أدخنـة أعقاب السّـجائر، وإذ بمحطـة CNN تنقـل صـور المسـتوطنين المحتجّـين من جهـة أولى، وصـور مؤيديّ المنظّمـات الإسـلاميّة في الضّفّـة الغربيّـة وقطـاع غـزّة وهـم يتظاهـرون ضـدّ هذا الاتّفـاق من جهـة ثانية.

وفيمـا كنت منهمـكا في معركة لغويّة مع أوري سـافير كنـت أواصل الاتّصال الهاتـفيّ مـع كلّ مـن الأخّ أبي عمّـار والأخّ أبي مـازن اللّذيـن كانـا قد انـتزعا موافقة اللّجنـة التّنفيذيّـة لمنظّمـة التّحريـر على الاتّفـاق بصعوبـة بالغة، وها همـا يحاولان انـتزاع موافقـة اللّجنـة التّنفيذيّـة على تغيـير الميثـاق الوطـنيّ بمـا يلائـم اتّفـاق الاعـتراف المتبـادل المزمـع عقـده. وبعد طـول أخذ وردّ فيمـا يتعلّـق بتعديل بعض بنـود الميثـاق الوطـنيّ ونبـذ الإرهاب، تـمّ ذلك في سـاعات الفجـر الأولى على أن تردّ عبـارة نبـذ الإرهـاب في رسـالة موجهة مـن الأخّ (أبو عمّـار) إلى إسـحق رابين، ثمّ اتفقنـا، كبديـل، على إيرادهـا في رسـالة الأخّ أبو عمّـار إلى وزير الخارجيّـة النّرويجيّ كحـلّ وسـط، وبـدل نبذ الإرهـاب اتّفقنا على اسـتخدام رفض الإرهـاب كي لا يبدو الفلسـطينيّون أنّهـم كانوا يمارسـون الإرهـاب أصلا.

أمّـا فيما يتعلّق بمسـألة بنود الميثـاق الوطنيّ، فقد تمّ الاتّفـاق على التّخلي عن عبـارة بنـود الميثـاق المعنيّة متوقفة وغير سـارية المفعـول، إلى عبارة تقـول أنّ البنود ذات العلاقـة لـم تعـد صالحـة المفعـول، غير أنّـني عندما اتّصلـت بالأخ أبـو عمّار في السّـاعة الرّابعـة فجـرا، وكان أمر الاتّفاق قـد انتهى بالفعل، وجـدت الأخ القائد العـامّ يرفـض عبـارة تدعو سـكّان الضّفّـة الغربيّـة وقطاع غـزّة إلى رفـض العنف والارهـاب، الأمـر الّذي جعلـني أطلـب من رجـال الأمـن إيقاظ تيري لارسـون في السّـاعة السّـابعة صباحـا، وعندما دلف لارسـون إلى غرفتي وكان مذعـورا قلت له والإرهـاق يغالبـني أن الأمـر مفجـع، لقـد انتـهى كلّ شيء، فاتّصـل بأوري سـافير، وأبلغـه بالأمر.

كان شـمعون بيريـس قـد غادر إلى تـلّ أبيـب لحضـور اجتمـاع الحكومـة الإسرائيليّـة المقـرّر صباح اليـوم الّذي لم يعد يفصلـه عن موعد الاحتفال الرّسـميّ سـوى أربعـة أيام، وقـال رئيـس الوفد الإسرائيـليّ لتري لارسـون عندما أخـبره بما سـبق أن قلتـه، قال أوري سـافير:»إنّ رابين سـوف يؤجّل النّقاش في الحكومة بشـأن نـصّ الاعـتراف المتبـادل»، فقـال له لارسـون: «هـل أنت جـاد فيما تقـول؟»، أجاب سـافير: «بالتّأكيـد». فـأسرع لارسـون نحو الغرفـة وكنت قـد دخلت الحمّـام، فأصرّ على محـاورتي تحـت كلّ الظّروف، وكان ممّا قاله لارسـون - وهو في غايـة الإحباط - :» إنّ عليّ أن أقـوم بـشيء ما، وتسـاءل: «ألا تسـتطيع معـاودة الاتّصـال؟ ألا ترى الجهد الّذي بذلنـاه سـويّة؟ إنّ الأمـر يسـتحقّ القيام بمحاولـة أخرى».

اسـتدرت نحـو تـيري لارسـون وكان يقـف إلى جانـبي في الحمّـام وعلامـات الفـزع تـكاد تطيـح بـه أرضـا، ثـمّ ابتسـمت له مشـجّعا، وقلـت بنـبرة متخابثة: «إنّهـم يصطـادون السّـمك، ما عليـك إلّا أن تنتظر وسـترى». وعندمـا انتهيت من

حلاقة ذقني، ذهبت إلى القاعة الرّئيسيّة في الفندق، فوجدت الجميع يتحلّقون حول هولست، ثمّ تنحّيت جانبا، وأمسكت الهاتف متحدّثا إلى الأخّ (أبو عمّار) لبعض الوقت، وأخبرته أنّ إسحق رابين سوف يؤجّل مصادقة الحكومة الإسرائيليّة على اتّفاق إعلان المبادئ، وبعد نقاش متوتّر أغلقت سماعة الهاتف، واستدرت نحو الجميع ممّن كانوا يترقّبون وصولي بلهفة قائلا: «وافق الرّئيس عرفات».

وهكذا تمّ تذليل ما تبقى من عقبات، وصار الاعتراف المتبادل حقيقة سياسيّة أخرى على هيئة نصّ ينتظر توقيعه من جانب الأخّ (أبو عمّار) ورابين، ولذلك فقد طار هولست إلى تونس لأخذ توقيع الرّئيس عرفات، ومنها إلى تل أبيب عبر قبرص لأخذ توقيع إسحق رابين، أي أنّ هولست كان في سباق حقيقيّ مع الزّمن، وعلى الرّغم من الحفاوة التّي تمّ بها استقبال هولست في تونس لدى وصوله إلى هناك، إلّا أنّ الوفد النّرويجيّ كان شديد القلق مغبة ظهور مفاجأة في الدّقيقة الأخيرة مثل أن يطلب (أبو عمّار) مزيدا من التّوضيحات أو القليل من التّعديلات على النّصّ الّذي صار مطبوعا على نسختين، لكنّ وحدات التّصوير وحشد الصّحفيين قلّلا من حالة التّوتّر التّي سادت على وجوه الوفد النّرويجيّ بادئ الأمر.

وهكذا بلا مقدّمات أو كلمات احتفاليّة أخذ يورغان هولست مكانه إلى الطّاولة المعدّة مسبقا له، وجلس إلى جانبه الرّئيس ياسر عرفات، بينما وقف صفّ طويل من الضّيوف خلف الرّجلين ثمّ فتح هولست حقيبته البنيّة اللّون وأخرج منها الوثيقة المطبوعة، فقام الأخّ (أبو عمّار) بتوقيعها في السّاعة الحاديّة عشرة والنّصف يوم ٩/ ٩ أي بعد نصف ساعة من موافقة اللّجنة التّنفيذيّة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة على هذه الوثيقة.

بموجب الاعتراف المتبادل نالت حركة التّحرير الوطنيّ الفلسطينيّ بقيادة منظّمة التّحرير، وبعد نضال طويل وتضحيّات لا حصر لها، أثمن اعتراف بها من بين سلسلة الاعترافات الّتي سبق أن انتزعها على المدى الأعوام الطويلة الماضيّة، خصوصا أنّ الحركة الصّهيونيّة وإسرائيل كانتا تنكران على الشّعب الفلسطينيّ أبسط حقوقه، وها هما الآن تعترفان على نحو ضمنيّ بأنّ للحركة الوطنيّة الفلسطينيّة الحقّ في وطن على أرض بين البحر والنّهر، أي فيما كان يعرف باسم أرض إسرائيل الكاملة.

وفوق ذلك فإنّه بموجب هذه الوثيقة ستفتح الدّولة العظمى الوحيدة الباب أمام اعتراف مماثل بمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة وبالقيادة المحاصرة سياسيّا وماليّا منذ حرب الخليج الثّانية. وبذلك تمّ إرساء حجر أساس لبناء فلسطينيّ من المقدّر له أن ينمو ويتطوّر على طريق إقامة الدّولة الفلسطينيّة المستقلّة، وعاصمتها القدس الشّريف.

بالعودة إلى الأيام الّتي تلت توقيع رسائل الاعتراف المتبادل، وسبقت السّفر إلى واشنطن، كان الأخ أبو عمّار يرغب في حضور حفل توقيع اتّفاق إعلان المبادئ شخصيّاً، والّذي كان من المقرّر أن يوقعه عن الجانب الإسرائيليّ وزير الخارجيّة شمعون بيريس. ولما كان الأخ أبو اللّطف معارضاً للاتّفاق، فقد جرى التّوافق على أن يكون الأخ أبو مازن هو المناظر لبيريس من النّاحية البروتوكوليّة لتوقيع الاتّفاق. ويبدو أنّ هذا الأمر لم يكن محلّ ترحيب من (الأخ أبو عمّار)، فقد كان لديه بعض الحسابات والتّحسّبات إزاء مثل هذا التّطوّر الّذي قد يؤدّي إلى خلق نوع من الخلافات الخطيرة.

وعلى خلفيّة هذا التّنافس المكتوم، والمماحكات غير المبرّرة، نأيت بنفسي

عـن هـذا الجوّ، ورحت أراقب المشـهد بألم وصمـت وتمعّن، فيما كانـت الاتّصالات جاريـة مـع الجانـب الإسرائيليّ مـن خلال الدّكتـور أحمـد الطّيبيّ، لإبـلاغ بيريس أن الأخ أبـا عمّـار يرغـب في السّـفر إلى واشـنطن، وأنّـه مسـتعدّ لتوقيـع الاتّفـاق بنفسـه إذا كان إسـحق رابـين راغبـاً في التّوقيـع. وبالفعـل فقـد أتى الرّدّ مـن رابين بأنّـه مسـتعدّ لحضـور الاحتفـال فقط، وليـس التّوقيـع. وعليه فقد جـرى الاتّصال بالسّـفير الأمريكـيّ في تونـس لتوجيـه دعوتـين منّفصلتـين إلى الرّجلـين، حيـث تلّقـف هـذه الفرصـة الرّئيـس الأمريكيّ الجديـد بيـل كلنتـون، والّذي لم يكن قـد مـضى على وجـوده في البيت الأبيض سـوى نحو سـتّة أشـهر.

جـرى في تونـس في مطـار قرطـاج الدّولي، ظهـر يـوم ١٩٩٣/٩/١٢م حفل وداع رسـميّ وقـف في مقدّمتـه كبار المسـؤولين التّونسـيّين جنباً إلى جنب مـع عدّد أكبر مـن القيـادات والكـوادر الفلسـطينيّة. أمّا في واشـنطن فقد أُسـتقبل الوفـد بحفاوة رسـميّة وتغطيـة إعلاميّـة واسـعة، لا سـيّما واقعـة وصول يـاسر عرفـات الّذي كان ممنـوعاً مـن الهبـوط في الأرض الأمريكيّـة، بما في ذلـك منعه من الوصـول إلى مقر الأمـمّ المتّحـدة في نيويـورك. لقـد أثار ذلـك في نفوسـنا الغبطة الّتي تبـدّدت بسرعة لدى وصولنـا إلى الفنـدق، وذلك حينمـا راجعنا نـصّ الاتّفاق، حيـث وجدناه خالياً مـن الإشـارة إلى منظّمـة التّحريـر الّـتي تبادلت لتوهـا بحصوص الاعـتراف المتبادل بـين منزمـة التحريـر وإسرائيل... لقـد وجدنا النّـصّ لا يزال يتحدّث عـن وفدنا في إطار الوفد المشـترك مـع الأردنّ.

غضـب الأخ أبـو عمّار جـراء التّلاعب في النّـصّ، وطلب مـني العمل بكلّ وسـيلة ممكنة لاسـتبدال كلمة الوفد الفلسطينيّ باسـم منظّمة التّحرير الفلسطينيّة، في حـين طلـب من الدّكتـور أحمد الطّيـبي، الّذي كان يرافق وفدنـا، أن يبلغ كلًّا من

إسحق رابين وشمعون بيريس بضرورة إجراء مثل هذا الاستبدال وإلّا فإنّه لن يوقّعه، ولن يأذن لأحد بتوقيعه. على أثر ذلك اتّصل بي دنيس روس لأوّل مرّة، حيث حاول المنسق الأمريكيّ لعملية السّلام التّقليل من أهمية هذه المسألة، وأعرب عن أمله ألّا يؤدي هذا الخلاف إلى شلّ التّرتيبات الهائلة الّتي أعدّت لتوقيع الاتّفاق. كما اتّصلت بتيري رود لارسون، وقلت له: «إنّ علينا استبدال المفردات»، لاسيّما وأنّنا كنّا نتحدّث عن هذا الأمر في أوسلو، وقرّرنا ذلك إذا ما جرى التّوصّل إلى اتّفاق الاعتراف المتبادل.

إلّا أنّ تيري لارسون، الّذي كان يدرك سلفاً مشقّة هذا العبء، أو قل هذه الصّخرة الّتي وقعت على رأسه، آثر التّهرّب من قطع أيّ وعد، فأجبته:» إنّه إن لم يجر هذا الاستبدال فإنّه لن يجري والحالة هذه أيّ توقيع للاتّفاق، وأنذرته أن يخبر الجانب الإسرائيليّ بأن وفدنا سيعود من حيث أتى إذا رفض الإسرئيليون ذلك. ويبدو أن مهمّة أحمد الطّيبي مع شمعون بيريس واجهت مقاومة أشدّ من مهمّتي مع لارسون، فقد أخبرنا الطّيبي أنّ بيريس قال له:» إنّ حقائبنا لم تفتح بعد، وإنّنا مستعدّون للمغادرة قبل أن يغادر عرفات». عند ذلك طلب منّا الأخ أبو عمّار أن نحزم حقائبنا على الفور، وأصدر تعليماته إلى قائد الطّائرة المغربيّة أن يستعدّ للإقلاع بعد قليل.

كان الوقت يمضي بسرعة، ولم يتبق أمامنا سوى ساعة أو أقّل على موعد الاحتفال، وعندها بدأت مساومات اللّحظة الأخيرة. فقد تدخّل وزير الخارجيّة الأمريكيّ الأسبق جيمس بيكر، واجتمع مع الأخ أبي عمّار ليقول الدّبلوماسيّ الأمريكيّ العريق:»الاحتفال سيبدأ في السّاعة الحاديّة عشرة كما هو مقرّر، وفي السّاعة العاشرة وخمسة وخمسين دقيقة سيرن جرس الهاتف لإبلاغكم

بالموافقة الإسرائيليّة على التّعديل المطلوب». وفعلاً فقد اتّصل الدّكتور الطّيبي بنا قبل دقائق من الموعد المقرّر، وأخبرنا أنّ إسحق رابين وشمعون بيريس قد وافقا على أن يتمّ استبدال اسم الوفد الفلسطينيّ باسم منظّمة التّحرير الفلسطينيّة في أوّل صفحة من الاتّفاق، وكذلك في الصّفحة الأخيرة منه. وبذلك انتهت هذه الأزمة على النّحو الّذي يلبي الرّغبة الفلسطينيّة إلى حدّ بعيد.

في تلك الأثناء، كانت وزارة الخارجيّة الأمريكيّة وإدارة البيت الأبيض قد اعدّوا لكلّ شيء عدّته، حيث رتّبوا المقاعد وحدّدوا لكلّ مدعوّ، ولكلّ وفد المدخل الّذي سيعبر منه إلى حديقة البيت الأبيض. كما حسبوا التّوقيتات بكلّ دقّة، ومواعيد الكلمات والمصافحات، ولم يتركوا شاردة أو واردة لمحض الصّدفة. وزاد في مهابة المشهد، الّذي حشدت له إدارة الرّئيس بيل كلينتون كلّ ما في وسعها، قائمة المدعوين الّذين تقدّمهم الرّئيس الأمريكيّ، ومن خلفه كلّ الرّؤساء الأمريكيين الأحياء، وكلّ وزراء الخارجيّة الأمريكيين السّابقين جنباً إلى جنب مع وزراء خارجيّة من أربعين دولة، بمن فيهم وزراء خارجيّة الدّول العربيّة والخليجيّة المقاطعة لمنظّمة التّحرير في ذلك الوقت، ومن ضمنهم وزيرا خارجية سوريّا ولبنان.

بكلام آخر، كان العالم كلّه تقريباً يحتشد على نحو رمزيّ في حديقة البيت الأبيض، وكان المشهد مهيباً بالفعل، لم تشهد له العاصمة الأمريكيّة مثيلاً من قبل. وقد علمنا قبل الدّخول إلى حديقة البيت الأبيض من المراسلين المحتشدين، إنّ الفلسطينين في المنافي - خصوصاً في الدّول العربيّة المجاورة لفلسطين - كانوا يتحلّقون حول أجهزة التّلفزيون لمشاهدة وقائع هذا الحفل الّذي كان يُبث على الهواء مباشرة.

أمّـا أنبـاء شـعبنا في غـزّة والضّفّـة الغربيّة فكانـوا كمن فرضوا على أنفسـهم منـع تجـوّل طـوعيّ، إذ قيـل لنا أنّ شـوارع المدن قـد خلت مـن المـارّة، وأنّ محطّات التّلفزيـون العربيّـة تسـتعدّ للمشـاركة في نقل الاحتفـال الّذي بلغ حـدوداً أبعد من الخيـال لدى النّـاس العاديـين، حيث نزل بعض الشـباب الفلسـطينيّ إلى الشّـوارع يحملـون الأعـلام الفلسـطينيّة، ويهتفون بحيـاة الزّعيم يـاسر عرفات.

بعـد الاسـتجابة الأمريكيّـة للتّعديل الفلسـطينيّ، تحرّك وفدنـا من الفندق إلى البيـت الأبيـض في العـاشرة والنّصـف صباحـاً، حيـث دخـل الأخ أبـو عمّـار والأخ أبـو مـازن قاعـة داخليّـة في مبـنى الرّئاسـة الأمريكيّـة، بينما رافـق رجال البروتوكـول وفدنـا في ذلـك الوقـت الحـرج إذ أنّ التّعديـل لـم يتـم إدخـاله بعد على النّـصّ، فقمنـا بإجـراء الاتّصـالات العاجلـة ممّا حـدا بأحد رجال البيـت الأبيض بـإعادة طباعـة الصّفحـة الأخيرة مـن الاتّفـاق واسـتبدالها بالصّفحة غـير المعدّلة، وبالتّـالي فقـد أصبح نـصّ الاتّفاق المطبـوع على أربع نسـخ مذيلاً بـ(فريـق منظّمة التّحريـر في الوفد الأردني الفلسـطينيّ المشـترك) الأمر الّذي أدّى إلى تأخير مراسـم افتتـاح الحفـل نحو عشرين دقيقـة، لم يعلم سـببها غير عدّد محدود مـن الحاضرين.

بعـد دقائـق بـدأت وقائع الحفل وسـط حراسـة مشـدّدة مـن رجـال المارينز، حيـث قـادت زوجـة نائـب الرّئيـس الأمريكيّ غـور موكـب الشّـخصيّات المهمّة مـن داخـل البيـت الأبيـض اثنين اثنـين، ثـم ثلاثة ثلاثـة. ومـا أن اكتمـل خروج تلـك الشّـخصيات، وأخـذ كلّ واحـد مقعـده حـتّى انحبسـت الأنفـاس، ليخـرج الرّئيـس بيـل كلينتـون محاطـاً بالرّئيس يـاسر عرفات مـن جهة، ورئيـس الحكومة الإسرائيليّـة إسـحق رابـين مـن جهـة ثانيّة في مشـهد لم يكـن متخيّلاً مـن قبل، وذلـك في لحظـة تاريخيّة لم تسـاور عقول أيّ مـن الحاضرين لهذا الحفـل، والّذي أراد

البيت الأبيض أن يسجّله كحدث دوليّ بالغ الأهميّة، أو قل كتطور سياسيّ لا رجعة عنه، ولا معارضين له، ولا سابق له في تاريخ الصّراع الطّويل.

لم تمضِ سوى لحظات حتى قام كلّ من الأخ أبي مازن والسّيد شمعون بيريس بتوقيع الاتّفاق أمام عدسات المصورين، ثمّ أضاف الرّئيس بيل كلينتون توقيعه كشاهد على هذا الاتّفاق. وبعد ذلك بدأت وقائع الحفل المثيرة، وتتالت الخطابات المعدّة سلفاً، وبدأها شمعون بيريس، ثمّ تلاه الأخ أبو مازن، وبعد ذلك تتابعت الكلمات من وزير الخارجيّة الرّوسيّ، ووزير الخارجيّة الأمريكيّ، ثمّ الرّئيس كلينتون، حيث مرّت كلّ هذه الكلمات دون أن تستقطب اهتمام الحاضرين، الّذين كانوا يوجهون أنظارهم إلى الكلمتين الرّئيستين المقرّر إلقاؤها بعد ذلك، وهما كلمة الأخ أبي عمّار والسّيّد إسحق رابين، أيّ الزّعيمين اللّذين كانا يواصلان وقوفهما قرب المنصّة، ويفصل بينهما الرّئيس الأمريكيّ.

وبالفعل تحدّث رابين بخطاب مطّول قلب فيه الوقائع التّاريخيّة وصوّر إسرائيل على أنّها الضّحيّة، تلاه الأخ أبو عمّار الّذي تقدّم بخطوات تشبه المشية العسكريّة، تتابعة العيون بين مشفق ومعجب وفخور وقلق لما سيقوله الزّعيم الفلسطينيّ في تلك اللحظة، والّتي بدا فيها قائد الشّعب الفلسطينيّ فخوراً بنفسه وواثقاً بها، وسعيداً بهذه النّهاية لخاتمة فصل مضنٍ من كفاح الشّعب الفلسطينيّ ، فتحدّث باللغة العربيّة بروح تصالحيّة، وأسهب في الحديث عن أهميّة تحقيق السّلام، وأكدّ على التزام منظّمة التّحرير بالاتّفاق. وبعد ذلك أزفت اللحظة الأكثر إثارة في الحفل، حين قام الرّئيس كلينتون بتقريب كلّ من (أبو عمّار) ورابين أحدهما إلى الآخر، حيث بادر أبو عمّار إلى مدّ يده، فيما بدا رابين متثاقلاً قبل أن تمسك يده الممدودة، ويهزّها طويلاً وسط نوبة شديدة من التّصفيق.

كانت المصافحة التّاريخيّة هذه بمثابة المشهد النّهائي لهذا الحفل المهيب، نهض بعدها المدعوون من مقاعدهم، واختلطوا ببعضهم بعضاً يتبادلون التّهاني والوشوشات والتّعليقات والنّكات، والعناوين وأرقام الهواتف وغير ذلك. وعن بُعد شاهدت أوري سافير الّذي كان يجلس إلى جانب شمعون بيريس يندفع نحوي لتحيّتي، فنظرته بعين مفعمة بمشاعر مختلطة إزاء هذا المفاوض، الّذي أتمّمت وإياه اتّفاق أوسلو، وها أنا وإياه نقف بين المتفرّجين على واقعة تحمل توقيعينا بالأحرف الأولى، وذلك دون أن ينوّه أحد من المتعاقبين على الكلام الاحتفاليّ بتلك الجهود المضينة الّتي بذلناها، نحن وسافير.

وبعد أن عدّنا إلى تونس، انعقد المجلس المركزيّ الفلسطينيّ في غضون فترة الشّهر المقرّرة لاعتماد اتّفاق أوسلو. وقد انعقد الاجتماع وسط جيش من المدعوين والضّيوف والمراقبين الّذين اتوا من الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة ومن عرب الـ ٤٨. وما أن تليت الكلمات وتناوب المتحدّثون على المنصّة حتّى عقد المجلس المركزيّ جلسته الصّاخبة وراء أبواب مغلقة. وعليه، وبعد مزيد من النّقاشات والجدالات الحادّة الّتي اتّسم بعضها بالعصبيّة جرى تصويت هذه الهيئة التّشريعيّة الوسيطة على نصّ الاتّفاق، فأيّده ٦٣ عضواً، وعارضه ٨ أعضاء، وامتنع عن التّصويت ٣ أعضاء، فيما غاب أو تغيّب عن جلسة المجلس ٣ أعضاء آخرين.

الجزء الثّاني

مفاوضات كامب ديفيد

يتضمّن هذا الجزء من « موجز المفاوضات الفلسطينيّة الإسرائيليّة « فصلاً عن الرّواية الفلسطينيّة الممتدّة من التّوقيع على اتّفاق أوسلو عام ١٩٩٣حتّى نهاية مؤتمر كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، حيث سأتوخّى عرض الأحداث الّتي كنت فيها شاهد عيان، إن لم أكن شاهد العيان الأكثر صلّة بالجانب الفلسطينيّ، الأمر الّذي يجعلني أشعر بمسؤوليّة شخصيّة إزاء عمليّة استرجاع بعض أهمّ وقائع هذه المرحلة وسردها وتوثيقها، والّتي شاركت في جميع أحداثها من موقعي كرئيس للوفود الفلسطينيّة التّفاوضيّة مع إسرائيل، وعضواً في اللّجنة القياديّة العليا للمفاوضات الّتي أدارت هذه العمليّة الطّويلة، حيث أتحمّل مع غيري أوزار المسؤوليّات المترتّبة عليها.

لقد اخترت لنفسي في هذا المقام منزلة تقع بين منزلة الرّاوي الّذي لديه رواية شخصيّة كاملة، وبين منزلة المؤرّخ الّذي عاش الأحداث بنفسه. وعليه فإنّ هذا الجزء يشتمل على عرض وتحليل للأحداث الّتي مرّت فيها تلك السّلسلة الطّويلة من الجولات التّفاوضيّة، وأجريت خلالها عددّاً لا حصر له من الاجتماعات الموسّعة، ووقفت فيها عن كثب على أدقّ تفاصيل هذه التّجربة الحافلة بالمتغيّرات، الأمر الّذي يسّر لي إمكانيّة موضوعيّة لتقديم هذا الجزء من الرّواية الّتي تبدو بلا نهاية، وأتاح لي كذلك الحصول على الوثائق والتّقارير

والأوراق والمعلومات الّتي لا غنى عنها لكلّ من يرغب في التّصدّي لمثل هذه المهمّة الكتابيّة الواقعة في سياق يجمع بين الشّهادة الشّخصيّة، والسّرد التّاريخيّ، والعمليّة التّحليليّة، والقراءة الاسّتنتاجيّة، بأعلى درجات الحياد والموضوعية.

في السّياق العامّ لهذا الجزء من الكتاب بعض الوقائع الّتي تقع على تخوم التّطورّات، قريباً من ضفاف نهر الأحداث الّذي ظلّ يتدفّق بغزارة طوال الفترة السّابقة، الأمر الّذي يجعل من استحضارها في هذا الموضع أو ذاك من بنية النّصّ إضافة نوعيّة ذات قيمة سيّاسيّة، لا سيّما وأنّها تحكي تجربة ليست مقطوعة الصّلة عن السّياق الكليّ، وهو ما يدعوني إلى اسّتذكار بعض أهمّ الوقائع المهمّة بالنّسبة للباحث السّياسيّ على وجه الخصوص، ناهيك عن القارئ العادي لكتاب مقدّر له أن يسد فراغاً ما في المكتبة الفلسطينيّة، وأن يحصّن الذّاكرة الوطنيّة لأبناء الحركة السّياسيّة الفلسطينيّة في الدّاخل والخارج بمعطيات قد تكون مفيدة في وجه الافتراءات والمزاعم والرّوايات المغرضة عن وقائع تلك المرحلة.

لقد خضت في تلك الآونة معركة تحقيق السّلام عبر دروب تفاوضيّة صعبة ومعقدّة، وساهمت في تحقيق انطلاقة كبرى فتحت بوابة عريضة غير قابلة للانغلاق، تلاحقت فيها الأحداث والتّطوّرات الّتي غيّرت مفهوم الصّراع، وبدّلت الكثير من جوهره الّذي كان يتمثل تاريخيّاً في محاولات الإقّصاء والاسّتئصال والإنكار المتبادل عبر عقودّ زمنيّة مديدة، لم تتمكّن إسرائيل خلالها من كسر الإرادة الفلسطينيّة وحلّ الصّراع بالقوّة العسكريّة المجردّة، أو شطب القضيّة من على جدول الاهتمامات العربيّة والدّوليّة، أو رميّ الشّعب الفلسطينيّ بعيداً في الصّحاري العربيّة، تماماً كما لمّ يتمكن الفلسطينيون

مـن دفـع إسرائيل إلى الانسـحاب بالقـوّة، أو إلغائها بعـد أن تمكّنت بمـا تلقته من دعـم أمريكـيّ وأوروبيّ مـن فرض نفسـها كحقيقـة سياسـية ومادية مـن حقائق المنطقـة، أو رميهـا في عبـاب البحـر وفـق بعـض المزاعـم الإسرائيليّة.

في إطـار ذلـك كلّـه، فـإنّ هـذه الرّواية/الشّـهادة ليسـت معنيّـة بالتّبريـر، ولـن تشـتغل بتسـويق الذّرائـع للدّفاع عـن هـذا الموقـف أو ذاك، أو لتسـويغ تلك السّياسـيّة أو هـذه، أو التّرويـج لهـذا الاداء أو ذاك ممّا حفل به المشـهد الفلسـطينيّ مـن ممارسـات وأسـاليب عمـل، أو ارتجـال أو خلافـات داخليّـة، عبر هـذا الكتاب الّذي يقـول الحقيقـة كما هي، ويـروي الوقائع كمـا وقعت في الزّمـان والمكان بهدف توثيـق هـذه الحقبـة، واطّـلاع القـارئ الفلسـطينيّ على حيثيـات هـذه المرحلـة، وإشراكـه في محطّاتهـا وتحوّلاتها، ومشـاركته في بعض دروسـها الثّمينـة، الأمر الّذي يقتـضي بالـضّرورة الموضوعيّـة ممارسـة النّقـد والنّقـد الذّاتي بـأعلى درجـات الامانة والرّشـاقة السّياسـيّة، خصوصـاً وأنّ الفـترة الّـتي يغطيهـا هـذا الجـزء تشـكّل جـزءاً أساسـيّاً مـن الواقـع الّذي لا يـزال قائمـاً حـتّى اليوم.

ومـن منطلـق الادراك أنّ كثـيراً ممّا روّج هـو عبارة عن حقائق ملتبسـة- لا سـيّما مـا اتّصل منهـا بمجريات مؤتمـر كامب ديفيد- فـإنّ الرّاوي الّذي شـهد هذا المؤتمـر، ووقـف على تفصيلاتـه الدّقيقـة كافّة، وتابـع كلّ ما جرى قبله مـن لقاءات واتّصـالات ومفاوضـات، معـنيّ بتقديـم شـهادة تتـوخّى فـضّ الالتبـاس الّذي كان مقصـوداً لذاتـه، وتجريـد الحقائـق من ثـوب المزاعم، وتشـخيص السّـياق السّـياسيّ الّذي حـدث فيـه هـذا المؤتمـر المرتجـل، وكذلـك ضبـط مغـزى التّوقيـت الّذي عُقـدت فيـه القمّـة الثلاثيّـة، وفـوق ذلـك كلّـه مناقشـة المزاعم الّـتي تـمّ ترويجها في حينـه عـن السّـخاء الإسرائيـليّ الّذي رفضه الفلسـطينيون بخفّة، وعـن الفرصة

الضّائعة، وسوء التّقدير الفلسطينيّ، وغير ذلك من الادّعاءات الّتي روجها إيهود باراك رئيس الحكومة الإسرائيليّة في ذلك الوقت.

سنتوقف في كلّ محطّة رئيسة، وعند كلّ منعطف أو فاصل من فواصل هذه الرّواية، لنقدّم شهادة مشفوعة بالحقائق والوثائق، ونسبر لُجّة كلّ تطوّر بعينه، ونعرض للوقائع والأحداث كما جرت بالفعل مع إبداء الحرص على عرض وجهة النّظر الفلسطينيّة بكلّ موضوعيّة، وذلك من موقع المسؤوليّة الجسيمة الّتي أنيطت بي خلال أعوام تلك الفترة، وعرض المواقف المتباينة من القضايا الخلافيّة الكبرى، وقراءة صحيفة حال معظم الشّخصيّات الّتي كانت لها اليد الطّولى في إنتاج حقائق ومزاعم تلك الحقبة، وذلك بالاستناد إلى التّجارب الشّخصيّة، والاستنتاجات الذّاتيّة المستنبطة عبر اللّقاءات المتعدّدة، والحوارات المغلقة، والاجتماعات المتكرّرة مع كلّ شخصيّة قُدِّر لي الاحتكاك بها.

لقد حرصت سلفاً على أن أعرض على الملأ الجهود الّتي بذلتها، والمواقف الّتي دافعت عنها، والمبادرات الّتي قمت بها، والاتّفاقيات الّتي توصّلت إليها. كما ستهتم هذه الرّواية/الشّهادة بتوضيح الفلسفة التّفاوضيّة الّتي تمّ اعتمادها مع الجانب الإسرائيليّ، هذه الفلسفة الّتي اعتمدت على مبدأ الابتعاد عن الإعلام ، وأنّ ما يمكن أخذه على الطّاولة من الإسرائيليّين أكبر وأهمّ ممّا يمكن أخذه من الأميريكيين ، وأنّ المفاوضات تقوم على أساس الرّزمة الواحدة، وتستند إلى قاعدة قوامها كسب ثقة الفريق المناظر، فضلاً عن تعزيز صدقيّة الوفد المفاوض وجديّة مرجعيّته السّياسيّة، وفوق ذلك كلّه بناء هذه العلاقات في أجواء تساعد على تجاوز معظم العقبات المتراكمة حول المائدة.

على أيّ حال، فإنّ هذا التّمهيد الّذي رغبتُ به قبل أن أدخل على مسار

الجـزء الثّـاني من هـذه الرّواية، جـاء ليؤكّد على حقيقـة أنّ لدى الجانب الفلسـطينيّ روايتـه الخاصـة عمّـا جـرى في غضـون تلـك الفـترة، وإنّ مـن يقـدّم هـذه الحكاية الطّويلـة هـو مـن خـاض سـائر المحطّـات التّفاوضيّـة المتعاقبـة، وعايـن الأحداث عـن كثـب، وأنّ هـذا الإصـدار سـوف يعيـد إلى الذّاكرة مرحلـة مهمّة مـن مراحل الكفـاح الوطـنيّ الفلسـطينيّ، ومـا تخلّلها مـن وقائـع ومواقف وتطـورات لا حصر لهـا، أفضـت إلى الواقع السّـياسيّ المتشـكّل عشـيّة مفاوضـات كامب ديفيـد، بما في ذلـك تبـدّل كثير مـن المعطيات والمفاهيـم والاسـتنتاجات الّتي شـقّت طريقاً أطول ممّـا كان عليـه الطّريق الّذي رسـمه اتّفاق أوسـلو، للوصـول إلى حلّ تفـاوضيّ ملبٍّ للحـدّ الأدنى مـن تطلّعات الشّـعب الفلسـطينيّ.

وعليـه، فـإنّ ما سـوف يلي مـن اسـتذكار وتحليـل وسرد وتوثيق واسـترجاع، ومـا يقيمـه من ترابط منهـجيّ بين الأحـداث والتّطـوّرات السّياسـيّة في تلك الفترة الزمنيـة، سـتكون جميعها عاملاً مسـاعداً للنّخبة السّياسـيّة، وللمهتمـين بتّطوّرات هـذه القضيّـة، كمـا أنّ هـذا الكتاب سـيوفر مـادّة غزيرة مـن المعلومـات، والكثير مـن الخـبرات الّـتي يمكنهـا أن تضيـئ الطّريق أمـام القابضـين على جمـرات الأداء التّفـاوضيّ الفلسـطينيّ مسـتقبلاً، لا حـول مائدة المفاوضـات فحسـب، وإنما أيضاً في الواقـع العمـليّ المتعلّـق بتصويـب السّياسـات، وإعادة البنـاء، وإطـلاق عمليّـة الإعمـار، وتسريـع فعاليّـة تحقيـق الحلـم الفلسـطينيّ في وطـن حرّ سـيّد مسـتقل، يلـبي الطّموحـات العالية، ويـبرّر كلّ هـذه التّضحيـات الثّمينة.

كان الطّريق إلى كامب ديفيد طريقاً شـديد الالتّواء، وغاص بالحفر وبالأحجار والأخطـار. ولأنّ المسـار مـن أوسـلو إلى هـذا المؤتمـر الّذي انعقـد في تمـوز/ يوليـو عام ٢٠٠٠م كان بـدوره مسـاراً طويـلاً مليئـاً بالأحـداث والوقائـع والتّطـوّرات، فـإنّ

الجـزء الثّـاني مـن هـذا الكتـاب سـوف يمـرّ على عدد مـن أهـمّ المحطّـات، ويعاين بعـض الوقائـع عن قـرب، وينحو منحى عامل البنـاء الّذي يشـتغل على كلّ حجر على حـدّة، ثـمّ يقوم بوضـع الحجـارة جانب بعضهـا البعض وفـوق بعضها بعـض، ليبني مدمـاكاً، أو يقيـم سـوراً تـراه العـين عـن بعـد، الأمـر الّذي سـيحملني على القيـام بإطـلالات منفصلـة- لأوّل وهلـة- عـن بعضهـا بعضـاً، إلّا أنّها مترابطة في سّـياق واحـد على نحـو مـا سـوف يتضـح في نهاية هـذا الكتاب.

ولعـلّ أوّل محطّـة فارقـة على هـذا الصّعيـد قد تمثّلـت فيما أسـميته (مفارقة العـزاء الـسّرّيّ)؛ أيّ تلـك الواقعة الّـتي قمنا فيهـا - بصحبـة الأخ أبي عمّار والأخ أبـو مـازن- بزيـارة سّرّيّـة إلى بيـت عـزاء عائلـة إسـحق رابـين الّذي أغتيـل عام ١٩٩٥على يـد متطـرّف يهوديّ، حيث جلسـنا في صالـون الاسـتقبال المتواضع، تحدّق بنـا عيون المسـتقبلين مـن كلّ جانب، ثـمّ انتقل حوارنـا من طور مجامـلات العزاء والمواسـاة إلى آفـاق حديـث ذي شـجون، توّلـت خـلاله الأرملـة المفجوعـة زمـام الـكلام المتّصـل بواقعـة الاغتيال. فكانت السّـيّدة ليئـة رابين كمن اجتـازت المحنة الشّـخصيّة برباطـة جأش، وراحـت تقصف اليمـين الإسرائيليّ المتطـرّف بوابل من نـار سياسـيّة حاميـة الوطيـس. حيـث قالـت في خضـم تلـك المعركـة السّياسـيّة:» إنّهـا تجـد لغة مشـتركة مـع العـرب والفلسـطينيين أكثر ممّـا تجدها مـع المتطرّفين اليهـود»، وهـو قـول لم يجـرِ على لسـان آي إسرائيليّ مسـؤول.

ولعـلّ مـا أودّ أنّ أذكـره مـن وقائع تلـك الزّيارة النّـادرة ما قالته السّـيدة ليئه رابـين لنـا، حيـث التفتـت نحـوي موجهـة كلامهـا إليّ:» لديّ مـا أودّ أن أقـوله لـك شـخصياً أنـت يـا أبو عـلاء: أنا التقيتـك الآن لأوّل مـرّة في حيـاتي، وأودّ أن أخبرك عـن واقعـة أنـت لا تعرفهـا، وهي مهمّة بالنّسـبة إليك»، ثـمّ أكملت السّـيدة رابين

حديثها بصوت متهدّج:» أنت تعلم أنّ إسحق لم يكن مطّلعاً على مفاوضات أوسلو عندما بدأت أوّل الأمر، وعندما بُلّغ بها من جانب شمعون بيريس ويوسي بيلين صدم لعدم معرفته المسبقة بتلك المفاوضات السّرّيّة، ودُهش تماماً إزاء المسألة كلّها».

ثمّ تابعت السّيّدة رابين حديثها المفاجئ وسط صمت مطّبق من الحاضرين، قائلة:» إنّ إسحق حين قوبل بالتّصميم من جانب شمعون، واطّلع على محاضر اللّقاءات الأولى، ومسودّات المشاريع المقدمة آنذاك، وقرأ التّقارير والملخّصات عنها، قال لهما:» أمهلوني مدّة أسبوع كي أقنع نفسي أوّلاً بهذه المسألة، وذلك كي أتمكّن من إقناع شعبي بعد ذلك»، ثمّ أضافت ليئه رابين: بعدها أعطى إسحق رابين لشمعون بيريس تفويضاً باستمرار تلك المفاوضات، وظلّ يتابعها أوّلاً بأوّل بأدّق التّفاصيل، ثمّ تبنّى نتائجها، ودافع عنها بصلابة إلى أن قُتل على يد المتطرّف اليهوديّ يغال عامير المدعوم من جانب اليمين الإسرائيلي المتطرّف والمغامر.

بعد واقعة الاغتيال تلك الّتي تمّ وصفها كزلزال سياسيّ ضرب الحياة السّياسيّة الإسرائيليّة، تولى شمعون بيريس مقاليد الحكم في الدّولة العبريّة. وكان بيريس شريك إسحق رابين في صنع اتّفاق السّلام، وكان الرّجل الّذي ورث من رفيق دربه شخصيّة سياسيّة من طراز رفيع، وصاحب مسار طويل، تحوّل فيه من صقر إلى حمامة ذات رؤيّة تصالحيّة. وكان أيضاً صاحب حلم قديم بإنهاء الصّراع مع الفلسطينيين، وكانت لديّة كذلك رؤيّة استشرافيّة مبالغ في تفاؤلها، خصوصاً عندما بشرّ بشرق أوسط جديد مزدهر» وهكذا استقرّ في وعي بيريس أنّ تكلفة الاحتلال باتت أكثر من قدرة إسرائيل على تحملها.

في عهد شمعون بيريس الّذي انتهى في وقت أقصر ممّا كان مقدراً له بفعل سلسّلة العمليّات الانتحاريّة الّتي قامت بها حركة حماس بكثافة شديدة خلال شهريّ شباط وآذار عام ١٩٩٦، تحقّق الكثير من بنود الاتّفاق، وتحوّل إلى وقائع ملموسة على الأرض، كان من أهمّها الانسحاب من المدن والبلدات والقرى في الضّفّة الغربيّة باستثناء الخليل، وكذلك إجراء أوّل انتخابات رئاسيّة وتشريعيّة فلسطينيّة في الضّفّة الغربيّة والقدس وغزّة. كما تمّ في غضون فترة بيريس القصيرة الشّروع عمليّاً في رقابة التّوسّع الاستيطانيّ دون أن يتمّ الإعلان عن ذلك رسميّاً.

ومعلوم أنّه ما أن انتهينا من مفاوضات أوسلو بما في ذلك مفاوضات الاعتراف المتبادل والاتّفاق الاقتصاديّ (اتّفاق باريس) حتّى بدأنا جولات جديدة لتنفيذ اتّفاق غزّة-أريحا أوّلاً، تلي ذلك مفاوضات الاتّفاق الانتقاليّ المرحليّ، والّذي استغرق التّوصّل إليه مدّة عام كامل، تخلّلها مساومات شاقّة، وحلول عسيرة، ورافقها تدّخلات إقليميّة ودوليّة كثيرة، ناهيك عن الضّغوط والضغوط المتبادلة، إلى أن إنتهى كلّ ذلك في أواخر أيلول١٩٩٥ باحتفال آخر في البيت الأبيض يشبه ذلك الاحتفال الّذي جرى قبل عامين في المقرّ الرّئاسيّ الأمريكيّ ذاته.

وما إن تمّ توقيع الاتّفاق المرحليّ حتى دخلنا دورة تفاوض جديدة؛ لتنفيذ بنود ما تمّ الالتزام به ضمن نصوص ذلك الاتّفاق الواقع في أكثر من(٤٦٠) صفحة، فضلاً عن تنفيذ ما جرى التّعهد بتنفيذ ما لم يتمّ تنفيذه من بنود الاتّفاق الانتقاليّ، وذلك بحسب نصّ رسالة الضّمانات الأمريكيّة الّتي وقعها وزير الخارجيّة وارن كريستوفر، ووجهها إلى الطّرفين؛ الفلسطينيّ والإسرائيليّ

في حينه، باسم حكومة الولايات المتّحدة الضّامنة لتنفيذ سائر بنود الاتّفاق والملاحق والخرائط والتّعهدات.

ويذكر أنّ كريستوفر وصف الاتّفاق الانتقاليّ بأنّه أكثر الاتّفاقات تعقيداً في تاريخ الدّبلوماسيّة العالميّة نظراً لما اشتمل عليه من خطوط متداخلة وتفاصيل متشابكة؛ لتنّظيم الحياة وحفظ الأمن والاستقرار، لا على أساس المناطق الجغرافيّة فحسب، وإنما على مستوى كلّ مدينة وقرية ومستوطنة مجاورة، ناهيك عن تفاوت صلاحيّات السّلطة الفلسطينيّة في ثلاث مناطق مختلفة (أ، و ب، و ج).

كانت الحقائق السّياسيّة الّتي أفرزتها اتّفاق أوسلو تتراكم على الأرض، وقد زادت وتيرتها في عهد شمعون بيريس القصير، إلّا أنّها بقيت تمثّل في مجموعها نقطة تحوّل عظيمة الشأن في مسار حركة فلسطينيّة أقامت وجودها - حتّى الأمس القريب- فوق بساط الرّيح، وبين تخوم التّعارضات العربيّة، حيث بات لهذه الحركة الوطنيّة الّتي تحوّلت إلى سلطة وطنيّة مؤسّسات منتخبة على أساس التّمثيل النّسبيّ، وبالاقتراع الحرّ المباشر وفق مفهوم الدّيمقراطيّات الغربيّة، الأمر الّذي سجّلت معه أرفع أشكال التّعبير عن الهويّة الفلسطينيّة المستقلة، وهي القوّة المحركة لقاطرة تحقيق فكرة أصيلة وجامعة، ألا وهي إقامة الدّولة الفلسطينيّة.

وفعلاً فقد كانت الفترة القصيرة من عهد شمعون بيريس مرحلة بناء المداميك الأولى والتّحتيّة، لا لإقامة واستكمال بنية السّلطة الوطنيّة فحسب، بل وأيضاً لتأسيس الدّولة الفلسطينيّة الّتي تعدّ الخاتمة النهائيّة لهذا المسار المتدّرج الطّويل، خصوصاً لدى بيريس الّذي خاطب أعضاء الكنيست، متسائلاً،

لدى المصادقة على اتّفاق أوسلو بقوله:» ما الّذي لنا في غزّة؟ لقد حان وقت لا لتغيير الحكومات وإنّما لتغيير السّياسات. وهل يمكن لشعب أن يكون شرطيّاً لشعب آخر؟ ما المنطق في الأمر». وقال بيريس في كتابة (الشّرق الأوسط الجديد) ما نصّه:» إنّ الحرب عقيمة، وأن لا ضمان للنّصر الكلّيّ، لا ميزان القوى بين الأطراف المتحاربة، ولا ميزان القوّة بين القوى الدّوليّة».

لم تكن صورة الواقع ورديّة كما بدا عليه الحال في الوهلة الأوّلى، فقد شاب عهد بيريس التّردّد والمراوحة، وظلّ الجدل والنّزاع والتّسويف والمماطلة تطبع العلاقات الفلسطينيّة الإسرائيليّة، حيث عادت إسرائيل إلى سجيتها الأوّلى تراوغ في تنفيذ الاتّفاقيات، وتتعمد إهانة الفلسطينيين مع كلّ شبر انسحاب، وإذلالهم على الحواجز العسكريّة وفوق ذلك لم تتوقّف الأنشطة الإستيطانيّة، ولم تفرج عن الأسرى والأسيرات وفق ما تمّ الاتّفاق عليه، ولم تعمل على تحسين الأوضاع الاقتصاديّة الفلسطينيّة الّتي ازّدادت تدهوراً، بل وتحرّشت بالحركة الإسلاميّة، ورافقتها مذبحة قانا في جنوب لبنان، فذهب بيريس إلى الانتخابات المبكرة، ليخسرها أمام بنيامين نتنياهو.

ومع ذلك فقد أسفنا لخسارة شمعون بيريس، وشجعنا إخوتنا في داخل الخط الأخضر على التّصويت لمصحلة بقاء نافذة الفرص المفتوحة، وعملنا كلّ ما نستطيع لمنع وصول نتنياهو إلى سدّة الحكم، إلّا أنّ ذلك لم يحلّ دون تحقّق أشدّ المخاوف الفلسطينيّة، وهو أن يصبح أعدى أعداء عمليّة السّلام متربّعاً على الجبهة المناظرة لنا حوّل طاولة المفاوضات.

والحقّ إنّ وقع خسارة بيريس كان وقعاً شديد الوطأة على الجانب الفلسطينيّ، وأسفنا على تسليم بيريس دفّة السّفينة لشّخصيّة سياسيّة انتجتها

الدّيماغوجيّة وشاشات التّلفزة، وبالتّالي فقد أصبحت مقاليد عمليّة السّلام بين يدي أشدّ الإسرائيليين تطرّفاً وعناداً وعنجهيّة.

على أيّ حال، فقد كان انسحاب الاحتلال من المدن الفلسطينيّة، ودخول نحو ٩٠٪ من فلسطينيّ الضّفّة الغربيّة في نطاق إدارة السّلطة الوطنيّة واحداً من أهمّ الإنجازات التّاريخيّة للشّعب الفلسطينيّ. فقد كان وصول السّلطة إلى المدن والأرياف بمثابة تجسيد عمليّ لمفهوم السّلطة ذاته، والّتي أصبحت - والحالة هذه - سلطة تختلف عمّا كانت عليه في مرحلة « غزّة - أريحا» حين كانت نواة محاصرة، تتعثّر وسط الحطام، وتتجشّم الصّبر، وتتلقّى اللّوم من كلّ حدب في انتظار عبور عنق الزّجاجة الّذي كان مسدوداً باتّجاه الضّفّة الغربيّة.

وبفعل هذه المتغيّرات تغيّر واقع السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة الّتي أخذت تكتسب مع مرور مزيد من الوقت قدراً متعاظماً من المشروعيّة الوطنيّة والسّياسيّة، وأهليّة متزايدة، وصدقيّة أعلى ممّا كانت عليه في المرحلة المبكرة. وبذلك كلّه فقد بدا الأمر كأنّ فجراً جديداً يلوح في الأفق القريب، وأنّ الفلسطينيين يتهيأون لاستقبال صباح الحرّيّة في زمن غير بعيد، حيث بدت المدن المحرّرة في الضّفّة الغربيّة وكأنّها حبات عقدّ من اللآلئ الثّمينة، يتدلّى من جيد امرأة فلسطينيّة فارعة الطّول، جلست في صبيحة نهارها تسوّي أمام المرآة إطلالتها الصّباحيّة المبكرة قبل أن تبدأ برنامجها اليوميّ، سواء أكانت ربّة بيت، أم كانت امرأة عاملة تجري وراء تحسين ظروفها المعيشيّة.

وإذا كانت الانسحابات الإسرائيليّة من المدن الفلسطينيّة في الضّفّة الغربيّة من بين أوّل المكتسبات المتحقّقة بفعل اتّفاق أوسلو، فقد كانت الانتخابات الرّئاسيّة والتّشريعيّة ثاني أهمّ هذه المنجزات، سيّما وأنّ هذه الانتخابات الّتي

وقعت في مطّلع العام ١٩٩٦ أتت أقرب ما تكون إلى الرّؤيّة الفلسطينيّة، سواء أكان ذلك من ناحية الصّلاحيّات الشّرعيّة، أو من ناحية عدد أعضاء المجلس التّشريعيّ، أو مشاركة مواطني القدس في التّرشيح والانتخاب، وهو ما شكّل أرضيّة صلبة لإقامة نظام حكم ديمقراطيّ فلسطينيّ برلمانيّ تعدّديّ، ليس فقط خلال المرحلة الانتقاليّة، وإنّما إلى ما بعد ذلك.

ولعلّ من الموضوعيّ القول: إنّ إجراء انتخابات عامّة، وقيام أوّل مجلس تشريعيّ فلسطينيّ منتخب، يرقيان إلى مستوى الإنجازات التّاريخيّة المهمّة في مسيرة التّطور الكياني الفلسطينيّ، كما أنّ عمل هذا المجلس أدّى إلى قلب نظام كامل من المفاهيم الفلسطينيّة السّائدة، والتّقليديّة في الحياة السّياسيّة الفلسطينيّة، بما في ذلك مفاهيم الزّعامة والقيادة والشّرعيّة، والمعارضة والمشاركة والمساءلة والشّفافيّة والتّعدّديّة، وغير ذلك من مصطلحات ظلّت لعشرات السنين ملتبسة لدى المجتمع الفلسطينيّ طوال مرحلة المقاومة المسلحة والتّحرّر الوطنيّ، إذ كانت هذه المفاهيم قد استقرّت في الذّهنيّة العامّة على نحو لا يتوافق وروح العصر وقيمه الأساسيّة، خصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة، والخلاص من النّظم الشّموليّة في معظم أنحاء الكرة الأرضيّة.

في الطّريق الطّويل لانعقاد مؤتمر كامب ديفيد، وقعت أحداث كثيرة، وجرت تطورات لا حصر لها سوف نشير إليها بالقدر الّذي يخدم الرّوايّة الفلسطينيّة لعملية المفاوضات العسيرة. ففي عام ١٩٩٦ ربح بنيامين نتنياهو الانتخابات الإسرائيليّة، وتولّى بذلك أعدى أعداء عمليّة السّلام مقاليد الحكم في الدّولة العبريّة، الأمر الّذي قطع المسار الهشّ لهذه العمليّة الّتي عادت إلى الوراء بصورة فوريّة. وأودّ هنا أنّ أعيد إلى الأذهان خطاب زعيم المعارضة الإسرائيليّة لدى مناقشة اتّفاق أوسلو

في الكينيست عام ١٩٩٣ لما انطوى عليه ذلك الخطاب من رؤية ظلّت مستحكمة في سياسة نتنياهو طوال فترة توليه الحكم.

فقد خاطب نتنياهو إسحق رابين قائلاً: «ليس فقط أن الحكومة الإسرائيليّة قدّمت في مقدمة اتّفاق أوسلو وعداً إقامة دولة فلسطينيّة من خلال تلك الصيغة، بل إنّها قدّمت في مضمون الاتّفاق نفسه هيكل هذه الدّولة. فالدّولة مركّبة، وكلّ حكومة مركّبة من ثلاثة أذرع (القضائيّ والتّنفيذيّ والتّشريعيّ) وهي المظهر الأبرز للسّيادة (...) عندما تُسلّم أحداً ما الأرض، وصلاحيات التّشريع على الأرض وأنا أضيف توجد صلاحيات أمن داخل الاتّفاق، داخل المنطقة، فإنّك تُنشئ له مبنى الدّولة(...) وعندما نقرأ هذا الاتّفاق، حتى ولو لم يكن مكتوباً فيه دولة فلسطينيّة بصراحة، فإنّ ذلك لا يحتاج إلى لافتة... هذه دولة فلسطينيّة، وهنري كيسنغر يقول هذه دولة. إنّ المحلّلين السياسيين الكبار في العالم قرأوا الاتّفاق، وهم يقولون إنّ هذه دولة فلسطينيّة».

ولا داعي لاسّتذكار تلك الفترة الممّتدة لنحو ثلاث سنوات من عمر عمليّة السّلام في عهد نتنياهو، والّتي كانت بمثابة كابوس نهاري ثقيل، ليس بالنّسبة للفلسطينيين فقط، وإنّما أيضاً بالنّسبة لكثير من الأوساط الإسرائيليّة، ناهيك عن الإطراف العربيّة والدّوليّة بما في ذلك الولايات المتّحدة الّتي دخلت في حالة من المجابهة الخفيّة مع سياسات نتنياهو، بلغت ذروتها في مؤتمر واي بلانتيشن. والحقّ إنّ ثلاث سنوات من عهد الحكومة الليكوديّة خلّفت الكثير من الأحداث والوقائع الّتي اثقلت على سائر الأطراف المعنيّة، بما في ذلك الأحداث الدّاميّة الّتي اعقبت فتح النفق تحت المسجد الأقصى، وهو ما أدّى في نهايّة المطاف إلى خسارة نتنياهو للانتخابات اللاّحقة.

وفي وقت لاحق من صيف عام ١٩٩٨ تمكّنت الدّبلوماسيّة الأمريكيّة من عقدّ اجتماع ثلاثيّ على مستوى القمّة في منتجع واي ريفر (كلينتون، وعرفات، ونتنياهو). وكان قد حدث لقاء قمّة ثلاثيّ في حاجز ايرتس على مدخل قطاع غزّة، حضره كلنتون وعرفات ونتنياهو أيضاً. وكان هذا اللّقاء تمهيداً لانعقاد المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ على خلفيّة تعديل تلك البنود الّتي تدعو إلى تدمير إسرائيل، ذلك اللّقاء الّذي تبعه خطاب للرّئيس بيل كلينتون أمام المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ بعد أن هبطت طائرة الرّئيس الأمريكيّ في مطار غزّة الدّوليّ وسط استقبال رسميّ، وعزف للنّشيدين الوطنيين: الأمريكيّ والفلسطينيّ، واستعراض لحرس الشّرف، وأداء التّحيّة للعلم الفلسطينيّ.

وفي الطّريق إلى كامب ديفيد أودّ التّوقف قليلا عند (محطّة واي ريفر) الواقعة في عام ١٩٩٨، أي بعد نحو عامين من تولي نتنياهو دفّة السّفينة الإسرائيليّة، إذ بجرّدة حساب مختصرة لوقائع هذين العامين نجد أنّ رئيس الحكومة الإسرائيليّة الجديد قام في ١٩٩٦/٨/١ - بعد فترة قصيرة من تولّيه الحكم- برفع التّجميد الجزئيّ للاستيطان القائم منذ عهد حكومة إسحق رابين سنة ١٩٩٢، وفي ٢٤/ ٩ من ذلك العام قام بفتح نفق تحت أساسات المسجد الأقصى، الأمر الّذي أدّى إلى حدوث مواجهات وقع ضحيّتها أكثر من ٨٠ شخصاً. وفي ٨/ ٣/ ١٩٩٧ بدأت حكومة نتنياهو بإقامة مستوطنة جبل أبو غنيم، وفي ٣٠/ ٨ من العام نفسه رفضت إسرائيل المضيّ في إعادة نشر قواتها في الضّفّة الغربيّة كما كان مقرّرا من قبل (١٣٪ من مساحة الضّفّة الغربيّة).

على خلفيّة هذا المشهد قامت الولايات المتّحدة بجهود دبلوماسيّة حثيثة أدّت في نهاية مسار عسير إلى عقد مفاوضات ماراثونيّة في أميركا يوم ١٥/ ١٠/

١٩٩٨؛ فاتحة بذلك الطّريق أمام انعقاد قمّة واي بلانتيشن الّتي أسفرت عن اتّفاق يوم ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٨، والّذي سمّي بمذكّرة واي ريفر، حيث تضمّنت إجراءات لتسهيل تطبيق الاتّفاق الانتقاليّ خلال مدّة اثني عشر أسبوعا، وهو ما يعني تنفيذ استحقاق الانسحابين الأوّل والثّاني المنصوص عليهما في اتّفاق الخليل، وكذلك فتح الممرّ الآمن بين الضّفة الغربيّة وقطاع غزّة، وتشغيل المطار الدّوليّ في غزّة، وإطلاق سراح المعتقلين، وإقامة المناطق الصّناعيّة، ومصير المرحلة الثّالثة من عمليّة إعادة الانتشار المستحقّة، ووقف الإجراءات أحاديّة الجانب، وغير ذلك من الخطوات الأخرى.

إلّا أنّه بعد توقيع ما عرف لاحقا باسم (اتّفاق واي ريفر) من جانب كلّ من نتنياهو وكلينتون والأخ أبي عمّار، عاد رئيس الحكومة اللّيكوديّة إلى سجيّته الأولى بعد أن عاد من تلك القمّة، حيث لم يتمّ تنفيذ سوى النّبضة الأولى من الانسحاب المقرّر، ومع ذلك فقد انطوى هذا الاتّفاق على تغيير- ولو مؤقت- في نهج نتنياهو الّذي كان قد تعهّد بعدم تسليم ((قلب الوطن اليهوديّ)) لأعداء إسرائيل، حيث تنازل ثمّ انسحب من بعض هذه الأرض. كما أدّى الاتّفاق إلى زيادة انخراط الولايات المتّحدة أكثر من ذي قبل في عمليّة السّلام المتعثّرة، وإلى توسّع ونموّ في مستوى العلاقات الفلسطينيّة- الأميركيّة حيث كان الرّئيس ياسر عرفات أكثر الزّعماء تردّدا على البيت الأبيض.

والحقّ إنّ رئيس الحكومة اليمينيّة الإسرائيليّة كان يقود وفدا مفكّكا في واي بلانتيشن، حيث هدّد ثلاث مرّات بالانسحاب من المفاوضات فيما كان موظفو البروتوكول يأتون إليه في كلّ مرّة قائلين: «إنّ ترتيبات مغادرتك جاهزة»، الأمر الّذي كان يدفعه إلى التّراجع إدراكا منه لحقيقة أنّ واشنطن ستحمّله وزر

فشل المفاوضات، وهو أمر لا يستطيع نتنياهو المحاصر في الدّاخل والخارج أن يتحمّل تبعاته السّياسيّة، ولا يكسبه ذلك تأييد غلاة المتطرّفين الّذين انفضّوا من حوله بعد توقيعه اتّفاق واي ريفر جرّاء ما وصفوه بأنّه تفريط وخيانة وسابقة خطيرة من جانب الليكود، وهو أمر أدّى في نهاية مطاف قصير إلى إسقاط نتنياهو عن زعامة اللّيكود ورئاسة الحكومة.

ومن بين أبرز تلك الوقائع السّابقة على قمّة كامب ديفيد كانت واقعة زيارة الرّئيس الأميركي بيل كلينتون لأراضي السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. وبقدر ما كانت هذه الزّيارة مبعث سعادة غامرة لنا، وإشارة نجاح واضحة للقيادة الفلسطينيّة بقدر ما كانت باعثة على الغضب والقلق لدى معظم الأوساط الإسرائيليّة الّتي رأت في قيام كلينتون بهذه الزّيارة كعلامة قويّة على اعتراف رئيس أميركي بالكيان الفلسطينيّ الوليد، إن لم نقل دولة في طور التّكوين. كما رأى هؤلاء في خطاب الرّئيس الأميركيّ أمام المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ المنعقد في غزّة - أي في وسط سكّان لاجئين- بمثابة تحوّل سياسيّ استثنائي ولافت في مجرى العلاقات الفلسطينيّة- الأميركيّة.

منذ قمّة واي بلانتيشن بدأ الحليف الاستراتيجيّ لإسرائيل يقوم بدور الحكم في شتّى جوانب الصّراع القائم، وأخذ يمارس الضّغوط العلنيّة على إسرائيل، ويصدر الأحكام، ولا يتورّع عن تعريف المتّهم بالتّقصير وتسميته باسمه الحقيقيّ، كما أنّ البيت الأبيض أخذ منذ ذلك الوقت يصغي إلى الرّواية الفلسطينيّة، وتبعه في ذلك الكونغرس والإعلام الاميركيّ، الأمر الّذي زاد من غضب حكومة اللّيكود الّتي بدأت ترى وتلمس إمكانيّة تحقيق أثمن اعتراف قد يحصل عليه الفلسطينيون من جانب الدّولة العظمى الوحيدة الّتي ظلّت

طـوال العقـود الزّمنيّـة الماضيّة تعطـي تأييدا مطلقـا لإسرائيل، وتمنحها شـيكًا على بيـاض مـن رصيـد دولة رصيدهـا لا ينفـذ، وقوّتهـا لا تجـارى، ونفوذهـا الكونيّ لا يحـدّه حدّ.

على أيّ حـال فقـد كانـت زيـارة الرّئيـس بيـل كلينتون لـكلّ من قطـاع غزّة وبيـت لحـم، وحضـوره اجتمـاعا لأعضـاء المجلـس الوطـنيّ الموجوديـن، وعـدد من الفعاليّـات الفلسـطينيّة يـوم ١٣/ ١٢/ ١٩٩٨ حدثـاً تاريخيّاً كبيراً في حـدّ ذاته، غطّت وقائعـه الباهـرة على مضمـون ذلـك الاجتمـاع الّذي أعاد فيـه المجلـس الوطـنيّ تكـرار نـصّ القـرار الّذي صـدر عنـه في ٢٣/ ٤/ ١٩٩٦، والمتعلّـق بتعديـل بعـض بنـود الميثـاق تلك الّـتي عفا عليهـا الزّمـن، وتجاوزتها التّطـوّرات الهائلـة، كما كان الإعـداد الجيّـد والتّرتيبـات اللّائقـة لهـذه الزّيـارة الرّئاسـيّة- حيث لم يحـدث أيّ خطـأ- باعثـا على الشّـعور الفلسـطينيّ بالجدارة والاسـتحقاق.

على أيّ حـال فقـد كانـت تلـك الوقائـع بمـا فيهـا واقعـة واي ريفـر وما نجم عنهـا مـن اتّفـاق لـم ينفذ، آخـر محطّـة تفاوضيّـة في زمن حكومـة نتنياهـو الأولى، بـل إنّ ذلـك الاتّفـاق، كمـا اتضـح فيما بعـد، كان مسـمارا كبيرا في نعـش حكومة اللّيكـود، حـين اضطـرّ نتنياهو إلى الإعـلان عن تقديـم موعد الانتخابـات العامّة.

لاح في الأفـق السّـياسيّ الاسرائيلي نجم جديد اسـمه إيهود باراك الّذي سـيعود بعـد فـترة إلى رئاسـة حـزب العمـل، ومـن ثمّة رئاسـة الـوزراء، ممّـا يعـني إمكانيّة تجديـد الشّراكـة مـع الحـزب الّذي قـاد التّحـوّل الدّاخـليّ في إسرائيـل، ووقعنا معه اتّفـاق أوسـلو، ولم نختلف معه بشـأن مبـدأ إقامة الدّولـة الفلسـطينيّة إلّا في نطاق الحـدود الجغرافيّـة ونطـاق الصّلاحيّـات الّـتي ما زالـت موضع البحـث والتّفاوض.

عندما تولّى إيهود باراك دفّة السّفينة الإسرائيليّة من سابقه بنيامين نتنياهو، كانت عمليّة السّلام على المسار الفلسطينيّ أشبه ما تكون بشمعة في طور احتراقها الأخير، تقاوم بضوئها الخافت هبوب رياح جافّة تهبّ عليها من كلّ الاتّجاهات. فبعد نحو أوّل عامين من تطبيق اتّفاق أوسلو بين طرفين كان كلّ منهما ينكر الآخر، وبعد كلّ التّطوّرات الإيجابيّة المتفرّقة في ذلك الوقت، فقد جاء عهد نتنياهو عهدا حافلا بالصّعوبات والتّعثّرات. وفي ختام أوّل خمس سنوات من عمر عمليّة السّلام- أي قبل مجيء باراك- كان المجتمع الإسرائيليّ قد انجرف أكثر نحو اليمين والتّطرّف، واشتدّت لديه مشاعر التّعصب والكراهيّة، الأمر الّذي زاد من الرّهان على القادم الجديد إلى سدّة الحكم الإسرائيليّ.

لقد كان اتّفاق أوسلو غداة مجيء إيهود باراك وكأنّه مخلوق سياسيّ شوهته مصاعب الولادة القيصريّة الشّاقة، ومع ذلك ورغم موجات اليأس والإحباط الّتي عصفت بنا، فقد ظلّ اتّفاق أوسلو إنجازاً نادراً في تاريخ الصّراع المديد، أعطى أرضا حقيقيّة يقيم على أديمها نحو ثلاثة ملايين فلسطينيّ، يبنون هياكل أوّل كيان سياسيّ لهم، كما أعطى أيضا أرضا سياسيّة لإدامة الكفاح الوطنيّ بكلّ أشكاله المتاحة ضدّ الاحتلال والمصادرة والتّهويد والنّفي، الأمر الّذي جعلنا ننظر إلى فوز باراك على أنّه انقلاب سياسيّ ضدّ ذلك الانقلاب الّذي كان يرمز إليه نتنياهو، وجعلنا كذلك نكتشف هشاشة منطق القوّة الّذي حاول زعيم حزب اللّيكود فرضها على شعب صغير مصمّم على التّمسّك بحقوقه الوطنيّة، وفي مقدّمتها حقّه في تقرير المصير.

غير أنّ إيهود باراك عندما تربّع على رأس ائتلاف حكوميّ في ربيع سنة ١٩٩٩، بدا كمن أخذ يتنكّر لنفسه، ويبدّد كلّ الانطباعات والاستنتاجات الأوّليّة

الّتي تشكّلت حوله، إذ استهلّ حكمه بعدد من اللّاءات الأوّليّة والخطوط الحمراء مثل لاعودة لحدود الرابع من حزيران، ولا لتقسيم القدس، ولا لإزالة المستوطنات، ولا عودة للآجئين، ثمّ عمد بعد ذلك إلى تأجيل استحقاقات المرحلة الانتقاليّة. وبهذه التّكتيكات نجح باراك في الحصول على اتّفاق جديد خلال قمّة شرم الشّيخ بحضور كلّ من الرّئيس كلينتون، والرّئيس حسني مبارك، والملك عبد الله الثّانيّ، والرّئيس ياسر عرفات، حيث تمّ الاتّفاق على تمديد المرحلة الانتقاليّة سنة كاملة تنتهي في ٤/ ٩/ ٢٠٠٠ على أن تنتهي مفاوضات الوضع الدّائم قبل هذا التّاريخ، وأن يتمّ الإفراج عن الأسرى المعتقلين قبل توقيع اتّفاق أوسلو.

واستناداً إلى اتّفاق شرم الشّيخ انطلقت مفاوضات الوضع الدّائم بعد انقطاع دام ثلاث سنوات على شكل جولات تعقد بالتّناوب بين الأراضي الفلسطينيّة وإسرائيل للبحث في سبل تنفيذ استحقاقات المرحلة الانتقاليّة، حيث انعقدت ٢١ جولة كانت حصيلتها صفراً. كما بدا لنا في ذلك الوقت أنّ لدى باراك اهتمامات أخرى بعيدا عن استكمال عمليّة السّلام معنا خصوصا بعد أن نجحت الجهود الأميركيّة في عقد لقاء بين رئيس الحكومة الإسرائيليّ وزير الخارجيّة السّوري فاروق الشّرع بحضور الرّئيس بيل كلينتون في إحدى المنتجعات قرب واشنطن، ثمّ تلا ذلك عقد لقاء قمّة بين الرّئيس السّوري حافظ الأسد وبين الرّئيس الأميركيّ كلينتون في ربيع ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٠.

في مقابل ذلك كلّه كان الوضع على الجانب الفلسطينيّ أقرب ما يكون إلى هالة سوداء، حيث تباينت وجهات النّظر داخل القيادة العليا حيال السّياسة الّتي يجب اتّباعها في مواجهة طروحات باراك؛ إذ اختلطت الآمال الفلسطينيّة

بالشّكوك، وبدت الاحتمالات مفتوحة على جبهات غامضة وغير مؤكّدة، بل إنّ تنافساً صامتاً ظهر بين أعضاء القيادة في شأن من يتولّى إجراء الاتّصالات وفتح باب المفاوضات مع حكومة باراك، فقد كان الرّئيس ياسر عرفات يأخذ موضع من يترك الباب مفتوحاً أمام كلّ التّفاعلات، ويمسك العصا من منتصفها، ويتجنّب حسم الموقف على هذا النّحو أو ذاك.

في غضون تلك الفترة لبّيتُ يوم ٢٦/ ٧/ ١٩٩٩ دعوة رسميّة (بصفتي رئيس المجلس التّشريعيّ الفلسطينيّ) وجّهها إليّ أبراهام بورغ رئيس الكنيست، فكانت تلك الزّيارة واحدة من العلامات الفارقة في المجرى الواعد لعلاقاتٍ فلسطينيّة إسرائيليّة كانت تبشّر على استحياء بعودة الوضع إلى ما كان عليه في أوّل بدء تطبيق اتّفاق أوسلو، كما اعتبرت هذه الدّعوة بمثابة اعتراف إسرائيليّ بالمؤسّسة التّشريعيّة الفلسطينيّة. وعلى الرّغم من أنّ هذه الزّيارة جوبهت باعتراض من اليمين الإسرائيليّ الّذي اعتصم بعض أعضائه أمام الكنيست وفي داخله، كان هناك ترحيب من أبراهام بورغ والنّواب العرب وبعض من نواب أحزاب اليسار الإسرئيليّ الّذين خرجوا إلى البوابة الخارجيّة لمبنى الكنيست للتّرحيب بالضّيف الفلسطينيّ وسط حشد إعلاميّ كبير من مختلف وسائل الإعلام الفلسطينيّة والإسرائيليّة، فضلا عن مندوبي الصّحف ووسائل الإعلام الأجنبيّة.

وأودّ هنا أن أستذكر في الطّريق إلى كامب ديفيد سلسلة طويلة من اللّقاءات والاجتماعات الّتي انعقدت في كلّ من حاجز إيرتس ومنتجع شرم الشّيخ خلال الفترة القصيرة الواقعة بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠. فقد وقع أوّل لقاء قمّة بين الرّئيس ياسر عرفات وإيهود باراك في إيرتس يوم ١١/ ٧/ ١٩٩٩، ثمّ عاد باراك للاجتماع

مـع الرّئيـس عرفـات في حاجـز إيرتس نفسـه يـوم ٢٧/ ٧ من ذلـك العـام. وفي يوم ٤/ ٩/ ١٩٩٩ تـمّ توقيـع أوّل اتّفـاق في شرم الشّـيخ، ثـمّ كان اللّقـاء التّـالي في رام الله بـين ايهـود بـاراك وياسر عرفـات يـوم ١٢/ ١٢/ ١٩٩٩ في مـنزل الأخ أبي مـازن، تبعه لقـاء آخـر في شرم الشّـيخ يـوم ١٣/ ٢ وفي ٨/ ٥ مـن ذلـك العام عقد اجتمـاع مماثل في رام الله.

لقـد كانـت كلّ هـذه اللّقـاءات محكـوم عليهـا سـلفاً بالفشـل، ليـس فقـط جـرّاء تباعـد المواقـف بـين الجانبـين إزاء مختلـف القضايـا المطروحة، وإنّمـا جرّاء اعتمـاد باراك اسـتراتيجيّة تفاوضيّة تقوم على أسـاس أنّ الانسـحاب المقرّر بموجب الاتّفـاق الانتقـاليّ مشروطـة بإحـراز تقـدّم باتّجاه اتّفـاق بعيد المدى حـول القضايا الجوهريّـة المدرجـة على جـدول أعمـال مفاوضـات الوضـع الدّائـم، مثـل القـدس واللّآجئـين وغيرهمـا؛ أي أنّ رئيـس الحكومة الإسرائيليّة الجديـد كان يقيم نظريّته التّفاوضيّـة على أسـاس الدّمـج بـين إعادة الانتشـار وموضـوعات التّسـوية الدّائمة، الأمـر الّذي يعـني في واقـع الحال إعادة التّفاوض في شـأن ما سـبق التّفاوض بشـأنه، ومـا جـرى توقيعـه مـن اتّفاقيّـات سـابقة بمـا في ذلـك اتّفـاق واي ريفـر الموقع في عهـد الحكومـة اللّيكوديّة السّـابقة.

في مقابـل هـذه الاسـتراتيجيّة التّفاوضيّـة الإسرائيليّـة، تمسّـك الجانـب الفلسـطينيّ خـلال كلّ اللّقـاءات والاجتمـاعات اللّآحقـة بـضرورة تنفيـذ مذكّـرة واي ريفـر كشرط لتحسـين العلاقـات وإعادة الثّقة بـين الجانبين، بمـا في ذلك نقل مسـاحات مـن أراضي الضّفـة الغربيّـة من تصنيـف (ج) إلى تصنيـف (أ) أو (ب)؛ وذلـك كي يصبـح بالإمكان بدء مفاوضات بشـأن المفهوم الإسرائيـليّ المتعلّق باتّفاقيّة الإطـار المقترحـة، جنبـا إلى جنب مـع وقف الاسـتيطان والطّـرق الالتفافيّـة. ومن

أجل زيادة الضّغط لوّح الجانب الفلسطينيّ بإعلان قيام الدّولة الفلسطينيّة من جانب واحد، ودفع الطّرف الأميركيّ لمزيد من التّدخل الّذي كان يقاومه إيهود باراك، ويعمل على تهميشه.

في غمرة ذلك بدأ التّدخل الأميركيّ على أشدّه، حيث كانت وزيرة الخارجيّة مادلين أولبرايت ومساعدها دنيس روس يتناوبان بصورة منتظمة على زيارة المنطقة لعقد اجتماعات منفصلة مع الإسرائيليين والفلسطينيين، وهو ما أفضى في حينه إلى توقيع مذكّرة شرم الشّيخ في ٤/ ٩/ ١٩٩٩. ولمّا لم تر هذه المذكّرة النّور، عادت أولبرايت لعقد سلسلة أخرى من الاجتماعات مع الأخّ (أبو عمّار).

بدت أولبرايت تمارس ضغطا خفيّا علينا بالتّلويح لنا أنّ باراك يميل إلى المسار السّوريّ فيما تعهّدت لنا بعدم إهمال المسار الفلسطينيّ، كما اقترحت علينا عقد سلسلة أخرى من الاجتماعات المهدة لاجتماع قمّة ثلاثيّ مقترح يعقد في واشنطن، وحدّدت موعداً تقريبيّا لهذا الاجتماع مع بداية عام ٢٠٠٠.

كان يوم ٢/١٣/ ٢٠٠٠ هو الموعد النّهائيّ المقرّر بموجب مذكّرة شرم الشّيخ لتوقيع اتّفاق الإطار المهّد لاتّفاقيّة الحلّ الدّائم، إلّا أنّنا كنّا ندرك سلفا وقبل أن يأزف هذا الموعد بكثير- أنّنا لن نتمكّن من بلوغ هذا الهدف بكلّ ما ينطوي عليه من موضوعات متشابكة خاصّة أنّ حكومة باراك مشوّشة من الدّاخل، وتعمل على أكثر من خطّ تفاوضيّ واحد، الأمر الّذي بدا معه أنّ مزيدا من الوقت سيمضي دون إحراز أيّ تقدّم، مع ما ينطوي عليه ذلك كلّه من تداعيات سلبيّة على وضع يترنّح تحت ضغط الافتقار لعنصر الثّقة، وغير ذلك من العوامل المهدّدة بحدوث انفجار الموقف من أساسه.

في تلك الأثناء نشطت الوساطات مجدّداً ولا سيّما من الجانب المصري الّذي بلور مع الجانب الإسرائيليّ اقتراح حلّ وسط يتمّ بموجبه تمديد فترة التّوصّل إلى اتّفاقيّة الإطار من شباط إلى أيّار ٢٠٠٠، وتأجيل إعادة الانتشار المتّفق عليها إلى ٨/ ٦/ ٢٠٠٠، والتّفاوض بشأن اتّفاق التّسوية الدّائمة حتّى أيلول من ذلك العام، أي إلى موعد إعلان إقامة الدّولة الفلسطينيّة.

وعلى خلفيّة هذا الاقتراح عقد اجتماع قمّة ثنائيّ بين الأخ (أبو عمّار) وإيهود باراك يوم ٣/ ٧/ ٢٠٠٠ في مطار اللّد، ثمّ طارا معا للاجتماع مع الرّئيس المصريّ حسني مبارك لمناقشة اقتراح الحلّ الوسط المصريّ/ الإسرائيليّ، إلّا أنّ كلّ هذه الجهود كانت تصطدم في نهاية المطاف بموقف إسرائيليّ متعنّت إن لم نقل إنّها كانت تدفع بالوضع إلى نقطة قريبة من حافّة الانهيار.

وفي موازاة ذلك، وبعيدا عن الأضواء ... كنت أعقد سلسلة من الاجتماعات مع مسؤولين إسرائيليين بمن فيهم شلومو بن عامي في إطار ما اصطلح على تسميته بالقناة الخلفيّة الّتي تمّ الاتّفاق عليها في قمّة شرم الشّيخ الثّلاثيّة؛ وذلك من أجل الحفاظ على عمليّة السّلام وتنفيذ قضايا الاتّفاق الانتقاليّ، حيث وافقنا على إعادة جدولة استحقاقات المرحلة الوسيطة بما في ذلك مسألة تحرير الأسرى والمعتقلين، وإعادة الانتشار، والقضايا الاقتصاديّة والماليّة. إلّا أنّ حكومة باراك واصلت عمليّة المماطلة والتّهرّب من التنفيذ، وراوغت في التّوصل إلى اتّفاقيّة الإطار، بل وتهرّبت من كلّ ما سبق أن التزمت به من قبل.

غير أنّه خلال هذه الاجتماعات المتواصلة عبر القناة الخلفيّة وافق الجانب الإسرائيليّ على أنّ أساس العمليّة السلميّة هو تنفيذ قراريّ مجلس

الأمـن الدّوليّ ٢٤٢ و ٣٣٨، وأنّ قضايـا القـدس واللّآجئـين والحـدود والأمن وغيرها هي مفتـاح الحـلّ النّهـائيّ، وأن لا تأجيـل لأيّ قضيّـة مـن قضايا الوضـع النّهائيّ على قاعـدة إمّـا الاتّفـاق على كلّ شيء أو لا اتّفـاق على شيء.

كمـا اتّفقنـا أيضـا على أنّ مـا سـيجري هـو انسـحاب لا إعادة انتشـار، وأنّ اتفاقيّـة الإطـار يجب أن تشـمل القضايا المطروحـة كافّة، بحيث تشـمل المبدأ والآليّة والجـدول الزّمـنيّ المتّفـق عليـه لـكلّ قضيّة بحـدّ ذاتهـا، لكنّنـا اختلفنا كثـيرا فيما يخـصّ التّفاصيـل لا سـيّما مـا يتّصـل بقضيّـة اللّآجئـين، حيـث رفـض الجانـب الإسرائيـليّ بشـكلّ قاطع مبـدأ حقّ العـودة، بينما وافـق على مبدأ لمّ الشّـمل بأعداد متّفـق عليها.

ولا يفوتـني هنـا أن أذكـر أنّنـا قـد اختلفنـا في إطـار تلـك الاجتمـاعات حـول قضيّـة الحـدود وقضيّـة القـدس الّـتي كانـت بمثابـة صخـرة تتحطـم عليها كلّ التّوافقـات الممكنـة، وبجملـة قصـيرة فقـد كانـت المواقـف الإسرائيليّـة تدعـو إلى الإحبـاط لاسـيّما وأنّـه كان يرافقهـا سلسـلة مـن الاسـتفزازات مثل الأنشـطة الاسـتيطانيّة وهـدم المنـازل والاعتقـالات، وبالتّالي فقـد كانت نتيجـة مذكّرة شرم الشّـيخ واجتماعاتهـا المكثّفـة أقـرب ما تكـون إلى نقطـة الصّفر من حيـث الوزن والقيمـة، إذ بعـد كلّ الجهـود المضنيّـة قام إيهود بـاراك بالإفراج عـن ثلاثة معتقلين فلسـطينيين فقـط، الأمـر الّذي أثـار حفيظـة الأميركيـين وسـخط الفلسـطينيين، وأعطـى صـورة مصغّـرة عـن نهـج بـاراك التّفـاوضيّ المماثـل لنهـج سـلفة بنيامين نتنيا هو.

في الأوّل مـن نيسـان عام ٢٠٠٠ وبعـد تلك السّلسـلة الطّويلة مـن المفاوضات والاتّصـالات مـع عوديـد عـيران، وحاييـم رامـون، وأمنـون شـاحاك، وديفيـد بـن

أليعـازر، وغلعـاد شـير، وأوري سـافير، أتى إلى المنطقـة مبعـوث سرّيّ مـن جانـب رئيـس وزراء السّـويد لدعـوة الوفديـن للمفاوضـات في ضيافـة مملكـة السّـويد، حيـث تعهّد سـكرتير رئيـس الحكومة السّـويديّة بتوفـير الأجواء الملائمـة للبحث المعمّـق في القضايـا موضـوع النّقـاش والبحـث، وهو ما قـد يسـاعد في التّوصّل إلى النّتائـج المرجـوّة في الوقـت المحـدّد، والقيـام باتّصـالات غير رسـميّة بـين الجانبين المتفاوضـين، وتوفـير أفضـل الأجـواء الممكنـة لإجـراء نقـاش حـرّ في شـأن سـائر القضايـا الجوهريّة.

في إطـار اجتمـاعات اسـتكهولم حاولـت وشـلومو بـن عامي أن نضـع الإطار النّظـري للمفاوضـات، كمـا تطّرقنا إلى الكثـير من القضايـا الجوهريّـة، وكنّا خلال ذلـك شـديدي الحـرص على التّأكيـد بأنّنـا غير معنيـين بأيّ حـلّ مرحـليّ أو جزئيّ، أو تأجيـل أيّ موضـوع إلى المرحلـة اللّآحقـة. وبعـد الجولـة الأولى سـافرنا والوفـد الإسرائيـليّ على الطّائـرة الملكيّـة السّـويديّة مـن مطـار الـلدّ يـوم ١١/ ٥/ ٢٠٠٠، وفي اسـتكهولم عقدنـا جولـة أخـرى مـن المفاوضـات. غـير أنّه لـم يمضِ سـوى وقت قصـير على ذلـك حـتّى تسربت أخبـار هـذه القنـاة السّرّيّة عـبر مصارد فلسـطينيّة وإسرائيليّـة، بـدت غـير راضيـة عـن هـذه القنـاة، وهـو مـا أدّى إلى تغيـير قواعد اللّعبـة، وأضعـف مـن قدرتنـا على التّوصّـل إلى حلـول جوهريّة.

كنـت شـديد الاسـتياء مـن تسريـب نبأ قنـاة اسـتكهولم، ومـع أنّنـا واصلنا المفاوضـات وتبادلنـا بعـض الحـوارات الصّاخبـة، إلّا أن الأجـواء ظلّـت مكفهـرّة. وفي غضـون ذلـك وصل المبعـوث الأمـيركيّ دنيـس روس واجتمع بـكلا الوفدين، وحثّهمـا على التّوصّـل إلى اتّفـاق يتيـح عقـد قمّة فلسـطينيّة إسرائيليّـة مقترحة من الرّئيـس بيـل كلينتون الّذي أخـذ يميل إلى وجهة نظـر باراك الدّاعيّة بإلحاح شـديد

إلى ضرورة عقد هذه القمّة الّتي لم تكن الظّروف الموضوعيّة ناضجة لعقدها آنذاك نظرا لاستمرار الخلافات المتعلّقة باتّفاقيّة الإطار، ونظراً ايضاً لتعارض الموقفين (الفلسطيني والاسرائيلي) حول كلّ مسألة من المسائل الخلافيّة، وبالتّالي فقد عاد الوفدان من استكهولم بعد فترة قصيرة دون التّوصّل إلى أي نتيجة تذكر، حيث كان هناك أربعة أيام من المفاوضات المتعثّرة.

لم ييأس السّويديون من المحاولة مرّة أخرى بعد أن أوقف إيهود باراك الجولة الأولى من مفاوضات استكهولم تمهيدا لتركيز جهده على عمليّة انسحاب عسكريّ- لم نكن نعلم بها- من جنوب لبنان في أيار/ مايو عام ٢٠٠٠. وهكذا عدنا على الطّائرة السّويديّة إلى المقرّ الحكوميّ الواقع في ضواحي استكهولم، حيث أوضحنا للوفد الإسرائيليّ برئاسة شلومو بن عامي أنّ اتّفاقيّة الإطار يجب أن تشمل جدولاً زمنيّاً للانسحاب وتسليم المناطق كافّة للفلسطينيين، كما جرى نقاش حول مختلف القضايا الأساسيّة، غير أنّ باراك علّق المفاوضات مرّة أخرى، وأعلن عن وقف تسليم البلدات الثّلاث المحيطة بالقدس.

على أيّ حال اختتمت الجولة الثّانية من هذه المفاوضات يوم ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٠ لتنتقل إلى المنطقة، وبعد ذلك إلى قاعدة بولينج الجويّة الأميركيّة للتّمهيد لقمّة ثلاثيّة جديدة ستعقد في وقت لاحق، وهي قمّة اقترحها باراك وتبنّاها الرّئيس بيل كلينتون الّذي كان في واقع الأمر قد بدأ عمليّة عدّ عكسيّ لنهاية ولايته الثّانية في نهاية ذلك العام، وبات راغبا في تحقيق إنجاز دبلوماسيّ في الشّرق الأوسط يسجّل في ملفه الشّخصيّ المثخن بالجراح الشّخصيّة، وإنجاز ما يمكّنه من الحصول على جائزة نوبل للسّلام، ناهيك عمّا سيؤدّي إليه ذلك من تحسين فرص نجاح نائبه آل غور مرشّح الحزب الدّيمقراطيّ في انتخابات

الرّئاسة الوشيكة. وفي المحصّلة انتهى المسار التّفاوضيّ السّويديّ في حزيران ٢٠٠٠، وانتقلت الجهود لعقد قمّة ثلاثيّة عقدت في تموز من ذلك العام، وعرفت فيما بعد بمفاوضات كامب ديفيد.

ولما بدا الموعد المستهدف لعقد القمّة الثّلاثيّة قريبا جدّا، وأنّ الموقف يحتاج إلى تمهيد جدّي، وأنّ الغاية تبرّر بذل مزيد من الجهد والوقت، اقترحت إدارة الرّئيس كلينتون على الطّرفين القيام بجولة مفاوضات أخيرة تسبق موعد هذه القمّة، الأمر الّذي حملني على السّفر إلى واشنطن يوم ١٢/ ٦/ ٢٠٠٠ لعقد محادثات جديدة مع وفد إسرائيليّ برئاسة شلومو بن عامي، حيث تمّ الاتّفاق على أنّ التّوصيّة الّتي سأرفعها للرّئيس ياسر عرفات هي الّتي ستحدّد ما إذا كان الزّعيم الفلسطينيّ سيردّ بالإيجاب على دعوة الرّئيس الأميركيّ، ممّا يعني ضرورة نجاح المفاوضات التّمهيديّة هذه، وأوضحت ضرورة موافقة إسرائيل المبدئيّة عل جدول أعمال القمّة المقترحة، والّذي يتضمّن موضوعات الحلّ النّهائيّ كافّة. وبعد ذلك توالت اجتماعاتنا المكثّفة في قاعدة أندروز الجويّة.

حينها قام الرّئيس أبو عمّار بزيارة خاطفة إلى واشنطن يوم ١٤/ ٦/ ٢٠٠٠، حيث كان شديد التّحفظ على عقد قمّة جديدة وسط كلّ هذه الاخفاقات والمراوغات، وقد استثمرنا وجود الأخ (أبو عمّار) في قاعدة أندروز الجويّة في طريق عودته لعقد اجتماع شارك فيه الرّئيس الفلسطينيّ داخل غرفة استقبال كبّار الزّوار، غير أنّ ذلك اللّقاء القصير انتهى كي يواصل الوفدان اجتماعاتهما في إحدى منشآت القاعدة، حيث قلنا للوفد الإسرائيليّ إنّ علينا بعد الآن أن نتحدّث عن الانسحاب ومواعيده لا عن إعادة الانتشار.

وما إن عدنا إلى المنطقة حتّى لحق بنا طاقم المفاوضات الأميركيّ برئاسة

دنيس روس تحت شعور أميركيّ عارم بضغط عامل الوقت. ومع ذلك واصل المبعوث الاميركي روس محادثاته المكثّفة مع كلا الجانبين كلّ على حده، الأمر الّذي استنتج معه هذا المبعوث أنّ هناك مخاطر جدّيّة في عقد القمّة الثّلاثيّة على مثل هذه الأرضيّة السّياسيّة الرّخوة، ولذلك فقد دعا روس الجانبين إلى إجراء مزيد من المفاوضات.

في آواخر شهر حزيران عام ٢٠٠٠، وفيما كانت الاتّصالات جاريّة على قدم وساق، تمهيداً لعقد القمّة الثّلاثيّة الّتي أصبحت شبه مقرّرة، وبفعل ضغط عامل الوقت الّذي كان ينفذ بسرعة أمام حكومة إيهود باراك شبه المفكّكة، جاء شلومو بن عامي إلى نابلس الّتي كان يزورها الأخ أبو عمّار يوم ٦/٢٥ من ذلك العام لعقد لقاء عاجل مع الزّعيم الفلسطيني، وفي تلك الأثناء أيضاً كان الوفد الأمريكيّ برئاسة دنيس روس يبدأ جولة جديدة تمهيداً لقمّة واشنطن الثّلاثيّة، وكانت وجهة النّظر الفلسطينيّة المتبلورة في ذلك الوقت أنّه لا يزال أمامنا عمل شاق يجب أن ننتهي منه قبل عقد هذه القمّة، وبالتّالي فإنّ علينا دراسة الأمر مع الرّئيس المصريّ حسني مبارك، ومع وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة مادلين أولبرايت.

قبل أن نتوجّه إلى واشنطن بيوم واحد، كان إيهود باراك يعدّد خطوطه الحمراء في خطاب له أمام الكنيست يوم ٢٠٠٠/٧/١٠ قائلاً: « إنّ إسرائيل لن تعود إلى حدود الرّابع من حزيران، والقدس ستبقى موحدة تحت السّيادة الإسرائيلية، ولن يكون هناك جيش أجنبي غربيّ النّهر، وإنّ أغلبية المستوطنين ستتجمع في كتل استيطانيّة في الضّفة الغربيّة، وإنّ إسرائيل لن تعترف بأيّ مسؤوليّة أخلاقيّة أو قضائيّة عن خلق مشكلة اللاّجئين»، وهكذا ظهر باراك وهو متوجّه

إلى كامب ديفيد رئيس حكومة بلا قاعدة برلمانيّة، ولا حتّى حكومة كاملة ومستقرّة، وزعيم حزب تخلّى عنه حزبه، وقائداً خفّ بريقه، الأمر الّذي رجح تقديراتنا المبكرة بعدم نجاح مؤتمر بات عقده أقرب إلى المقامرة السّياسيّة، وهو ما يعني أن روح اليأس التّي كانت تشتعل في صدر باراك قد انتقلت إلى صدور الأطراف الأخرى المعنية.

لقد كانت القناعة الفلسطينيّة شبه كاملة بأنّ المؤتمر الّذي يلحّ على عقدة كلّ من باراك وكلينتون، كان أقرب ما يكون إلى مغامرة غير محسوبة العواقب، وهو ما جعلنا نقاوم فكرة القمّة الثّلاثيّة، إلّا أنّ إدارة كلينتون مارست ضغوطاً شديدة، حيث تحوّل عقد كامب ديفيد إلى هدف بحدّ ذاته، وكانت وجهة النّظر الأمريكيّة تقول:» إنّه ما دام أنّ الطّرفين المتفاوضين غير قادرين على تحقيق تقدّم، فقد بات لازماً عقد قمّة ثلاثيّة تدفع بالمفاوضات إلى الأمام»، وقال كلينتون: «إنّ استمرار التّقدّم رهن بقرارات تاريخيّة لا يستطيع اتّخاذها سوى الزّعيمين عرفات وباراك، وإنّ استمراريّة الجمود الرّاهن ليس خياراً مقبولاً، وإنّ عامل الزّمن يلعب ضدّ الجميع».

قبل أن يوجّه الرّئيس كلينتون الدّعوة لعقد مؤتمر كامب ديفيد اتّصل بالرّئيس ياسر عرفات هاتفيّاً ليخبره أنّ التّوجّه لعقد هذا المؤتمر بات نهائيّاً، لا سيّما وأنّ الرّئيس عرفات كان قد قبل الدّعوة من حيث المبدأ، غير أنّه نصح كلينتون بإجراء مزيد من التّحضيرات، إلّا أنّ الرّئيس الأمريكيّ عاد يوم ٢٠٠٠/٧/٤، ليقول لنا:» إنّ إيهود باراك لديه أشياء جديدة يودّ طرحها خلال القمّة»، وبعد ذلك أعلن كلينتون أنّه سيوجّه الدّعوة الرّسميّة لعقد مؤتمر في كامب ديفيد بدءاً من يوم ٢٠٠٠/٧/١١، معيداً إلى الأذهان ذلك المؤتمر الّذي عقد

في نهايـة عقد السّـبعينات في ذات المكان بين مناجيمبيجن وأنور السّـادات، وبرعاية كاملـة من جانـب الرّئيس الأمريكيّ الأسـبق جيمي كارتـر. وهكذا اسـتقرّ الرّأي على أن أذهـب مسـبقاً إلى واشـنطن لعقـد جولة تمهيديّـة أخيرة مع كلّ من شـلومو بـن عامي ومادلـين أولبرايـت، وكان ذلـك يـوم ٧/٩ من ذلـك العام.

توجّهـتُ إلى واشـنطن وكأنّـني في سـباق مـع الوقـت، وفي ذهـني أنّ الموعـد المقـرّر سـلفاً - بالاتّفـاق مـع إيهود بـاراك - لإعـلان قيام الدّولـة الفلسـطينيّة هو يـوم ٢٠٠٠/٩/١٣، أيّ بتاريـخ انتهـاء المرحلـة الانتقاليّة، وهذا هو أيضـاً قرار المجلس المركـزيّ الفلسـطينيّ المتّخـذ آنـذاك، والقـاضي بإعلان الدّولـة العقيدة قبـل نهاية ذلـك العـام، وذلـك عوضـاً عـن التّاريخ المسـتهدف مـن قبل وهـو يـوم ١٩٩٩/٥/٤ المنصـوص عليـه في الاتّفـاق الانتقـاليّ، كمـا كانـت لديّ خشـية لـم تتبـدّد طـوال الطّريـق إلى العاصمـة الأمريكيّـة أنّ هناك موضوعات متّفق عليهـا بين إذا ما كان عليّ القبـول بموقـف أو تحميلنا المسـؤوليّة النّاجمـة عن رفضه، وهذا مـا لاحظه عليّ شـلومو بـن عامي قائـلاً لي: « نحـن وأنتم في قـارب واحد».

في مسـاء يـوم وصـولي إلى واشـنطن انتقلنـا إلى مبـنى وزارة الخارجيّـة الأمريكيّـة، حيـث توزّعـت الوفـود الثّلاثـة حـول طاولـة كبـيرة لعقـد جولـة تحضيريّـة أخـيرة للقمّـة ذات طبيعـة إجرائيّـة، حيـث بـدت مادلـين أولبرايـت كمديـرة مدرسـة ثانويّـة، توضّـح لنا قواعـد العمل المرعيّـة، قائلة:» إنّه سـيتم فرض تعتيـم إعـلاميّ كامـل على المفاوضـات»، ونصحـت بخلـق أجـواء ثقـة بـين الوفـود، وأوضحـت أنـه سـيتم تخصيـص هاتف واحد لـكلّ رئيس وفـد في القمّـة، وقالت :» إنّ الأمريكيّـين هـم من سـيحدّدون جـدول الأعمـال، وإنّ الجميع سـيكونون من دون بـدلات رسـميّة وربطـات عنـق، وإنّ للوفـود مطلـق الحريّة في ارتداء ما تشـاء

مـن الملابـس»، وعندما جـاء دوري ذكّـرت الحاضرين بأنّـه لا تزال هنـاك خلافات جوهريّـة، غـير أنـنّي وعـدت ببـذل كامـل الجهد مـن أجل تذليـل هـذه الخلافات، ولمّحـت إلى مـا قـد يواجهنا مـن مصاعب جـراء الانهيـار المحتمل لحكومـة إيهود باراك.

كان يـوم ٢٠٠٠/٧/١١ هـو اليـوم الأوّل لاجتمـاعات مؤتمـر كامـب ديفيـد، وقد افتتحـه الرّئيـس بيـل كلنتـون بكلمـة ترحيبيّة، قائـلاً: إنّ هـذه لحظـات تاريخيّة بعـد أن وصلنـا إلى النّقطـة الّـتي تفـرض علينـا اتّخـاذ القـرار... أنا سـعيد لوجودي هنـا، ولقـد صرفـت أيامـاً وليـالي عديدة في قـراءة المـوادّ الّتي أعـدّت لهـذا المؤتمر بمـا في ذلـك جغرافيّـة القـدس»، وقـال :» إنّ الولايـات المتّحـدة هي الّـتي سـتحدّد جـدول الأعمـال وتشـكيل اللجـان، إلّا أنّ القـرارات والمواقف الجوهريّة سـتصّدر عنكـم، لا في إطـار رؤيـة قصيرة المـدى، وإنّما في ضوء المسـتقبل الّذي تسـعون إلى بنائـه، سـأغادر بعد أيـام لحضور قمّـة الدّول الصّناعيّـة الكبرى في أكينـاوا باليابان، وإذا مـا وصلنـا إلى اتّفـاق قبـل عقـد تلـك القمّة، فـإنّ ذلك سـيكون شـيئاً ممتازاً، وإنّـه سـيكون بإمـكاني عـرض الاتّفاق على قـادة تلـك الدّول للحصـول على دعمهم وتأييدهم».

بعـد ذلـك تحـدث إيهـود بـاراك قائـلاً: «جئنا ونحـن نحمـل مسـؤوليّة ثقيلة وآمـالاً كبـيرة ... أعتقـد أنّ هذه هي اللّحظـة التّاريخيّة، وقد لا تتكرّر هذه السّـانحة في المـدى المنظـور، لهذا السّـبب سنسـتجيب للتّحـدّي التّاريخيّ، هـذه هي اللّحظة الحاسـمة لنخطـو في اتّجـاه إنهـاء المشـكلة وتحقيـق السّـلام، ونتحـرّك الآن في اتّجاه القضايـا الأساسـيّة لنـدرس الإمكانيّـة المتاحـة، نحـن نؤمـن أنّ ليس هنـاك فرصة أفضـل مـن هـذه الفرصـة، وأثـق في أنّ الشّـعبين في كلا الجانبـين حريصـان على

الوصـول إلى سـلام ينـهي المشـكلة، ليعيـش جنبـاً إلى جنب مـع الطّرف الآخـر، أنا أعـرف أنّ الأوروبيـين والـرّوس يسـاعدون الفلسـطينيين، لكنّـه لا يوجـد من هو أفضـل مـن الولايـات المتّحـدة، ومـن هو أهـمّ منها.

تحـدّث الرّئيـس ياسر عرفـات بإيجاز قائـلاً: « لدينا طلبان: الأوّل من روسـيا، والثّـاني مـن الاتّحـاد الأوروبيّ والدّول العربيّـة المعنيّة، وذلك بأن نضعهـم في الصّورة عمّـا يجـري هنـا، وهـذا أمـر مفيـد لنـا نحـن»، وقـال:» أعتقـدُ أنّ مـا قـاله رئيس الحكومـة بـاراك مهم، نحـن نأمل بنجاح هـذا المؤتمـر بقيادتكم يا سـيادة الرّئيس كلنتـون، وكما حـدث في كامب ديفيد سـابقاً مـع الرّئيس السّـادات ومناحم بيجن، إذ تمكّنـا بقيـادة الولايـات المتّحـدة مـن الوصـول إلى حـلّ جيـد بمسـاعدتكم الشّـخصيّة، نحـن نريـد أن ننتـهي مـن كلّ القضايا المطروحـة معكم».

وفي إطـار الكلمـات الافتتاحيّـة قـال أبـو عمّـار: « نحـن نحـاول الوصـول إلى اتّفـاق سـلام يـرضى عنه الطّرفـان مع الأخذ بعـين الاعتبـار العوامـل المحيطة بنا، فلسـطينيين وإسرائيليـين، وذلك كي نتمكن في المسـتقبل من القـول أنّنا وصلنا إلى سـلام حقيـقيّ، سـلام في المنطقـة، لأنّه بـدون ذلك لن يكـون هناك سـلام دائم»، وأضـاف أبـو عمّـار:» إنّ القاعدة الّتي انّطبقـت على الحدود اللبنانيّـة مؤخّراً (كانت إسرائيـل قـد انسـحبت قبـل شـهرين دون قيـد أو شرط)، وقبلهـا على الجبهتـين؛ المصريّـة الأردنيّـة يجـب أن تنطبـق علينـا، ولـولا تـردّد صديـقي القديـم الرّئيـس حافـظ الأسـد لطبّقت هـذه القاعـدة على الجبهة السّـوريّة أيضـاً، وقـال ايضاً؛ نحن هنـا نسـألونحن مسـتغربين: لمـاذا تطبّـق قـرارات الشّرعيّـة الدّوليّـة على جميـع هذه الجبهـات، ولا تطبّـق معنا مـع كلّ الضّمانـات الأمنيّة».

دارت بعـض المناقشـات الحـذرة، وتبـادل الحـاضرون بعض الآراء، ثـمّ اقترح

كلينتون أن يبدأ الحديث الجدّي، حيث اعترض أبو عمّار طالباً أن تجري اللقاءات بحضور مندوبين عن الولايات المتّحدة، وبعد ذلك رفعت هذه الجلسة الإفتتاحيّة، ليبدأ في اليوم التّالي ثاني يوم من أيام كامب ديفيد، وإن كان يعتبر اليوم الأوّل يوماً للمفاوضات المباشرة بين الوفود، بمعزل عن الرّؤساء، وقد انصبّت مداولات أولبرايت بقيادة النّقاشات، حيث قالت: « اليوم يوم الأربعاء والوقت يمضي بسرعة، وهذه القمّة من المقرّر لها أن تنتهي يوم ٢٠٠٠/٧/١٨، أيّ بعد خمسة أيام، والرّئيس كلنتون سيقدّم ورقة يوم غد، سنعرضها عليكم، ثمّ نستمع إلى تعليقاتكم، وكلّ ما ترغبون قوله».

وجّهت أولبرايت الحديث نحوي قائلة: « أنا احترم رئيسكم، واقدّر كلّ ما قاله للرئيس كلينتون يوم أمس، في الحقيقة هذه هي نهاية اللّعبة التّفاوضيّة... لنفترض أن الحدود ذاتها، فما هو استعدادكم لتلبيّة مطالب الإسرائيليين الأمنيّة؟ نريد أن نعرف تصوّركم بكلّ وضوح، ولذا سأستمع إلى رأي الوفد الإسرائيليّ في مسألة الحدود هذا اليوم، فأجبت أولبرايت قائلاً: موقفنا إزاء هذه المسألة يتلخّص في أنّ قرار مجلس الأمن الدّوليّ رقم ٢٤٢ ينطبق على الجبهة الفلسطينيّة أسوة بما هو عليه الحال بالنّسبة للجبهات الأخرى، نحن متمسّكون بحدود سنة ١٩٦٧ إلّا أنّنا في المفاوضات المطوّلة قبلنا بالحديث عن تعديلات طفيفة ومتبادلة ومتساويّة من حيث القيمة والمثل والكم، كما أنّنا مستعدّون لتفهّم المطالب الأمنيّة الإسرائيليّة الموضوعيّة على أن يجري ذلك بكلّ وضوح ودقّة.

ثمّ دارت بعد ذلك نقاشات إضافيّة بيننا وبين الوفد الأمريكيّ الّذي بدا لنا مدافعاً عن وجهة النّظر الإسرائيليّة ومتبنياً لها. عند ذلك توقفت

هـذه النّقاشـات الثّنائيّـة، ثـمّ تـمّ اسـتئنافها مسـاء اليـوم نفسـه بحضـور الوفدين الأمريكـيّ والإسرائيـليّ، حيـث ترأسـتُ أنـا الوفـد الفلسـطينيّ، بينمـا ترأسـت أولبرايـت الوفـد الأمريكـيّ، أمّا الوفـد الإسرائيليّ فكان برئاسـة شـلومو بن عامي، وقـد افتتحت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة النّقاش حول مسـألة الحـدود قائلة: « إنّ سـؤالي هـو عن الهوامـش المتاحة لـكلّ منكما على صعيد مسـألة الحدود، إذا سـألت الفلسـطينيين مـاذا يريـدون، « يقولـون حـدود ١٩٦٧»، وإذا سـألت الإسرائيليـين يجيبـون بأنّهـم يريـدون أن يضمـوا إليهـم ٨٠٪ من المسـتوطنين في كتل اسـتيطانيّة متّصلـة جغرافيـا بحدودهـم، إذاً مـا هي الهوامـش؟ ومـا هـو الباروميتر؟ «.

بعـد أن انتهى الاجتماع المسـائيّ انّضم الرّئيس كلنتـون إلى الوفد الأمريكـيّ المفـاوض، وقاد بنفسـه الجلسـة الّتي عقـدت بيننا وبـين الأمريكيين حتّى سـاعة متأخّـرة مـن ذلك المسـاء الطّويل، وكنّـا في تلك الأثنـاء أقرب إلى وضع المسـتمعين لأفـكار كلينتـون الّذي يبدو أنّه حرص على هذه المشـاركة الشّـخصيّة المباشرة لتهيئة أجـواء وفدنـا وتحضـيره لجلسـة مفاوضـات اليوم التّـالي، تلك الجلسـة الّتي سـيتم فيهـا طـرح الورقـة الأمريكيـة الّتي سـبق لمادلـين أولبرايـت أن تحدّثـت عنها في جلسـة الافتتـاح. وبالفعـل فقد ألمح كلينتـون إلى ورقته قائلاً :» إنّـه يخشى أن نقول لا بعـد طرحهـا ... مـن الواضـح أن بـاراك يريـد اتّفاقاً لكـن لا يزال هنـاك بعض الخلافـات، وفيمـا يتعلّـق بـالأرض فأنـنّي اعتقـد أن الموقـف الّذي اتّخذتمـوه كان عادلاً ومقبـولاً، أمّـا قضايـا المياه والاقتصـاد والبيئة سـتكون جرءاً مـن الاتّفاق».

لقـد كان اليـوم الثالـث يوم الورقـة الأمريكيّـة الّتي وعد الرّئيـس كلينتون بطرحهـا على الوفديـن وسـط تخوفات من جانبنـا ممّا قـد تنطوي عليه هـذه الورقة مـن أفكار نسّـقت مـع الجانـب الإسرائيـليّ، وقـد دللّـت المفاوضات الّـتي جرت في

اليـوم السّـابق على صحـة مخاوفنـا هذه، فـفي اللّقـاء الّذي عقد بين كلّ مـن الرّئيس يـاسر عرفـات والرّئيـس كلينتـون، وكان مخصّصـاً لمسـألة القـدس، قـال أبـو عمّار :» إنّ موقفنـا إزاء القـدس بسـيط للغايّـة، القـدس الشّرقيّـة لنّـا والقـدس الغربيّة لهـم، أمـا فيمـا يتعلـق بقضيـة اللاّجئـين فنحن نريـد اعترافـاً بحـقّ العـودة، وبعد ذلـك سـنتناقش في التّفاصيـل» . وفي لقـاء ثـانٍ مـع الرّئيـس الأمريكـيّ دعانا إلى اجتمـاع، اتّضح أنّها لتحملينا مسـؤوليّة فشـل هـذه المفاوضات، وأضـاف: « أودّ أن أذكـرك يـا فخامـة الرّئيـس أن باراك صـوّت في حينه ضـدّ اتّفاق أوسـلو».

على هـذه الخلفيّـة المشـحونة بالشّـكوك، بدأنـا مفاوضـات اليـوم الثّالث مع الوفـد الأمريكـيّ الّذي تقـوده مادلـين أولبرايـت، وقالـت لنـا: إن هـذه الجلسـة سـتمهّد لما سـيحدث هذا اليوم، الرّئيس سـيعود إلى واشـنطن السّـاعة الخامسة بعد الظّهـر، وهـو الّذي سـيتولّى طرح الورقـة الأمريكيّـة، ونحن ندرك أنّ هنـاك قضايا خلافيّـة، ولا سـيّما فيمـا يتعلـق بالقـدس، والرّؤسـاء الثّلاثة لـم يبذلو جهـداً كافياً لتقريـب وجهـات النّظـر حـول هـذه المسـألة، لقـد اسـتمعنا إليكم، ونحـن نحاول أن نكـون متوازنـين، أجرينـا معكـم، ومعهم أيضاً، لقـاءات ثنائيّـة وثلاثيّة، وإنّ أمامنـا فرصـة تاريخيّة»، ثـمّ تحدثـت أولبرايت عن الورقـة الأمريكيّة بشـكل عام، وقالـت: «إن العلاقـات الّتي ستنشـأ بينكم وبـين الإسرائيليين سـتكون علاقات بـين دولتـين، وإنّ الورقة سـتنصّ في نهاية المطاف على اعتراف متبـادل بين دولتين».

في منتصـف اللّيـل عقـد الوفـدان الأمريكـيّ والفلسـطينيّ الاجتمـاع المرتقـب لطـرح الورقـة الأمريكيّـة، حيـث قـال الرّئيـس كلينتـون: « أريـد أن أعطيكـم هـذه الورقـة الآن كي تدرسـوها هـذه اللّيلة، وغـداً قبل الظّهر سـنجتمع مـرّة ثانيّـة لنتحـادث بشـأنها، وأقـترح عليكـم بـدء عمليّـة التّفـاوض انطلاقـاً

مـن هـذه الورقـة... يـوم غد أريـد عقد سلسـلة لقـاءات بشـأن القـدس والأرض واللاّجئـين والأمـن، أريـد من الرّئيس عرفـات أن يكون معه كاتـب، أو أيّ واحد مـن أعضـاء الوفـد، كي يتنقـل بـين اللّجـان حاملاً معـه الحلـول الّتي يتـم التّوصل إليهـا، وقبـل أن نجتمـع يـوم غـد سـأرى بنفـسي كيـف يجـري العمـل في اللّجان، ومـا هي الإنجـازات في كلّ واحـد منهـا «، ثـمّ أضـاف: « أدرك أنّ الفجـوات لا تزال كبـيرة، نحـن لا نريـد أن نأخـذ القـرار نيابة عـن أحد، نريـد أن نترك لكـم اتّخاذ القرارات».

سـأل الرّئيـس أبـو عمّـار نظـيره الأمريكـيّ مـا إذا كان بـاراك سـيعطي المفاوضـين الإسرائيليـين الصّلاحيات اللّازمـة، وهو الّذي كان يمنـع من الاتّفاق في السّـابق؟، « فـردّ كلينتـون: « إنّ لديـه تطمـين من الجانـب الإسرائيليّ بأنّهـم يريدون التّوصّـل إلى اتّفـاق»، فقـال أبو عمّـار : « أنا لا أرسـل مفاوضين بـدون صلاحيّات»، فأجـاب كلينتـون: « إنّ باراك أتى وسـط أزمـة حكوميّة حادّة، ولا أريـد أيّ تسريب للأخبـار، وسـنلتقي على العشـاء ونسـتمرّ في المحاولـة «. وبعـد أن ذهـب الرّئيـس الأمريكـيّ اجتمعـت مـع الأخ أبو عمّـار وبدأنا في قـراءة الورقـة، وكان معنا الأخ صائـب عريقـات، وكان ذلـك في السّـاعة الثّانيـة بعد منتصـف الليل، ومـا أن فرغ صائـب مـن التّرجمة حـتّى اعـترى الأخ أبو عمّـار انفعال شـديد، وقال لنـا: « انتهى الأمـر، إن هـذا تلاعـب ومضيعـة للوقـت، المفاوضـات انتهـت ولا فائـدة تـرجى منهـا»، ثـمّ طلب منّـا إعادة الورقـة إلى أصحابهـا، وفعـلاً ذهبنا إلى مقـر أولبرايت، وأبلغناهـا برفضنـا للورقـة الأمريكيّة.

قلنـا لمادلـين أولبرايـت: « إنّ هـذه ورقـة أُعـدّت بالتّعـاون مـع الجانـب الإسرائيـليّ»، غـير أن وزيـرة الخارجيّـة ردت على اتهامنـا قائلـة : « هـذا ليـس

صحيحاً، الإسرائيليون قدموا لنا أفكاراً أمّا أنتم فلم تقدموا أيّ أفكار»، فقلنا لها: إنّنا نرفض التّعامل مع هذه الورقة، ففي هذه الورقة الموقف الإسرائيليّ الّذي رفضناه من قبل، وما ورد فيها حول القدس ليس مقبولاً ومرفوض تماماً، نريد منكم موقفاً أمريكيّاً يضع المفاوضات على المسار الصّحيح، على أساس الشرعيّة الدّوليّة ورسالة التّنظيمات الأمريكيّة الّتي سبقت مؤتمر مدريد عام ١٩٩١»، وعند ذلك تدخل دينس روس متسائلاً: « ماذا تريدون ؟» فأجبناه: « نريد موقفاً أمريكياً يستند إلى مبادئ الشّرعيّة الدّوليّة، عند ذلك أنهت أولبرايت النّقاش قائلة بغضب وانزعاج: « إذن تعتبر هذه الورقة ملغاة، وتبدأون غداً الحديث في اللّجان من دون ورقة» .

في اليوم الرّابع، بدأت المفاوضات من خلال لجان العمل الثّنائيّة، وهي ثلاث لجان : الأولى (الأرض ، والحدود ، والأمن) ، والثّانيّة (اللاّجئون)، أمّا الثّالثة فكانت لجنة القدس. اجتمعت اللّجنة الأولى وسط أجواء تنذر بحدوث أزمة كبيرة، حيث طالبنا بحدود الرّابع من حزيران مع إجراء بعض التّعديلات الطّفيفة على أساس التّبادل، فيما قال رئيس الوفد الإسرائيليّ: « إنّ تلك الحدود ليست هي البداية فيما يخصّ الضّفة الغربيّة «، ثمّ انتهت الجلسة الّتي عرض فيها كلّ وفد موقفة المعروف من قبل دون أن يتقدّم الجانبان نحو الآخر إزاء نقطة الإنطلاق التّفاوضيّة. لذلك اقتضى الأمر عقد جلسة أخرى مسائيّة حضرها الرّئيس كلينتون، حيث ذكرت للرّئيس الأمريكيّ أنّ إسرائيل تريد العودة بالمفاوضات إلى البدايات الأولى، وهو حقاً موقف مفاجئ لنا، أيّ العودة إلى الوراء، أو العودة من حيث انطلقنا أوّل مرّة.

في إطار لجان العمل الثّنائيّة تواصلت المفاوضات مع الإسرائيليين في

اليـوم الخامـس مـن أيـام كامـب ديفيـد، لا سـيّما في إطـار لجنـة الأرض والحـدود والأمـن، حيـث أبلغنـا شـلومو بـن عامي قائـلاً : « إنّ التّعليمـات لديهـم هي أن يتمّ وضـع كلّ شيء على الطّاولـة بمـا في ذلـك التّعديـلات الحدودويّـة «، وطلـب معرفة وجهـة نظرنـا ومطالبنـا، فأجبتـه: إنّنـا لن نبحـث في مسـألة التّعديـلات الحدوديّة قبـل إقـرار الجانـب الإسرائيليّ بمبـدأ التّبـادل على جانبي الحـدود». وبعـد فترة من النّقـاش، وبعـد أن اتّضح لنـا أن الخلاف عميـق والمواقف متعارضة بشـدّة فضّضنا الجلسـة لتـلافي مزيد مـن الحدّة، ثـمّ تدخّـل الرّئيس كلينتون وأرسـل عضـو الوفد الأمريكـيّ روب مـالي، ثـمّ ذهبـت إلى مقـرّ الأخ أبي عمّـار، حيـث شرحـت له الموقـف، وفي النّهايـة تمكّـن الأمريكيـون مـن فتـح الطّريق مجـدّداً.

لدى اسـتئناف الجلسـات تحـدّث شـلومو بـن عامي باسـتفاضة عـن المناطق الّـتي تريـد إسرائيـل ضمّهـا، مقترحـاً ضـمّ الأراضي الواقعـة على نهـر الأردن مـع ثلاثـة معابـر لنـا على النّهـر، فضلاً عن ضـمّ مسـتوطنات القـدس واللّطـرون، أيّ مـا مسـاحته ١٤٪ من مسـاحة الضّفـة الغربيّة، الأمـر الّذي جعلنا نرفـض كلّ ذلك قائلـين لهـم: « نحن نقبـل بالتّعديـلات لا بالضّمّ، تعديـلات متبادلـة بالقيمة والمثل «، كمـا رفضنـا اسـتثناء القدس مـن حـدود عام ١٩٦٧.

وأمـام حالـة الإسـتعصاء هـذه تدخّـل الرّئيـس كلينتـون مـرّة أخـرى وأدار الجلسـة، فقمـت بعـرض الموقف الفلسـطينيّ فيمـا عرض شـلومو بـن عامي الموقف الإسرائيـليّ، ولـم تخل الجلسـة من تبادل الـصّراخ، الأمر الّذي جعـل كلينتون يتدخّل لتهدئـة الأمـر قائـلاً: « هيّـا شـمروا الآن عن سـواعدكم، هيّـا إلى العمـل، لديكم الكثـير لفعلـه، وسـألتقيكم بعد انتهائكـم من جلسـة المفاوضات هـذه» ، واقترح علينـا البحـث في الموضوع الأمـنيّ بدلاً مـن الاسـتغراق في مسـألة الأرض والحدود.

في مداخلته المطوّلة بدا الرّئيس الأمريكيّ منحازاً لوجهة النّظر الإسرائيليّة، فقد قال بعد أن لوّح بإصبعه الطّويلة في وجوهنا: «أنا هنا في لقاء قمّة، ولست في لقاء لإضاعة الوقت؛ لقد قدّم الإسرائيليون مشروعهم، وأنا اتّفقت مع الرّئيس عرفات أمس على أن تتمّ مناقشة جميع القضايا، وأنت (موجّهاً إصبعه نحوي) تريد الآن منهم أن يغيروا مواقفهم وخرائطهم، وإذا كنت تريد أن تلقي محاضرات وخطباً عن القرارت فاذهب إلى الأمم المتّحدة، وقل هناك ما تشاء، أمّا هنا فلا تضيّع وقتي، إنّني أحمّلك المسؤوليّة، نعم أحمّلك أنت شخصيّاً المسؤوليّة عن فشل هذه القمّة، سأحزم حقائبي وأعود، وتتحمّل أنت شخصيّاً المسؤوليّة عن ذلك، هذه ليست هي الطّريقة، ولا هذا هو المنهج الّذي يمكّننا من الوصول إلى اتّفاق، وعندها سيفقد شعبكم فرصة حلّ قضيته، والتّمتّع بحرّيّته في ظلّ دولته».

لقد كان هذا التّصرف الرئاسيّ الأمريكيّ صاعقاً بالنّسبة لي، ومحلّ دهشة وصدمة كبيرين، ولم أعلّق بكلمة واحدة على الرّئيس الأمريكيّ وهو يتهمني بإفشال القمّة، وتجنّبت إظهار أيّ انفعال، ورحت أفكر كيف سأتصرّف على المستوى الشّخصيّ وأنا المواطن الذي يعيش تحت الاحتلال، يتلّقى اتّهام رئيس الدّولة الأعظم. فقد غادر الرّئيس كلينتون القاعة، وبقيت على مقعدي أفكر في الأمر، ولم تمض سوى لحظات حتّى دخل جمال هلال المترجم في الخارجيّة الأمريكيّة مصحوباً بدينس روس ومارتن أندك وروب مالي محاولين جهدهم استيعاب الوضع المتفجّر، وتوضيح موقف الرّئيس كلينتون الّذي كان يتحدّث عن الشّكل والأسلوب وليس عن الموضوع (Substance).

في تلك اللّيلة رفضت الذّهاب لتناول العشاء بحضور الرّئيس كلينتون

والوفود الأخرى، وهذا ما دفع الرّئيس أبا عمّار بصحبة الأخّ أبي مازن وياسر عبد ربّه لإقناعي بالذّهاب معهم لتناول ذلك العشاء، غير أنّني رفضت ذلك تماما مهما كانت الظّروف، وقلت للأخّ أبي عمّار: «لن أذهب حتّى ولو عدت ومعي الحلّ العادل الشّامل»، ومع إصراري الشّديد قال الأخّ أبو مازن للأخّ ياسر عرفات: «لا تحاول يا أبا عمّار، فأنا أعرف عناده».

على أيّ حال فقد كانت لجنتا القدس واللّآجئين تواصلان أعمالهما في قاعتين منفصلتين، ففي اللّجنة الأولى تبيّن للأخوين ياسر عبد ربّه وصائب عريقات أنّ من الصّعب الوصول إلى أيّ اتّفاق بشأن قضيّة القدس الحسّاسة، الأمر الّذي جعل الرّئيس كلينتون يقترح في إحدى الجلسات الخاصّة بهذه القضيّة أن يتمّ الاتّفاق على التّعاون في بعض المجالات المتّصلة بالمدينة المقدّسة، ويترك الأمر لمدّة عشرة أعوام، أي أن نتفاهم حول مستقبل هذه المدينة، أمّا فيما يخصّ قضيّة اللّآجئين فلم تكن خلاصة المفاوضات أفضل، فقد عرض الأخوان أبو مازن ونبيل شعث الموقف الّذي يتمحور حول حقّ العودة، وشرحاه بصورة واقعيّة، ومع ذلك فقد ظلّ الموقف الأميركيّ يميل إلى رأيّ الإسرائيليين مركّزاً على مسألة التّعويضات الماليّة كأساس للحلّ المقترح، وكانت هذه الإغراءات الماليّة الّتي سبق أن تحدّث عنها الرّئيس الأميركيّ تتردّد على ألسنة أعضاء الوفد الإسرائيليّ المفاوض، وكأنّ مسألة التّعويضات تتصدّر قائمة البحث الفلسطينيّة.

في اليوم السّادس عقد الوفد الفلسطينيّ اجتماعا صباحيّا بحضور الرّئيس ياسر عرفات، وأجرينا تقييماً للموقف الأميركيّ من جميع جوانبه، ودقّقنا كثيرا في معطيات الموقف الأميركيّ، وما تنطوي عليه المقترحات الأميركيّة من محاذير عديدة، وقد علمت شخصيّا خلال المداولات الدّاخليّة أنّ الرّئيس كلينتون

اتّفق مع كلّ من الرّئيس عرفات وإيهود باراك خلال مأدبة العشاء في اللّيلة الماضية على أن تجتمع لجنة الأرض والحدود والأمن الّتي أرأسها على الرّغم من غيابي عن العشاء للبحث في الخرائط ومسائل الأمن، كما علمت أنّ أعضاء اللّجنة قد أمضوا اللّيلة الماضية حتّى الصّباح في محاولة للتّوصّل إلى إعداد وثيقة تحدّد الموقفين الفلسطينيّ والإسرائيليّ، إلّا أنّ المواقف ازدادت تباعداً بما في ذلك المواقف داخل لجنة القدس واللّآجئين، خاصّة بعد أن طرح الوفد الإسرائيليّ حقّ اليهود في إقامة الصّلاة داخل صحن المسجد الأقصى.

وفي اللّيلة الماضية أيضاً عقد الرّئيس كلينتون اجتماعا منفردا مع الأخّ أبي عمّار، واستعمل معه الأسلوب الّذي اتّبعه معي من قبل، إذ قال الرّئيس الأميركيّ: «إذا كنتم لا تريدون اتّفاقا دعوني أعلن ذلك وأعود إلى البيت الأبيض، أنا لا أستطيع القبول بهذا الأسلوب الّذي تتبعونه، لقد كان اجتماع الأمس مجرد إلقاء خطابات من جانب وفدكم، بينما طرح الجانب الإسرائيليّ موقفه بكلّ وضوح». وهو ما يعني أنّ الرّئيس كلينتون كان يتّهمنا بعدم الجدّيّة، فردّ عليه الأخّ أبو عمّار مفنّدا كلّ الادّعاءات الإسرائيليّة، وهو الّذي يتهرّب من البحث الجدّيّ، وأنّه يعود دائماً إلى المواقف القديمة المتآكلة الّتي سبق أن رفضناها في استكهولم، ولم يفت الرّئيس أبو عمّار أن يحذّر كلينتون من الموافقة على السّماح لليهود بالصّلاة داخل أروقة المسجد الأقصى، وأنّ الجنرال ديان الّذي احتلّ القدس الشّرقيّة هو الّذي حظر على اليهود الصّلاة في المسجد الأقصى وفي ساحاته.

في نهاية ذلك اللّقاء التّشاوريّ الصّباحيّ اتّفق الوفد الفلسطينيّ على إعداد رسالة موقّعة من الأخّ أبي عمّار موجّهة إلى الرّئيس كلينتون، تتضمّن المواقف

الفلسطينيّة إزاء مختلف القضايا المدرجة على جدول أعمال اللّجان التّفاوضيّة كافّة، وتمّ تكليف الأخ صائب عريقات ونبيل أبو ردينة نقل هذه الرّسالة رافضا (أبو عمّار) أن ينقلها بنفسه، علماً أنّ مقرّ كلينتون لا يبعد أكثر من ١٥ متراً عن مقرّ الأخ أبي عمّار. وبعد مرور ساعة من تسلّم مقرّ كلينتون رسالة عرفات أتت أولبرايت إلى مقرّ رئيس الوفد الفلسطينيّ ناقلة رسالة شفويّة من الرّئيس كلينتون: «إنّ الرّئيس كلينتون يشكركم على الرّسالة ويعتبرها إيجابيّة ومشجّعة، بل إنّها تمثّل انطلاقة جديدة، وسيقوم الرّئيس بالتنقّل غداً بينكم وبين إيهود باراك للبحث في جميع القضايا المدرجة في جداول أعمال اللّجان الثّلاث».

في اليوم السّابع الواقع في ١٧ تموز، كان يوم القدس بامتياز، حيث بدأ الرّئيس كلينتون في استكشاف إمكان نجاح مؤتمر كامب ديفيد عبر بوابة القدس الّتي لم يتمّ فتحها بعد، إذ أخذ في التّنقّل بين عرفات وباراك مرّة كلّ ثلاث ساعات في جهد يدلّ على الجدّيّة والمثابرة والرّغبة في النّجاح، فيما راح أعضاء الوفد الأميركيّ يجتمعون بصورة متوازية مع أعضاء الوفدين الفلسطينيّ والإسرائيليّ كلّ على انفراد، وقد اقترحت مادلين أولبرايت عقد اجتماع موسّع في السّاعة الثّالثة من بعد ظهر ذلك اليوم للبحث في مسألة القدس من جميع جوانبها، الأمر الّذي دفعنا إلى إعداد أنفسنا بصورة جدّيّة جدّاً، مسلّحين بالحقائق والخرائط والأرقام الضّروريّة اللّازمة لكلّ حديث جادّ حول المدينة المقدّسة، بما في ذلك قضايا السّيادة والحدود.

والحقّ أنّه تبلور لدينا رأيٌ يقوم على أساس حلّ من حلّين لمدينة القدس: الأوّل الاعتراف الصّريح بالسّيادة الفلسطينيّة على القدس الشّرقيّة، وكذلك

الاعـتراف بأنّهـا عاصمـة للدّولـة الفلسـطينيّة، وبالتّـالي إلغـاء قـرار الضّـمّ المتّخذ سـنة ١٩٦٧، أمّـا الثّـاني فهـو تدويل مدينة القـدس وفق قـرار الجمعيّـة العامّة لهيئة الأمـم المتّحـدة رقـم ١٨١. وعليـه وفي اجتمـاع السّـاعة الثّالثـة من بعـد ظهر ذلك اليـوم عرضـت أمـام مادلـين أولبرايـت الموقـف الفلسـطينيّ آنـف الذّكـر، وبعـد انتهـاء الاجتمـاع ذهبـت إلى الأخّ أبي عمّـار الّذي كان في طريقـه للاجتمـاع مـع كلينتـون، وزودتـه بالمعطيـات الّتي لديّ، فقـال لي: «يبـدو لي أنّ الأمـور صعبة، وأنّ لدى الأميركيـين نوايـا غـير مريحة».

في اللّقـاء بـين الرّئيـس عرفـات وكلينتون قـال الرئيس الفلسـطيني: «نحن أمـام قـرارات صعبـة، لقـد التقيـت بـاراك وقلـت له إنّـك شرحـت لي صعوباتـك الدّاخليّـة، وإنّـك إن عـدت باتّفـاق ناقـص بشـأن القـدس فسـتذهب إلى بيتـك؛ لأنّـك سـتفقد الثّقـة بالحكومة، وأنـا أصدّقك»، ثـمّ قال كلينتـون لـلأخّ أبي عمّار: «إنّـك إذا عـدت مـن دون القدس فسـتخسر ثقـة شـعبك وثقة العرب والمسـلمين وأنـا أصدقـك، لذلـك أنـا أريدكـم أن تجـدوا الحـلّ الّذي يخدمكم».

وفي السّـاعة الثّامنـة مـن ذلـك المسـاء ذهبنـا أعضـاء الوفـد الفلسـطينيّ لتنـاول العشـاء فـإذا بالرّئيس كلينتـون يحضّر لتناول العشـاء معنـا مصحوبا بابنته تشـيلسي، واختـار أن يجلـس إلى جانـبيّ الأمـر الّذي اعتبرتـه بمثابـة اعتـذار لبق عمّـا بـدر عنه مـن إيـذائي قبل ليلـة واحـدة، وبالفعل فقـد أدار الرّئيـس الأميركيّ مـعي حديثـا حـول العائلـة والأولاد بعيـدا عـن السّياسـة وعـن متاهـة مفاوضات كامـب ديفيد.

لـو أردت أن ألخّـص وضعنا التّفـاوضيّ في نهاية الأسـبوع الاوّل من مفاوضات كامـب ديفيـد فإنّـني أقـول: إنّ المخطّـط الأميركيّ المسـتخدم قـد هزّ قواعـد عملنا

التّفاوضيّ، وأربكنا إزاء بعض القضايا المطروحة، فقد كنّا نتمسّك بعدم مناقشة القضايا الأمنيّة قبل إقرار الاتّفاق في شأن الحدود، ولا سيّما في غور الأردّن، وعدم الحديث عن الاستيطان والمستوطنات قبل الاتّفاق على الحدود الغربيّة مع إسرائيل (الخطّ الأخضر)، كما ألزمنا أنفسنا بعدم التّقدّم في قضيّة بعينها قبل التّقدّم في القضايا الأخرى، وكنّا نرفض الحديث عن الخرائط قبل الاتّفاق على المبادئ والمفاهيم، كما تجنّبنا تدوين موقفنا خطّيًا قبل التّعرّف على حجم وطبيعة الفجوة الّتي تفصلنا عن الموقف الإسرائيليّ، وبالنّتيجة فلقد أحدثت التّكتيكات التّفاوضيّة الأميركيّة اهتزازا في موقفنا التّفاوضيّ.

أمّا في اليوم الثّامن ١٨/ ٧/ ٢٠٠٠ كان من المفترض أن يكون هذا اليوم هو اليوم الأخير في القمّة، غير أنّ أسبوعا كاملا مضى دون تحقيق أيّ إنجاز، إن لم نقل أنّ البون اشتدّ والفجوة اتّسعت أكثر ممّا كانت عليه من قبل، ومع أنّ الخلافات كانت شديدة حول القضايا فقد كان الخلاف حول القدس أشدّها على الإطلاق. وقد بدا الأميركيون في حالة من الاستعجال والضّيق والإعياء. وفي ظهيرة ذلك اليوم اجتمع الرّئيس كلينتون بالوفد الفلسطينيّ، وخاطب كيلنتون الأخ (أبو عمّار) يائسا: «ما أقوله الآن هو موقفي أنا شخصيّا، وهو على النّحو التّالي: في الإمكان أن تكون خادم الأماكن المقدّسة وإلى جانبك الأمم المتّحدّة والمغرب، وهذا الأمر يشمل رفع العلم الفلسطينيّ على الحرم، فإذا قبلت ذلك فسأضغط على باراك من أجل السّيادة على الحيّ الإسلاميّ والمسيحيّ تحت سيادة فلسطينيّة كاملة».

وأضاف كلينتون: «فيما يتعلّق بالحدود سيكون ما نسبته ٨٠- ٨٥٪ من الحدود الشّرقيّة مع الأردّن لكم، وستكون مدّة وجود القوّات العسكريّة

الإسرائيليّة في وادي الأردنّ ١٢ عاماً، وبشأن اللاّجئين سيكون هناك حلّ مرضٍ، ويجب أن يكون ضمن الاتّفاق الّذي سينهي الصّراع، وهم لن يرضوا أن يكون وضع المستوطنات معوّماً».

كان هذا الملخّص الاساسي لما قاله الرّئيس الأميركيّ لحلّ الصّراع، وقد فهمنا مسألة الوصاية على الحرم الشّريف أنّه سيكون كوضع البعثات الدّبلوماسيّة، أي أنّ السّيادة العليا فيه لإسرائيل الّتي ستعطي الفلسطينيين تفويضاً بالوصاية على الحرم والأماكن المقدّسة، كما أنّ رفع العلم الفلسطينيّ على الحرم لا يلغي السّيادة الإسرائيليّة عليه.

كما فهمنا ايضاً من التّصوّر الأميركيّ هذا أنّ الوضع في الأماكن الدّينيّة المسيحيّة الواقعة خارج الحيّ الإسلاميّ في القدس لن يكون مختلفا عن الوضع في الحيّ الإسلاميّ، أمّا الحيّ الأرمنيّ فسيضمّ إلى إسرائيل ضماً كاملا، وبالنّسبة للأحياء العربيّة خارج السّوق مثل حيّ الشّيخ جرّاح ووادي الجوز وشعفاط وبين حنينا، فستكون وفق هذا الطّرح الرّئاسيّ الأميركيّ، اي تحت السّيادة الإسرائيليّة. أمّا فيما يخصّ الأرض فإنّ هذا التّصوّر يطلب ضمّ ٩٪ من الضّفة الغربيّة في مقابل ١٪ لمصلحة قطاع غزّة. وكان جواب الأخ (أبو عمّار) واضحاً، حيث خاطب كلينتون قائلا: «لا أستطيع العودة إلى شعبي من دون القدس الشّريف، وأنا أفضّل الموت كإنسان واقع تحت الاحتلال على التّنازل والخنوع». وبذلك كانت خلاصة الموقف الفلسطينيّ تقول: «لن نقبل أن نستبدل الاحتلال القائم بالسّيادة الإسرائيليّة الدّائمة».

اليوم التّاسع كان هو اليوم المقرّر لسفر الرّئيس كلينتون إلى طوكيو لحضور اجتماع الدّول الصّناعيّة الكبرى (G٨)، وعليه فقد كانت مفاوضات هذا اليوم

أشبه بعمليّة سباق مع الزّمن، الأمر الّذي أضفى على المفاوضات نوعا من التّوتّر، وقد كنّا في فجر هذا اليوم قد أرسلنا رسالة إلى الرّئيس كلينتون نقترح فيها تعليق المفاوضات لمدّة أسبوعين، على ان تجري خلالهما مفاوضات ثنائية مكثّفة بحضور أميركيّ، غير أنّ الإسرائيليين رفضوا هذا الاقتراح، وبالمقابل فقد واصل وفدنا عقد الاجتماعات بما في ذلك اجتماعات لجنة الأرض والأمن والحدود.

وفي موازاة ذلك عقد كلينتون اجتماعا مع الأخّ أبي عمّار، ثمّ عقد اجتماعا آخر مع إيهود باراك. وفي اجتماعه مع كلينتون خاطب أبو عمّار مضيفه قائلا: «إنّ مليار مسلم لن يغفروا لي إذا لم أحصل على السّيادة الكاملة على القدس الشّرقيّة، وأنا لا أحمل أيّ تفويض يخوّلني حقّ تقديم تنازلات في هذه القضيّة»، فردّ عليه كلينتون: «أنت تقود شعبك والمنطقة إلى كارثة». وفجأة أخذ الحوار يسخن بين الرّئيسين، فقد قال أبو عمّار: «إنّ الأمر لا يتعلّق بي وحدي»، ثمّ اقترح على كلينتون إرجاء الحوار لمدّة أسبوعين، فقال كلينتون: «أنا أشعر بخيبة الأمل، أنت على وشك أن تفقد صداقتي، إنّك تضيّع فرصة التّوصّل إلى اتّفاق لأعوام طويلة مقبلة»، فأجابه عرفات: «لن أوقّع على أيّ اتّفاق لا يشمل القدس، أنت تنسّق اقتراحاتك مع الإسرائيليين، وإذا كان هناك ضرورة سأنتظر مدّة عشرين سنة، إذ أنّ عليّ أن أتشاور مع العالم العربيّ لا مع شعبي الفلسطينيّ فقط».

عند ذلك اقترح كلينتون: «لماذا لا تناقش ذلك مباشرة مع باراك وتحاولان معا التّوصّل إلى حلّ؟» فأجابه عرفات: «كلّ ما لدى باراك مجرّد كلام في كلام، إنّه لم يقترح عليّ أيّ شيء باستثناء ضمّ القدس لإسرائيل»، وختم أبو عمّار مرافعته: «لا أستطيع الموافقة على مقترحات باراك، أدعوك أيّها الرّئيس سلفا لحضور جنازتي إذا ما تمسّكت أنت بموقفك هذا إزاء القدس».

بعد ذلك توجّه الرّئيس كلينتون إلى باراك، واتّفق معه على عدم مغادرة الوفد الإسرائيليّ خلال فترة غياب الرّئيس الأميركيّ في طوكيو، ثمّ توجّه بشكل مفاجئ إلى مقرّ الرّئيس عرفات وخاطبه قائلا: «قرّرت مطالبتك بالبقاء هنا إلى حين عودتي من طوكيو، وستكون مادلين أولبرايت هي المسؤولة عن استمراريّة المفاوضات حتّى عودتي، عليكم أن تفكّروا بحلّ جدّيّ لمسألة الحرم»، فردّ الرّئيس عرفات مبتسما: «أقوالك أوامر بالنّسبة إليّ، سأبقى». وبالفعل فقد تواصلت اجتماعات اللّجان في فترة غياب الرّئيس كلينتون، حيث كانت مسألة الأمن لها حصّة الأسد في هذه الاجتماعات، كما كان مفهوم الأمن وفق الطّرح الإسرائيليّ لا يتعدّى نطاق تنظيم الاحتلال وإعطائه شرعيّة باسم السّلام، وكان رأيي عدم الدّخول في قضيّة الأمن قبل أن نتمكّن من الاتّفاق على الحدود والأرض.

في يوم ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٠ - وكان اليوم العاشر للمفاوضات، أصبحت السّيدة أولبرايت تمسك بمقاليد العمليّة الّتي دخلت في واقع الأمر إلى مرحلة الاستعصاء، وفي هذا اليوم أظهر الجانب الإسرائيليّ ميلاً إلى إبقاء الوضع على حاله إلى أن يعود كلينتون من طوكيو، وفي هذا اليوم بلغ التّوتّر مداه، خاصّة لدى الوفد الإسرائيليّ، وفي المساء لم يتمّ تبادل أيّ نوع من الأحاديث حتّى على العشاء الّذي حضرته أولبرايت وعرفات وباراك، وازداد الموقف حراجة عندما دخل باراك إلى مقرّه، وأغلق الباب على نفسه، ورفض تحويل أيّ مكالمات له. وفي ساعة متأخّرة عقدت لجنة الأرض والحدود والأمن اجتماعا لها، تمّ فيه عرض الخرائط الّتي تستند من وجهة نظرنا إلى حدود سنة ١٩٦٧، وأنّها تنصّ على تبادل الأراضي بالقيمة والمثل، وأنّها لا تضرّ بمصالحنا سواء على صعيد السّكّان أم على صعيد الأراضي أو الأحواض المائيّة.

أمّـا في اليومـين التّاليـين (٢١ و ٢٢/ ٧) وفي ظـلّ غيـاب كلينتـون واعتصـام بـاراك في غرفتـه، فقـد تداخلـت الاجتمـاعات بـين هذيـن اليومـين اللّذين اتّسـما بمناقشـات مفتوحـة على سـائر القضايا موضـع النّقاش. فقد اجتمعـت لجنة الأرض والحـدود والأمـن ولجنـة القـدس، كما عـرض الوفـد الإسرائيـليّ خريطـة تظهر أنّ الأراضي الّـتي ستسـلّم لنـا فـورا سـتكون في حـدود (٧٧,٢٪)، على أن تسـلّم لنـا في مرحلـة لاحقة مسـاحة أخـرى يتمّ الاتّفـاق عليها بـين الطّرفين تقدّر بــ (٨,٨٪)، وعليـه سـتبقى في يـد إسرائيل مسـاحة تسـاوي (١٣,٣٪)، أمّا بالنّسـبة المتبقيّة وهي (٠,٢) فقـد بقيـت موضـع خـلاف، وثار جدل أكـبر من سـابقه فيما يتعلّق بمسـألة السّـيادة الفلسـطينيّة في القدس.

وهكـذا بـدت مواقـف كلّ طـرف متصادمـة مـع الطّـرف الآخـر، لا سـيّما عندمـا طلـب الجانـب الإسرائيـليّ بفـرض السّـيادة على ما يسـمّى بمنطقـة الحوض المقـدّس، وكذلـك عندمـا طالبنـا بفـرض السّـيادة الفلسـطينيّة على حيّ غيلـو ومسـتوطنة بسـغات زئيف، الأمـر الّذي زاد الأمور قتامـة لدى الوفدين، حيث كان بـاراك لا يـزال غارقـا في اعتصامـه وكآبتـه، فيمـا كان الشّـعور لدينا لا يقـلّ قتامة، فالوقـت يمـضي بطيئـا في انتظار عـودة كلينتون من طوكيـو، والقضايـا المطروحة في اللّجـان الفرعيّـة بقيـت على حالها، وفوق ذلـك فقد بدأت الاجتهـادات بين أعضاء الوفـد الفلسـطينيّ تتبايـن باطّـراد، وهو ما زاد الشّـعور لدينـا بالتّشـاؤم والإحباط، لاسـيّما ونحـن نـدرك أنّ فشـل هـذه العمليّة الّـتي طبخـت على عجل سـيتمّ إلقاؤه على عاتقنـا، وسـيجري تحميلنـا وزر مـا يلي من مضاعفـات أمنيّة وسياسـيّة في وقت لـن يكـون بعيـدا عن موعـد فشـل كان يلـوح في الأفـق البعيد.

في اليـوم الثّالـث عـشر مـن أيـام كامـب ديفيـد (٧/٢٣) كنـت أدرك على

الصّعيد الشّخصيّ أنّ الوقت المتبقي لعودة كلينتون من طوكيو لن يكون كافيا لتحقيق التّقدّم الّذي يفضي إلى اتّفاق، فالوفد الأميركيّ لم يظهر النّشاط والحيويّة الّتي كان يتمتّع بها كلينتون، فيما الأخّ أبو عمّار وباراك لم يلتقيا طوال هذه الفترة، ولذلك فقد اقترحت على الجانب الإسرائيليّ خلال تناول الغذاء استئناف المفاوضات في لجنة الأرض والأمن والحدود طالما لم يجر أيّ تقدّم في لجنة القدس ولجنة اللّآجئين. وفي وقت لاحق من هذا اليوم عقدت اللّجان الثّلاثة اجتماعات منفصلة، وعلى ضوء النّقاشات الّتي جرت في هذه اللّجان ازددت قناعة بأنّنا نسير في طريق مسدود. وفي هذا اليوم عاد الرّئيس كلينتون وبدأ على الفور في عقد اجتماعات منفصلة مع كلّ من الرّئيس عرفات وإيهود باراك، وكانت أوّل قضيّة طرحها للإجمال النّهائيّ تتعلّق بمسألة محطّات الأنظار المبكّر، ونزع السّلاح، والسّيطرة على المعابر، والقوّة الدّوليّة.

في غضون هذه النّقاشات تطرّقنا إلى موضوع المجال الجوّيّ، وإلى مطلب إسرائيل الخاصّ بنشر قوّات داخل الأراضي الفلسطينيّة في حالات الطّوارئ، ثمّ انتقلنا إلى مسألة الدّولة الفلسطينيّة منزوعة السّلاح ولا جيش لها، وتجلّت مظاهر الخلاف أكثر لدى التّطرّق إلى مسألة المعابر الدّوليّة، وكان كلينتون وهو يستمع إلى هذه المناقشات في عجلة من أمره للانتقال إلى المسألة التّالية؛ وهي مسألة غور الأردنّ، حيث عرض الرّئيس الأميركيّ اقتراحه وهو نشر قوّة دوليّة تعمل مع الجانب الاسرائيليّ وليس بصفة مستقلّة، ثمّ انتقل إلى مسالة نزع السّلاح، ودعا إلى الاتّفاق على تركيبة القوّة الفلسطينيّة وعلى الأسلحة الّتي ستكون في حوزتها. وفي مساء ذلك اليوم عُقد اجتماع أميركيّ فلسطينيّ مخصّص للبحث في قضيّة القدس، حيث اقترح كلينتون تأجيل الاتّفاق بشأنها كليّا أو جزئيّا مدّة خمس سنوات، وهو ما رفضناه تماما.

في اليـوم الأخـير مـن أيـام مؤتمـر كامـب ديفيـد وكان اليـوم الرّابـع عـشر الموافـق ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٠، جـرت مفاوضـات وسـط خيبـة أمـل باديـة على وجـوه الجميـع بمـا في ذلـك الرّئيـس بيـل كلينتـون الّذي وجـد نفسـه مسـتغرقا في قضيّـة الشّرق الأوسـط على حسـاب كثير مـن القضايا والمشـاغل الدّاخليّـة والكونيّـة، لذلك فقد بـدت المفاوضـات في يومهـا الأخـير وكأنّهـا محاولـة مـن الوفـود لوضع نقطـة كبيرة في نهايـة السّـطر الأخـير مـع إجمال مـا يمكن إجمـاله مـن القضايا الّـتي ظلّت على حالهـا مـع تحديـد مسـاحات التّوافـق والاختـلاف في شـأن كلّ قضيّة بعينهـا، فقد عقـدت الوفـود المشـاركة اجتماعاً لهـا في مقـرّ الرّئيس الأمـيركيّ وليـس في القاعة الّـتي كانـت تجري فيها المفاوضات، في إشـارة مـن كلينتون إلى أنّ الوقـت انتهى وأنّه على وشـك الانصراف.

بـدأ الرّئيـس كلينتـون الاجتمـاع قائـلا: «إنّـه سـيجري تمرينـا تفاوضيّـا مماثـلا للتّمريـن الّذي أجـراه يـوم أمـس»، حيث تحـدّث عـن الآليّة الدّوليّة لمسـألة تعويضـات اللّآجئـين، ثـمّ اختتـم كلينتون المناقشـات بقـوله: «أطـرح عليكـم أن تسـجلوا مـا سـأقوله لكـم، ثـمّ تعـودوا إليّ فيمـا بعد، عليكـم أن تحـدّدوا الأرقام (اللآجئـين)، وأن تحـدّدوا المعايـير لعودة اللّآجئـين، هل يمكن القـول أنّ علينا أن نبـدأ بعدد محـدّد ثمّ نذهب مـن هناك إلى تجزئة الأعـداد وتحديد السّـنوات آخذين بعـين الاعتبـار أنّ للآجئـين الفلسـطينيين في لبنـان الأولويّة؟» ثمّ أضـاف: «إنّ في تقديـري أنّ هنـاك أعـداداً بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ ألف لاجئ سـيكونون مـن أصحاب حقّ العـودة، لكـن علينـا أن نفكّـر فيمـا لو قـرّر ٥٠٠ ألـف لاجئ ممارسـة حـقّ العودة، عليكـم أن تفكّروا في الشّـكل وفي المشـكلة». وبهـذا الطّـرح كان الرّئيس كلينتون قـد طلـب في واقـع الأمر تمديـد أيـام مؤتمر كامـب ديفيد ليـوم واحـد على الأقلّ.

بالفعل فقد استمرّت المفاوضات في اليوم التّالي وسط ذات الأجواء المكفهرّة في اليوم السّابق، حيث بدا لنا الجانب الأميركيّ أنّه يسعى لغسل يده من فشل هذا المؤتمر، وإلقاء تبعات ذلك على هذا الجانب أو ذاك، لاسيّما على الجانب الفلسطينيّ، وقد انعقد في هذا اليوم اجتماع فلسطينيّ أميركيّ تحدّث فيه الرّئيس كلينتون عن قضيّة القدس قائلا: «إنّها هي القضيّة الأساسيّة»، وأضاف: «لنفترض أنّنا وجدنا حلّا يرضي الطّرفين فيما يتعلّق بالحرم، فقد لا يتحقّق الحلّ في المسائل الأخرى المتعلّقة بقضيّة القدس، ودعوني أسأل ماذا بالنّسبة لبقيّة عناصر قضيّة القدس؟» ثمّ قال: «إنّ الضّواحي الخارجيّة للمدينة تخضع جميعها للسّيطرة الفلسطينيّة ما عدا الدّخول إلى بعض الأحياء الدّاخليّة الّتي ستكون خاضعة لبعض السّيادة الفلسطينيّة مع كريدور إلى الحرم القدسيّ، مع إقامة مقرّ للفلسطينيين في البلدة القديمة».

وباختصار، فقد رفض الأخّ أبو عمّار مقترحات الرّئيس الأميركيّ بكلّ وضوح وشجاعة قائلاً: «نحن لا نستطيع أن نتخلّى عن القدس، هذه عاصمتنا المحتلّة، ووضعنا الآن أحسن ممّا يعرض علينا، هل تريدني أن أبيع القدس؟» عند هذا الحدّ قال كلينتون: «حسناً، إذن غادر إلى بيتك، أنا لا أستطيع أن أقيم هنا أكثر ممّا أقمت، وإذا أردت أن تكون بطلاً في الدّول العربيّة والإسلاميّة فلك ذلك».

وفي مساء ذلك اليوم تمّ عقد اجتماع بيننا وبين الرّئيس الأميركيّ الّذي قال: «أمامنا أربع خيارت: انهيار عمليّة السّلام، أو تأجيل الاتّفاق على القدس، أو تأجيل بعض القضايا في القدس وحلّ بقيّة القضايا الأخرى، أو إصدار بيان يقول أنّ القمّة الثّلاثيّة حقّقت بعض الإنجازات وأنّ العمليّة ستستمرّ»، إلّا أنّ

وفدنا برئاسة أبي عمّار رفض هذه المقترحات وهو يدرك أنّ العدّة قد أعدّت لإلقاء تبعات فشل كامب ديفيد على عاتقنا.

في غضون تلك الفترة، تبنّي مؤتمر القمّة العربيّة المنّعقد في بيروت يوم ٢٠٠٢/٣/٢٨ اقتراحاً سعوديّاً، تحوّل فيما بعد إلى ما بات يعرف باسم)مبادرة السّلام العربيّة(الّتي تجاوزت اللآءات العربيّة الشّهيرة في قمّة الخرطوم بعد حرب العام ١٩٦٧، حيث ولدت هذه المبادرة من رحم واقعتين كبيرتين هما: واقعة ٢٠٠١/٩/١١، وواقعة الانتفاضة الثّانيّة الّتي حدثت قبل وقت قصير من الهجوم الدّمويّ على كلّ من واشنطن ونيويورك، فبدت المبادرة وكأنّها هجوم دبلوماسيّ عربيّ شامل لمنع بناء صورة نمطيّة للعرب في أذهان الأمريكيين- قوامها الإرهاب والعنف- دون أن نغفل البعد الفلسطينيّ العميق لهذه المبادرة، الّتي تضمّنت اعترافاً عربيّاً بإسرائيل مقابل انسحابها من الأراضي العربيّة المحتلّة وإقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة.

على أيّ حال تجاهلت إسرائيل- وهي المخاطبة بهذه المبادرة- كلّ ما انطوت عليه الدّعوة العربيّة الرّسميّة الأولى لسّلام كامل مقابل التّطبيع الكامل، بل إنّ الدّبابات الإسرائيليّة راحت تشدّد الحصار على مقرّ الرّئيس ياسر عرفات، وذلك كإعلان مدوٍّ لرفض حكومة شارون لهذه المبادرة، فيما راحت الإدراة الأمريكيّة تصفها بالخطوة الإيجابيّة والمهمّة. ولم تكتفِ إسرائيل بتجاهل المبادرة هذه، بل بادرت إلى إعادة احتلال الضّفّة الغربيّة، وهو ما بدا على أنّه أمر أبعد من أن يكون تدبيراً انتقاميّاً على سلسلة من العمليّات الفلسطينيّة الموجعة، خصوصاً بعد أن باتت السّلطة الوطنيّة الفلسطينية محلّ استهداف شامل ومباشر من جانب قوات الاحتلال، وعلى رأسها الزّعيم الفلسطينيّ الرّمز ياسر عرفات الّذي كان مستهدفاً من جانب شارون منذ حرب العام ١٩٨٢.

وفي غمرة ذلك، وفيما كانت الاتّصالات والمساعي جاريّة على قدم وساق، بدأت تلوح في الأفق البعيد ملامح مبادرة أمريكيّة جديدة، تنطوي على بعد سياسيّ أهمّ من البعد الأمنيّ الّذي كان محلّ تركيز شديد في المساعي الأمريكيّة السّابقة، وقد تبلور ذلك كلّه في الخطاب الّذي ألقاه الرّئيس جورج بوش أمام الأمّم المتّحدة في تشرين الثّاني/نوفمبر ٢٠٠١، حيث قال: إنّه أمر غير مقبول أن يعيش الشّعب الإسرائيليّ في خوف، وأن يعيش الشّعب الفلسطينيّ تحت الاحتلال، وقال: إنّ رؤيته هي((دولتان تعيشان جنباً إلى جنب في سلام وأمن))، وأضاف: « إن السّلام يتطلّب قيادة فلسطينيّة جديدة ومغايرة؛ كي يكون في الإمكان ولادة دولة فلسطينيّة، وإنّني أهيب بالشّعب الفلسطينيّ أن ينتخب قادة جدّداً، قادة لا تكون سمعتهم ملطّخة بالإرهاب».

وعلى الرّغم ممّا تضمّنته مثل هذه الخطابات الأمريكيّة من ملحوظات نقديّة قاسيّة إزاء القيادة الفلسطينيّة، فقد آثرت هذه القيادة الّتي كانت تواجه حصاراً شديداً أن تصوغ موقفاً إيجابياً حيال مجمل السّياسة الأمريكيّة المعلنة، حيث تمّ التّرحيب بخطاب الرّئيس بوش، والتّجديد على الالتزام بالتّفاوض كخيار إستراتيجي. غير أنّه لم تمرّ سوى بضعة أسابيع على طرح رؤية الرّئيس بوش الخاصّة بحلّ الدّولتين حتّى كانت حكومة شارون تشدّد هجماتها الميدانيّة والسّياسيّة، حيث اعتبرت السّلطة الفلسطينيّة كياناً داعماً للإرهاب، وقد تجاوب الرّئيس بوش مع هذا التّوجّه الإسرائيليّ، فأعلن أنّ ياسر عرفات خيّب آماله بعد أن أضاع الفرصة، وفرّط في آمال الشّعب الّذي يتزعّمه.

منذ خطاب الرّئيس بوش الّذي طالب فيه بإجراء إصلاحات فلسطينيّة كشرط لإحراز تقدّم على صعيد العمليّة السّلميّة، ازدادت وطأة الضّغوط العلنيّة

الأمريكيّة المطالبة بإحداث تغييرات جوهريّة في بنية القيادة الفلسطينيّة بما في ذلك إحداث منصب رئيس حكومة يكون مسؤولاً أمام المجلس التّشريعيّ، وذلك في مسعى أمريكيّ لإضعاف سلطة الرّئيس ياسر عرفات.

وقد تماثل الموقفان الإسرائيليّ والأمريكيّ إلى أبعد الحدود حين دعا الرّئيس بوش في خطاب له يوم ٢٠٠٢/٦/٢٤ إلى انتخاب قيادة فلسطينيّة جديدة، ومؤسّسات جديدة، وتدابير أمنيّة جديدة، وهو ما سيؤدّي إلى تأييد الولايات المتّحدة إقامة دولة فلسطينيّة مستقلة، تكون حدودها وبعض أوجه سيادتها مؤقتة إلى حين إيجاد حلّ دائم كجزء من التّسويّة النّهائيّة في الشّرق الأوسط.

لقد كان من المقرّر أن تمضي الولايات المتّحدة في مخطّطها لإطلاق خريطة الطّريق في أواسط الشّهر الأخير من عام ٢٠٠٢، إلّا أنّ وزير الخارجيّة كولن باول كان يعارض اعتماد اللّجنة الرّباعيّة الدّوليّة والّتي شكّلت في حينه خريطة الطّريق قبل إجراء الانتخابات الإسرائيليّة المقرّرة في بداية العام اللاّحق. وفي أوائل العام ٢٠٠٣ جرت الانتخابات الإسرائيليّة الّتي فاز فيها شارون مجدّداً، وفي تلك الفترة أعلن الرّئيس ياسر عرفات موافقته على استحداث منصب رئيس حكومة في إطار الإصلاحات التي طلبتها الإدراة الأمريكيّة، في حين كان شارون يدعو من نيويورك إلى اختيار رئيس حكومة خلفاً للرّئيس عرفات من أجل ما سمّاه خطّة إصلاحات شاملة متكاملة، يتمّ بعدها الاتّفاق على دولة ذات حدود مؤقّتة.

في النّهاية تمّ اعتماد (خطّة خريطة الطّريق) على مستوى مندوبي اللّجنة الرّباعيّة، لا على مستوى وزراء الخارجيّة كما كان مقرّراً من قبل، كما أنّ الولايات المتّحدة أعلنت على لسان كولن باول في أوائل آذار/ مارس ٢٠٠٣ قرارها تعليق إعلان خريطة الطّريق إلى أن « تسمح الدّيناميّة الجديدة، الّتي يولّدها تعيين رئيس

حكومة فلسطينيّة يتمتّع بصلاحيّات فعليّة بالتّقدم نحو خريطة الطّريق»، ثمّ كرّر ذلك الرّئيس جورج بوش قائلاً: « إنّ خريطة الطّريق ستوزّع على الطّرفين الفلسطينيّ والإسرائيليّ فور تسلّم رئيس الحكومة الفلسطينيّة منصبه» .

وفي المشهد الخلفيّ كانت الولايات المتّحدة تضع لمساتها الأخيرة على خشبة المسرح الدّوليّ لخوض حرب جديدة ضدّ العراق، فبدا الاستعداد الأمريكيّ للتقدّم في إطار خريطة الطّريق على نحو رمزيّ، وكأنّه عمليّة استرضاء للدّول العربيّة؛ لتقدم نحو اجتياح بريّ وقصف جويّ شامل، انّطلقت شرارته الأولى يوم ٢٠٠٣/٣/٢٠، ليبدأ بعدها فصل جديد في حياة هذه المنطقة.

حاولت إسرائيل من جانبها، بلا نجاح يذكر، إعادة تقديم ياسر عرفات إلى الأمريكيين المتأهبين لغزو العراق على أنّه صدّام حسين مرّة، أو نسخة معدّلة من أسامة بن لادن مرّة أخرى. وقد رفضت الولايات المتّحدة هذه التّوصيفات السّاذجة، ثمّ عادوا بعد مقتل رحبعام زئيفي ليقولوا؛ انتهى عهد عرفات، وإنّ السّلطة الفلسطينيّة كيان إرهابي، وإنّ الرّئيس الفلسطينيّ أنهى دوره بنفسه، أو غير ذلك من التّوصيفات الدّالة على أنّ مرحلة جديدة بدأت اتّجاه الفلسطينيين.

في غضون تلك الفترة استقبل الرّئيس الأمريكيّ رئيس الحكومة الإسرائيليّة، وولي العهد السّعوديّ الأمير عبد الله بن عبد العزيز كلاً على حدة. وفي ٢٠٠٣/٤/٢٦ أعلن البيت الأبيض أنّ ولي العهد السّعوديّ سلّم الرّئيس الأمريكيّ وثيقة من ثماني نقاط لإحياء عمليّة السّلام، تدعو إلى إنّهاء الحصار الإسرائيليّ لرام الله، ونشر قوّة سلام دوليّة، وإعادة بناء المناطق الفلسطينيّة المدمّرة، ونبذ العنف، وإحياء عمليّة السّلام، ووقف بناء المستوطنات، إضافة إلى تنفيذ قرار الأمّم المتّحدة ٢٤٢، وإنهاء الحصار الإسرائيليّ لكنيسة المهد.

غـير أنّ كلّ مـا تقـدّم من مسـاعٍ ومبادرات واتّصـالات أمريكيّـة وأوروبيّة وعربيّـة كانـت كحـرث في بحـر، إذ لم تـترك أيّ منهـا أثـراً يذكر في مجـرى يوميات الـصّراع الّذي كان يـزداد احتداماً. وفي غضـون ذلـك فـرض الإيقـاع المتزايـد لفعاليّـات الانتفاضة المسـلّحة وسـط ردّات فعـل إسرائيليّة مفرطة في اسـتخدامها للقـوّة، على جميـع الأطـراف إيـلاء اهتمام أكـبر للدّبلوماسـيّة، لفتح كـوّة من الأمل في جـدار الأزمة.

بعـد مرور شـهرين على واقعة ١١ سـبتمبر الفارقـة، ألقى الرّئيـس الأمريكيّ خطابـاً أمـام الأمّـم المتّحـدة تحـدّث فيـه عـن الـتزام الولايـات المتّحـدة في تحقيق سـلام عادل وشـامل في الـشّرق الأوسـط، تعيـش فيه دولتـان: إسرائيل وفلسـطين بسـلام معـاً ضمن حـدود آمنة ومعـترف بهـا. وبعد ذلـك بوقت قليل تبـنّي مجلس الأمـن الدّولي القـرار ١٣٩٧ الّذي أكـدّ فيه رؤيـة الرّئيس بـوش، وهي رؤية تقوم على تحقيـق منطقة مسـتقرّة تعيش فيهـا الدّولتان: فلسـطين وإسرائيل، جنبـاً إلى جنب ضمـن حـدود آمنة ومعـترف بها.

لقـد كانـت هـذه هي المـرّة الأولى الّـتي يدعـو فيهـا رئيـس أمريكـيّ على الإطـلاق إلى قيـام دولـة فلسـطينيّة، وهي سـابقة كانـت محـلّ ترحيـب فلسـطينيّ وعـربيّ واسـع، بـل ومحـلّ استحسـان دوليّ، وقـد أصبـح هـذا الطـرح أحـد أهـمّ ركائـز السّياسـة الأمريكيّة اتّجاه الشّرق الأوسـط طـوال السّـنوات اللاّحقة، حيث بـدا الأمـر بالنّسـبة لجميـع الأطـراف المعنيّـة على أنّه تحـوّل لا سـابق له في المقاربة الأمريكيّـة للـصّراع التّاريـخيّ، فيمـا اعتبرت إسرائيل والأوسـاط المؤيّـدة لها هذا الطّـرح تخريبـاً للجهـود الدّوليّـة المبذولـة لمكافحـة الإرهاب.

واسـتجابة للضّغـوط الصّهيونيّـة، تقـدّم الرّئيـس بـوش خطـوة جديـدة على

طريـق الرّضـوخ لمؤيـديّ إسرائيل داخـل الكونغـرس الأمريكـيّ، حيـث أعلن في حزيـران ٢٠٠٢ نـزع الشّرعيّـة عـن قيادة يـاسر عرفـات، وإنّ حلّ الدّولتـين يتطلّب قيـادة فلسـطينيّة جديـدة ومغايـرة، واشـترط توفّـر مثـل هـذه القيـادة كي تدّعـم الولايـات المتّحدة إنشـاء دولة فلسـطينيّة مسـتقلّة تكون حدودهـا وبعض نواحي سـيادتها مؤقتـة إلى أن تحـلّ في إطـار تسـويّة نهائيّـة في الشّرق الأوسـط.

وبعـد انتهاء العمليّـات العسـكريّة الأمريكيّة الكبرى في العـراق، تقدّمت إدارة الرّئيـس بـوش رسـميّاً في ٢٠٠٣/٤/٣٠ بمبـادرة (خريطـة الطّريـق) بهـدف التّوصّـل إلى حـلّ الدّولتـين عبر ثـلاث مراحل، حيـث تنتـهي المرحلة الثّالثّـة منها بتعزيـز الإصلاحـات واسـتقرار المؤسّسـات تمهيـداً لقيـام دولـة متفـاوض عليهـا ذات سيادة،مسـتقلة وديموقراطيّـة وقابلـة للحياة، وهي فلسـطين الّـتي تعيش بأمن وسـلام مـع إسرائيـل. وفي إطـار السّـلام الإقليـميّ توافـق الدّول العربيّـة على إقامة علاقـات طبيعيّـة كاملـة مع إسرائيـل، تحقّق الأمـن والسّـلام لجميـع دول المنطقة.

إثـر ذلـك، قامـت السّـلطة الفلسـطينيّة بسـنّ مجموعـة مـن القوانـين والتّشريعـات الّـتي تنظّم عمل السّـلطة التّنفيذيّة، فضلاً عـن إعادة هيكليّة الأجهزة الأمنيّـة، ونـشر قوّات فلسـطينيّة على طـول الحدود بين غـزّة وإسرائيـل، وفي المقابل لـم تبـد إسرائيل التّجـاوب، بـل أصرّت على اسـتمرار العمل في بناء الجـدار الفاصل العنـصري العـازل، فيمـا بدأ شـارون يمهّـد الطّريق للانسـحاب من قطـاع غزّة في وقـت لآحـق، الأمر الّذي حـوّل الاهتمامات مـن التّركيز على تنفيذ خريطـة الطّريق إلى خطّـة فـكّ ارتبـاط عـن غـزّة، وبالتّالي قطـع الطّريـق على إجـراء مفاوضات مع الفلسـطينين بشـأن قضايا المرحلـة النّهائيّة.

وفي المقابـل، بـدا الموقـف الأمريكـيّ متمايـزاً في تلـك الأثناء عـن الموقف

الإسرائيـليّ، خاصّـة بعـد انتخـاب الرّئيس محمـود عبّاس رئيسـاً للسّـلطة الوطنيّة أثـر رحيـل الزّعيـم يـاسر عرفـات. وقـد عـبر بـوش عـن ذلـك في التّهنئـة الحـارّة الّـتي بعـث بهـا إلى الرّئيـس عبّـاس ودعاه إلى زيارة البيـت الأبيض. كمـا أصبحت التّصريحـات الأمريكيّـة تأخـذ منحـنى إيجابيّـاً اتّجـاه ضرورة العـودة إلى العمليّـة السّـلميّة، ناهيـك عـن ضرورة تطبيـق خريطـة الطّريـق ، وهـو الأمـر الّذي خلـق أجـواء مغايـرة للسّـير على طريق السّـلام.

غـير أنّ ذلـك لـم يـدم طويـلاً، حيـث عادت الولايـات المتّحـدة إلى سـيرتها الأولى، منحـازة بالمطلـق لوجهـة النّظـر الإسرائيليّة. وقـد تمثّل ذلـك في الضّمانات الّـتي قدّمهـا بوش لشـارون، وفي دعم واشـنطن لخطّة فـكّ الارتبـاط الإسرائيليّ مع قطـاع عـزّة، الأمـر الّذي وضعنا أمام حالة الاسّـتعصاء السّـياسيّ مـن جديد، وفتح الباب واسـعاً أمام سـيل لا نهايـة له من التّطوّرات السّـلبيّة الخطـيرة، وذلك على نحو ما شـهدته الأشـهر والسّـنوات اللاّحقة.

الجزء الثالث

الطريق إلى خريطة الطريق

في نهايـة الجـزء الثّالث من هـذا العرض الّذي أسـميناه (الطّريـق إلى خريطة الطّريـق)، فإنّـني أودّ القـول: إنّ الرّيـاح لـم تجـرِ بمـا كانـت تشـتهي سـفينة عمليّة السّـلام، بـل هبّـت عليهـا عواصـف عاتيّـة مـن مختلـف الاتّجاهات حالـت دون وصولهـا إلى المحطـة الآمنـة. ولا أجيز لنفسي أن ألـقيّ بكامل المسـؤوليّة عن تعثّر هـذا المسـار على الجانـب الآخـر مـن المعادلـة وحده فقـط دون غـيره، فنحـن لدينا الشّـجاعة الأدبيّـة على الاعـتراف بتحمّـل قسـط مـن المسـؤوليّة، مـع أنّ الأمـر لا يتوقّـف على الجانـب الفلسـطينيّ إلّا بجـزء يسـير من المسـؤوليّة الّتي تقـع على عاتق كلّ مـن إسرائيـل والولايـات المتّحدة.

فبعـد أن أعادت إسرائيـل احتـلال الضّفّـة الغربيّـة أوائـل سـنة ٢٠٠٢ متذرّعة بتفجـيرات داميّـة وراء الخـطّ الأخـضر، وبعـد فيض مـن متغـيّرات عالم مـا بعد ١١ سـبتمبر ٢٠٠١، وأمام اسـتحقاقات وضـع ذاتيّ ينـذر بكارثة حقيقيّـة، كانت تتواصل الحـوارات الدّاخليّـة الفلسـطينيّة بشـأن تلـك التّفجـيرات الّـتي أدانتهـا في حينـه القيـادة الفلسـطينيّة، واسـتنكرتها أوسـاط ثقافيّـة وازنـة علنـاً، وهو امر لـم تتّضح خطورته الكارثيّة إلّا بعد أن أدّى هذا السّـلوك غير المسـؤول إلى إعادة احتلال الضّفّة الغربيّـة، وإضعـاف مقوّمـات بقـاء السّـلطة الوطنيّـة واسـتمرارها، ووضـع القضيّـة أمـام حائـط مسـدود، سـدّته في واقـع الأمـر سلسـلة لا نهايـة لهـا مـن الاجـراءات

والتّدابير الانتقاميّة الإسرائيليّة، والّتي راحت تركّز على تهويد القدس، والتّوسّع في الاستيطان، وتصعيد حدّة القمع، وتوسيع دائرة الاستهداف والقتل، وكلّ ما ظلّت تبرع به آلة عسكريّة متوحشة طوال تاريخ هذا الصّراع الطّويل.

في نهاية هذا العرض التّاريخيّ المختصر الّذي تتبّعنا فيه الأجواء الممهدة لخطّة خريطة الطّريق، بدءاً من حالة الاستعصاء السّياسيّ النّاجمة أساساً عن فشل قمّة كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، وما أفرزته من أحداث ووقائع، مررنا ببعضها مروراً سريعاً، وتوقّفنا عند بعضها الآخر بالسّرد والتّحليل، مثل الانتفاضة الثّانيّة وما تخلّلها من حيثيّات ساخنة لا حصر لها، وعرّجنا على واقعة ١١ سبتمبر المدويّة وما أفضت إلية من تداعيات إقليميّة ودوليّة، فضلاً عن مبادرة السّلام العربيّة، وما رافق تلك المرحلة الزّمنيّة الممتدّة من نهاية عام ٢٠٠٠ حتّى بداية سنة ٢٠٠٦ من اتّصالات ومساعٍ أمريكيّة، أقول في نهاية العرض: إنّ خريطة الطّريق كانت هي المحور الّذي انصبّ عليه هذا الجزء من الرّواية الأشمل.

وليس من شكّ في أنّ الّذي استرجعنا بعض معالمه الأساسيّة عبر هذا الجزء الخاصّ من الرّواية التّفاوضيّة، كان قد بدأ من تقرير لجنة ميتشل، ثمّ تفاهمات جورج تنيت، وبعد ذلك اتّضحت أكثر فأكثر في الوقت الآحق بتلك السّلسلة الطّويلة من الزّيارات الأمريكيّة المتواصلة للسّلطة الفلسطينيّة بما في ذلك زيارة كولن باول وزير الخارجيّة الأمريكيّة، وبعده زيارة الجنرال أنتوني زيني، وغير هذين من الدّبلوماسيين الأمريكيين الأقلّ أهمّيّة ممّن واصلوا دون انقطاع طوال تلك الفترة زياراتهم ومساعيهم ومبادراتهم المتفرقة؛ لإحياء عمليّة السّلام المتعثّرة بالعودة إلى مائدة المفاوضات.

ولعلّ رؤية الرّئيس الأمريكيّ جورج بوش المتعلّقة بما بات يعرف

باسم (حلّ الدّولتين) كانت هي الكلمة المفتاحيّة الأولى لخطّة خريطة الطّريق الّتي تبنّتها فيما بعد اللّجنة الرّباعيّة الدّوليّة، كما اعتمدها مجلس الأمن الدّوليّ في قرار صادر عنه، الأمر الّذي يفسر لنا لماذا ظلّت رؤية حلّ الدّولتين محلّ أخذ ورد طوال السّنوات الطّويلة اللاّحقة، ثمّ اعتبارها حلًّا وحيداً واقعياً ومقبولاً للنّزاع الفلسطينيّ الإسرائيليّ رغم كلّ ما تعرّض له حلّ الدّولتين هذا من إعاقات وعراقيل من جانب الحكومات الإسرائيليّة المتعاقبة، وما طاله من تراجع جراء إهمال الإدارات الأمريكيّة المتتاليّة لمتطلّبات مثل هذا الحلّ المقبول على أوسع نطاق دوليّ.

وعلى هذه الخلفيّة، وجدت من الضّروريّ- عبر صفحات هذه الورقة- التّوقّف بعض الشّيء عند الأحداث والتّطوّرات الأساسيّة المتعلّقة، أو المنبثقة عن رؤية الرّئيس جورج بوش الخاصّة بحلّ الدّولتين، مثل تعديل النّظام السّياسيّ الفلسطينيّ بإحداث منصب رئيس حكومة، وتجربة الأخ محمود عبّاس في هذا المنصب الّذي أشعله لمدّة قصيرة، ثمّ تكليفي بعد ذلك تأليف حكومة جديدة، وتجربتي في الحكومات الثّلاث الّتي ترأستها في عهد الأخ أبي عمّار، ثمّ في عهد الأخ (أبو مازن) مروراً ببعض المفاصل المهمّة من هذا المسار الطّويل، والّتي آثرت أن أمرّ عليها مرور الكرام حتّى لا أشغل القارئ بتفاصيل لا حصر لها، احتواها الكتاب الثّالث المعنون باسم « الطّريق إلى خريطة الطّريق».

لقد كان عليّ بالضّرورة الموضوعيّة أن أتأمّل ملّياً تجربتي الحكوميّة الأخيرة في عهد الأخ الرّئيس أبي مازن؛ كي أتوقّف عن السّرد والشّرح والتّحليل مع ظهور نتائج الانتخابات التّشريعيّة الّتي فازت فيها حركة حماس بأغلبيّة مقاعد المجلس التّشريعيّ عام ٢٠٠٦، بانتظار فتح صفحة أخرى جديدة متّصلة

كليّاً بفترة ما بعد حدوث الانقسام الدّاخلي المرير بين الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة، حيث سأخصّص الجزء اللاّحق- وهو الجزء الرّابع من هذه الرّواية الموجزة عن عمليّة السّلام- للمحادثات الّتي قدّتها عن الجانب الفلسطينيّ مع وزير الخارجيّة الإسرائيليّة تسيبي ليفني عشيّة أو غداة ما عرف فيما بعد باسم « محادثات أنابوليس».

وإذ تتّضح في مدار هذه الرّواية خطّة خريطة الطّريق، وتتجلّى بعض منعرجاتها الجانبيّة في السّياق العامّ لأحداث وتطوّر نحو ستة أعوام(٢٠٠٠-٢٠٠٦) فإنّه لا شكّ لدّي في أنّ القارئ ستعوزه القدرة على رؤية نهايات هذا الطّريق الّذي غرق في وحل التّحركات والانحناءات والتّحوّلات الّتي شهدها الواقع الدّوليّ والإقليميّ، إلى الحدّ الّذي يمكن فيه التّساؤلات بحرقة وألم شديدين: هل كانت هناك حقّاً خريطة طريق، ما دامت النّهايات لم تعدّ مرئيّة، لا بفعل الضّباب السّياسيّ الّذي غمر هذا الطّريق فحسب، وإنما أيضاً بفعل التّطوّرات الّتي جرت طوال الوقت، وغيّرت معالم الطّريق، حتّى لا نقول:إنّها أضاعته فعلاً.

أودّ أن أختم هذا الجزء من موجز عمليّة السّلام المتعلّق بخطّة الطّريق بتلخيص الرّسالة الّتي بعث بها الرّئيس جورج بوش إلى القيادة الفلسطينيّة في ربيع العام ٢٠٠٤؛ وذلك لأهمّيّة هذه الرّسالة الّتي تنطوي على شرح وافٍ لوجهة نظر الإدارة الأميركيّة حيال مثل هذه الخطّة، ثمّ أعيد نشر الرّسالة الّتي تلقّيتها من الرّئيس الأميركيّ ردّاً على رسالتي إليه، كون هذه النّصوص تلخّص مجمل المواقف ووجهات النّظر الّتي كانت سائدة بما في ذلك حلّ الدّولتين وخطّة خريطة الطّريق.

ففي الإعلان الصّادر عن الرّئيس بوش الصّادر عنه يوم ١٤/ ٤/ ٢٠٠٤،

رحّب الرّئيس الأميركيّ بخطّة فكّ الارتباط الّتي ستقوم الحكومة الإسرائيليّة بموجبها بالانسحاب من قطاع غزّة، وعدّ ذلك تقدّماً حقيقيّاً تجاه تحقيق الرّؤية (حلّ الدّولتين) الّتي سبق أن وضعها الرّئيس يوم ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٢؛ لإقامة دولتين تعيشان جنباً إلى جنب في سلام وأمن، وتقدّمان مساهمات حقيقيّة تّجاه السّلام. وأعرب الرّئيس الأميركيّ عن أمله في أنّ الخطوات الّتي ستتبع خطّة الانسحاب من قطاع غزّة سوف تتماشى مع رؤيته هذه، وهو الأمر الّذي سيذكّر جميع الدّول والأطراف المعنيّة بمسؤولياتها الخاصّة طبقاً لخطّة خريطة الطّريق.

وقال الإعلان الرّئاسيّ الأميركيّ: «إنّ هناك مبادئ محدّدة تحظى بقبول واسع النّطاق في المجتمع الدّوليّ، تدلنا على الطّريق للتقدّم إلى الأمام، وهي: حقّ الدّفاع عن النّفس، وضرورة مكافحة الإرهاب، وهما مبدآن يتساويان في الأهمّيّة باتّفاق المجتمع الدّوليّ. وأكّدّ أنّ رؤية الدّولتين وخريطة الطّريق للسّلام الّتي صمّمت من أجل تطبيقها تحظيان بتأييد يكاد يكون عالميّاً كأفضل السّبل للتّوصّل إلى سلام دائم، وإنهاء الاحتلال الإسرائيليّ الّذي بدأ عام ١٩٦٧، حيث تحدّثت قرارات مجلس الأمن الدّوليّ مراراً وتكراراً عن الرّغبة في إنشاء دولتين مستقلّتين: إسرائيل وفلسطين، تعيشان جنبا إلى جنب داخل حدود آمنة ومعترف بها.

وأضاف بوش: «ومع أخذ تلك المبادئ في الاعتبار، فإنّ الولايات المتّحدّة تستطيع أن تصرّح بالتّالي:

١. لا زالت الولايات المتّحدّة ملتزمة برؤية إقامة دولتين تعيشان جنبا إلى جنب في سلام وأمن، وتطبيق ذلك حسب ما نصّت عليه خريطة الطّريق.

وستبذل الولايات المتّحدّة أقصى ما في وسعها للحيلولة دون أيّ محاولة من أيّ طرف لفرض خطط أخرى.

٢. لن يكون هناك أمن للإسرائيليين أو الفلسطينيين إلى أن يشارك كلّ منهما وكلّ الدّول في المنطقة وخارجها معاً في مكافحة الإرهاب وتفكيك المنظّمات الإرهابيّة. وتؤكّد الولايات المتّحدّة التزامها الثّابت بأمن إسرائيل بما في ذلك ضمان حدود آمنة لها يمكن الدّفاع عنها، والمحافظة على دعم وتقوية قدرات إسرائيل في الدّفاع عن نفسها بنفسها ضدّ أيّ تهديد أو مجموعة من التّهديدات المحتملة، وستضمّ الولايات المتّحدة غيرها من أعضاء المجتمع الدّوليّ لتقوية قدرة وعزيمة قوّات الأمن الفلسطينيّة لمكافحة الإرهاب، وتفكيك القدرات الإرهابيّة وبنيته الأساسيّة.

٣. تحتفظ إسرائيل بحقّها في الدّفاع عن النّفس ضدّ المنظّمات الإرهابيّة، وسوف تتبرّع الولايات المتّحدة وتتعاون مع الأردّنّ ومصر وغيرهما من أعضاء المجتمع الدّوليّ من أجل بناء قدرات وعزم المؤسّسات الفلسطينيّة لمكافحة الإرهاب وتفكيك المنظّمات الإرهابيّة، والحيلولة دون أن تصبح المناطق الّتي تنسحب منها إسرائيل مصدر تهديد يمكن مواجهته بأساليب أخرى. وتتفهّم الولايات المتّحدّة أنّه بعد انسحاب إسرائيل من قطاع غزّة ومناطق من الضّفّة الغربيّة، فإنّ الاتّفاقيّات المتعلّقة بشأن التّرتيبات الموجودة حاليّاً المتعلّقة بالسّيطرة على الأجواء والمياه الإقليميّة والممرّات البرّيّة بالضّفّة الغربيّة وغزّة سوف تستمرّ.

٤. ما زالت الولايات المتّحدّة ملتزمة بحلّ الدّولتين من أجل السّلام في الشّرق الأوسط حسبما وردت في حزيران- يونيه ٢٠٠٢، وبخريطة الطّريق كأفضل

السّبل لتحقيق تلك الرّؤية. إنّ هدف قيام الدّولتين المستقلّتين قد تكرّر الاعتراف به في اتّفاقيّات وقرارات دوليّة، وما زال مفتاح حلّ النّزاع. إنّ الولايات المتّحدّة ملتزمة التزاماً قويّاً بأمن إسرائيل، وكما يبدو جليّاً فإنّ إطار العمل الواقعيّ المتّفق عليه والعادل النّزيه لإيجاد حلّ لموضوع اللاّجئين الفلسطينيين كجزء من اتّفاق المرحلة النّهائيّة، سيحتاج إلى إرسائه من خلال إقامة دولة فلسطينيّة، وتوطين اللاّجئينالفلسطينين فيها بدلا من توطينهم في إسرائيل.

٥. وكجزء من تسوية السّلام النّهائيّة يجب أن ينبع من خلال المفاوضات بين الأطراف طبقا لقراري مجلس الأمن الدّوليّ رقم ٢٤٢ و ٣٣٨، وعلى ضوء الوقائع الجديدة على الأرض بما فيها المراكز السّكّانيّة الرّئيسة الموجودة في إسرائيل، فمن غير الواقعيّ أن نتوقّع أن تكون نتيجة المفاوضات النّهائيّة عودة كاملة إلى خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩، وقد توصّلت كلّ الجهود السّابقة إلى مناقشة حلّ الدّولتين إلى النّتيجة ذاتها. ومن الواقعيّ أن نتوقّع أنّ أيّ اتّفاق على الوضع النّهائيّ لا يمكن أن يتحقّق إلّا على أساس تغييرات متبادلة يتمّ الاتّفاق عليها بحيث تعكس تلك الحقائق على الأرض.

٦. إنّ الولايات المتّحدة تؤيّد إقامة دولة فلسطينيّة تكون قابلة للتّطبيق ومتماسكة (لا فواصل بينها)، ومستقلّة، وذات سيادة حتّى يستطيع الشّعب الفلسطينيّ بناء مستقبله طبقا للرؤية الّتي وضعَتها في حزيران/ يونيه ٢٠٠٢، ومع الطّريق الّذي حدّدته خريطة الطّريق. وسوف تنضمّ الولايات المتّحدّة إلى أعضاء آخرين في المجتمع الدّوليّ في دعم ورعاية إقامة مؤسّسات سياسيّة وديمقراطيّة، وقيادة تكون ملتزمة بتلك المؤسّسات، وإعادة بناء المؤسّسات

المدنيّة، ونمو اقتصاد حرّ مزدهر، وبناء مؤسّسات أمن قويّة تكرّس جهودها للمحافظة على القانون والنّظام، وتفكيك المنظّمات الإرهابيّة.

٧. وفقا لما نصّت عليه خريطة الطّريق فإنّه ينبغي على الفلسطينيين وقف النّشاطات المسلّحة وجميع أعمال العنف ضدّ الإسرائيليين في أيّ مكان كانوا وعلى الفور، كما يتحتّم على جميع المؤسّسات الفلسطينيّة الرّسميّة وقف التّحريض ضدّ الإسرائيليين، كما يجب على القيادة الفلسطينيّة أن تتصرّف بشكل حاسم ضدّ الإرهاب بما في ذلك القيام بعمليات مستديمة وفعّالة وموجّهة لإيقاف الإرهاب وتفكيك قدرات الإرهابيين وبناهم التّحتيّة. ويجب على الفلسطينيين القيام بإصلاح سياسيّ شامل وأساسيّ يتضمّن قيام ديمقراطيّة برلمانيّة قويّة، ورئيس وزراء يتمتّع بصلاحيّات واسعة.

٨. إنّ حكومة إسرائيل ملتزمة باتّخاذ خطوات إضافية بشأن الضّفّة الغربيّة، ومنها: التّقدّم نحو تجميد النّشاط الاستيطانيّ، وإزالة البؤر الاستيطانيّة الأماميّة غير المصرّح بها، وتحسين الوضع الإنسانيّ من خلال تخفيف القيود على تحرّك الفلسطينيين الّذين ليسوا ضالعين في أنشطة إرهابيّة.

٩. إنّ تسوية سليمة يتمّ التّفاوض عليها بين الفلسطينيين والإسرائيليين ستكون نعمة كبرى، ليس للشعبين فحسب، وإنّما لشعوب المنطقة قاطبة. وعليه فإنّ على جميع دول المنطقة مسؤوليّات خاصّة، وهي دعم بناء المؤسّسات لدولة فلسطينيّة، ومكافحة الإرهاب، وقطع جميع أشكال المساعدة عن الأشخاص والمجموعات المتورّطة فالإرهاب، والبدء في التّحرّك نحو إقامة علاقات طبيعيّة أكثر مع دولة إسرائيل، فهذه الأعمال هي المساهمات الصّحيحة لبناء صرح السّلام في المنطقة.»

بعد يومين من إعلان الرّئيس جورج بوش بشأن الشّرق الأوسط، أرسلتُ في يوم ١٦/ ٤/ ٢٠٠٤ رسالة إلى الرّئيس الأميركيّ بوصفي رئيس الحكومة الفلسطينيّة، وقد جاء في هذه الرّسالة:

« أكتب إليكم أيّها السّيد الرّئيس، بشأن لقائكم يوم أمس مع رئيس الحكومة الإسرائيليّة أرئييلشاروون، والمؤتمر الصّحفيّ الّذي تلا ذلك اللّقاء بما في ذلك رسائل الضّمانات بين إسرائيل والولايات المتّحدة.

نحن نعتقد أنّ الموقف الإسرائيليّ الرّاهن يتجاوز الجانب الفلسطينيّ في شؤون تقع في صلب الاتّفاق النّهائيّ بين إسرائيل ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، الأمر الّذي لن يؤدّي إلى سلام. إنّ العالم يقرّ أنّ للشّعب الفلسطينيّ حقوقا مشروعة تقوم على أساس القانون الدّوليّ وقرارات الأمم المتّحدّة والاتّفاقيات، ونحن نؤمن بوجوب احترامها.

وبناءً على مراجعة دقيقة للتّصريحات الصّحفيّة ورسائل الضّمانات، أودّ إبلاغكم أنّنا نرى أنّ ذلك لا يتّفق مع القانون الدّوليّ ومبدأ الأرض مقابل السّلام وخريطة الطّريق، وذلك لأسباب أساسيّة، هي: رفض حقّ العودة للآجئين الفلسطينين إلى ديارهم الّتي فقدوها عام ١٩٤٨، وقبول الاستيطان الإسرائيليّ على الأراضي الفلسطينيّة؛ أي على أرض صودرت بصورة غير قانونيّة من ملّاكها على مدى ٣٦ عاما مضى، وقبول ضمنيّ بضمّ القدس الشّرقيّة المحتلّة، وقبول استملاك الأرض عن طريق القوّة.

بصراحة فإنّ الموقف الّذي تمّ التّعبير عنه في المؤتمر الصّحفيّ ورسائل الضّمانات يتناقض مع ضمانات الإدارة الأميركيّة السّابقة الّتي أُعطيت

للفلسطينيين، ومن ضمنها رسالة ضمانات وزير الخارجيّة جيمس بيكر إلى الفلسطينيين سنة ١٩٩١، والّتي تعارض أيّ إجراءات أحاديّة الجانب تجحف بنتيجة مفاوضات الوضع الدّائم بشأن الحدود، وهي تسمح لإسرائيل مواصلة إيجاد وقائع غير قانونيّة على الأرض، وهذا الموقف يساهم في الاجحاف بنتيجة المفاوضات الثّنائيّة بين الجانبين، لقد بلّغنا الوفد الأميركيّ الّذي التقيناه في أريحا قبل ثلاثة أسابيع أنّ إخلاء قطاع غزّة قد يكون فرصة تاريخيّة بصفته خطوة نحو إنهاء الاحتلال الإسرائيليّ.

وعلى أيّ حال فإنّ رسالة الضّمانات الأميركيّة تبيّن أنّه بينما يحصل الفلسطينيون على مزيد من الأرض في غزّة، فإنّ النّظام الّذي يحكم المنطقة لن يتغيّر؛ فإسرائيل سوف تواصل السّيطرة على المعابر والمجال الجوّيّ والمياه الإقليميّة لقطاع غزّة، الأمر الّذي سيمنع إمكان أن يصبح القطاع - في أيّ حال- عالما صغيراً ونموذجا لدولة فلسطينيّة مستقبليّة. إنّ المعايير الواردة في رسالة ضمانات رئيس الحكومة أرئيل شارون- إن لم تتتغيّر- لن تجعل من إخلاء قطاع غزّة فرصة تاريخيّة أبداً، وإنّما مجرّد تحسين سجن.

إنّ المسألة الأساسيّة في الصّراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ هي ٣٦ عاماً من الاحتلال الإسرائيليّ، واستمرار استملاك الأرض الفلسطينيّة بصورة غير قانونيّة، وإنكار الحقوق الأساسيّة للشّعب الفلسطينيّ، وهي حقوق معترف بها دوليّاً لسائر الشّعوب في أنحاء العالم. وإذا شعر الشّعب الفلسطينيّ أنّ الاحتلال سينتهي، وأنّ مصادرة الأرض ستتوقف، وانّ المستوطنات الإسرائيليّة ستتفكّك، وأنّه سيتمّ إنشاء دولة فلسطينيّة مستقلّة وقابلة للحياة على حدود عام ١٩٦٧ إلى جانب إسرائيل، فإنّني أضمن لكم أنّ السّلام والاستقرار سيسودان أنحاء

المنطقة كافّة؛ فالمفاوضات عبر التّاريخ كانت الوسيلة الّتي يتوقّف من خلالها العنف.

إنّ القيادة الفلسطينيّة ما زالت ملتزمة، وهي مستعدة للبدء فورا بمفاوضات مسار سريع بشأن الوضع الدّائم، تبدأ من النّقطة الّتي توقّفت عندها المفاوضات في طابا سنة ٢٠٠١، وعلى أساس شروط المرجعيّة الّتي اتّفق عليها الطّرفان (الأرض مقابل السّلام)، وتنفيذ قراري مجلس الأمن الدّوليّ ٢٤٢ و ٣٣٨، وإنهاء الاحتلال الإسرائيليّ المتواصل منذ عام ١٩٦٧.

إنّني أحترم تصميمك على إيجاد وسيلة للسير نحو حلّ الصّراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ، وآمل أن تعيد النّظر في الضّمانات الجديدة الّتي قدّمتها الإدارة الأميركيّة إلى الحكومة الإسرائيليّة من أجل دفع مسيرة السّلام، وتحقيق رؤيتك القائمة على حلّ الدّولتين».

بعد ذلك بأقلّ من شهر بعث إليّ الرّئيس جورج بوش برسالة ردّاً على رسالتي آنفة الذّكر، شكرني فيها على الكتابة إليه مباشرة، وأبدى تقديره لملحوظاتي، وقد جاء في نصّ رسالة الرّد هذه:

«كما تعلمون في الأعوام الّتي مضت بعد حرب سنة ١٩٦٧، فإنّ إسرائيل لم تفكّك أيّ مستوطنة من المنطقة الّتي ستصبح جزءاً من الدّولة الفلسطينيّة، وفي خطّة رئيس الحكومة شارون المقترحة، أن تزيل إسرائيل كلّ المستوطنات من غزّة، والعديد من المستوطنات في الضّفّة الغربيّة، إذ تعتبر الأولى سابقة قويّة للانسحاب من الضّفّة الغربيّة، وسيمثّل هذا خطوة جيّدة في اتّجاه التّحضير للسّلام، وفي هذا السّياق رحّبت بقرار رئيس الحكومة شارون.

وقد رأيتم أيضا بيان اللّجنة الرّباعيّة في ٤/ ٥، فقد وافقت على مبادرة رئيس الحكومة شارون، فقد أخذت اللّجنة موقفا جيّدا من النّية المعلنة لرئيس الحكومة شارون بالانسحاب من كلّ مستوطنات قطاع غزّة ومن أجزاء من الضّفّة الغربيّة، إذ إنّها ترحّب وتشجّع هذه الخطوة الّتي ستقدّم قرصة نادرة في البحث عن السّلام في الشّرق الأوسط.

إذا تمّ تطبيق الخطّة فإنّه ستكون هناك فرصة حقيقيّة للتّحرّك إلى الأمام اتّجاه السّلام، وتحقيق الطّموحات الوطنيّة الفلسطينيّة؛ إذ إنّ بناء مؤسّسات الدّولة الفلسطينيّة يمكن أن يبدأ بعد ذلك بجدّيّة في غزّة. إنّني أحثّكم ومجلس وزرائكم على التقاط هذه اللّحظة، واتّخاذ خطوات عمليّة وإيجابيّة تلتقي مع التزاماتكم في خريطة الطّريق، وتجعل الانسحاب الإسرائيليّ من غزّة وأجزاء من الضّفّة الغربيّة نقطة تحوّل في هذا الصّراع الطّويل والمرير، وتحسّن في معيشة الشّعب الفلسطينيّ هناك.

إنّ الولايات المتّحدة ستنضمّ إلى آخرين في المجتمع الدّوليّ لتعزيز تطوير مؤسّسات فلسطينيّة سياسيّة ديمقراطيّة، وقيادة جديدة تلتزم بتلك المؤسّسات، وإعادة بناء المؤسّسات المدنيّة، ونمو اقتصاد حرّ ومزدهر، وبناء المؤسّسات الأمنيّة القادرة والمكرّسة لفرض القانون والنّظام، وتفكيك المنظّمات الإرهابيّة.

لقد قلت في ١٤ نيسان/ آبريل ٢٠٠٤ أنّ الولايات المتّحدة لن تستبق نتائج مفاوضات الوضع النّهائيّ بما في ذلك حدود الدّولة الفلسطينيّة، وأكّدت أنّ قضايا الوضع النّهائيّ كلّها يجب أن يتمّ التّفاوض بشأنها بين الأطراف للوصول إلى نتائج متّفق عليها بشكل متبادل. لقد تناولت هذا الموضوع في خطابي بتاريخ ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٢ أيضاً؛ إذ قلت: «إنّ على الإسرائيليين والفلسطنيين في نهاية المطاف التّعامل

مـع القضايـا الجوهريّـة الّـتي تفصـل بينهـم إذا أرادوا الوصـول إلى سـلام حقيـقيّ، وحـلّ كلّ المطالـب، وإنهـاء الـصّراع بينهـم». ويعـني هـذا أنّ الاحتـلال الإسرائيليّ الّذي بـدأ سـنة ١٩٦٧ سـينتهي مـن خـلال تسـوية متفـاوض عليهـا بـين الأطراف تسـتند إلى قـراري مجلس الأمـن الدّوليّ رقـم ٢٤٢ و ٣٣٨.

أعتقـد أنّ هـذه المفاوضـات يجـب أن تعكـس حقائـق معيّنـة على حيـاة الفلسـطينيين والإسرائيليـين، ومسـتقبل الدّولـة الفلسـطينيّة، وأمـن إسرائيـل كدولـة يهوديّـة. يجب أن يكـون هناك إطـار متّفق عليـه: عادل، ومنصف، وواقعيّ لحـلّ قضيّـة اللاّجئـين الفلسـطينيين.

أنـا أتطلّـع إلى ذلك اليـوم الّذي تبدأ فيه مفاوضـات الوضع الدّائـم، وأيضا إلى انتهـاء الاحتـلال الإسرائيليّ، وانبعاث دولة فلسـطينيّة حـرّة وآمنة.

إنّ الولايـات المتّحـدة تتطلّـع إلى العمـل مـع الفلسـطينيين والإسرائيليـين والدّول العربيّـة الباحثـة عـن السّـلام، ومع أعضـاء اللّجنـة الرّباعيّـة الباحثة عن السّـلام؛ للتّقـدّم على طريـق خريطـة الطّريـق في اتّجـاه سـلام عادل ودائم».

الجزء الرّابع

مفاوضات أنابوليس

منـذ أن انتهت مفاوضات كامب ديفيد سـنة ٢٠٠٠ إلى طريق مسـدود، وفشـل مفاوضـات طابـا الّـتي سـمّيت مفاوضـات اللّحظة الأخـيرة في الأيام الأخـيرة لعهد الرّئيـس كلينتـون في البيـت الأبيـض، فضـلاً عـن انقضـاء نحو سـبع سـنوات من عـدم الاسـتجابة لأيّ مسـعىً لاسـتئناف عمليّة السّـلام، وفوق هـذا وذاك مواصلة الحكومـات الإسرائيليّـة المتعاقبـة ادّعاءهـا القائـل بعـدم وجود شريك فلسـطينيّ، نقـول بعـد ذلك كلّه لاحت في أواسـط عام ٢٠٠٧ بوادر ضئيلة لإحياء عمليّة السّـلام مجـدّداً بقـوّة دفـع أمريكيّـة خالصة، حملـت فيما بعد اسـم عمليّـة أنابلوليس.

في عام ٢٠٠٦ كنّـا قـد أجرينـا انتخابـات تشريعيّة للمـرّة الثّانيّـة في تاريخ قيام السّـلطة الوطنيّـة، وتداولنـا السّـلطة على نحـو لـم يجـرِ نظـير له في العالـم العـربيّ، وتألّفـت لدنيـا حكومـة وفـق الاسـتحقاق الانتخـابيّ الّذي فازت بـه حركة حماس، وجـرى تسـليم السّـلطات إلى الحكومـة الجديـدة الّـتي شـكّلتها حمـاس، وبذلـك أرسـينا معلمـاً نـادراً في الحيـاة الدّيمقراطيّـة البرلمانيّة، حيـث قمت شـخصيّاً بزيارة الأخ إسـماعيل هنيـة الّذي كلّفه رئيس السّـلطة الوطنيّة تأليف الحكومة، وسـلّمته في مقـرّ إقامتـه في غزّة المسـؤوليّة بـكلّ يسر وسـهولة، وعرضت عليـه خدماتي في أيّ محطّـة أو مرحلـة يحتـاج فيها إلى خـبراتي المتواضعـة، علماً أنّـني أبديت تحفظي على إجـراء هـذه الإنتخابـات من حيث المبـدأ، وقد أعلنـت ذلـك للصّحافة حينما

كنت رئيساً للوزراء في ذلك الوقت، وقد دللت على عدم مواقفتي لإجراء إنتخابات تشريعيّة جديدة لأنّ المجلس التّشريعيّ القائم، هو مجلس تشريعيّ إنتقالي مؤقت لمرحلة انتقاليّة مؤقته وحتى لا يفهم أنّ قبولنا بإنتخابات تشريعيّة هذه المرحلة الإنتقاليّة يشير إلى تحويل الإنتقاليّ إلى دائم.

إلّا أنّ هذا الإنجاز الّذي كان مقدّراً له أن يكون شوطاً آخر على الطّريق الطّويل الموصل إلى حياة ديمقراطيّة في دولة فلسطينيّة مستقلّة، بدا كأنّه هدف سجّلناه في المرمى الفلسطينيّ لا في مرمى الأعداء، وتحوّل هذا المنجز الكبير إلى نقطة استعصاء، وأفضى الخيار الدّيمقراطيّ هذا إلى أزمة فاقت كلّ ما سبق أن واجهته مسيرة شعبنا من أزمات سابقة، حيث تحوّلت هذه الأزمة في وقت لاحق إلى نكبة جديدة في قلب النّكبة القديمة، وهو ما جعلنا في وضع ذلك الرّجل الّذي أطلق النّار على قدميّة قبل أن يبدأ الجريّ على مسار ممرّ المارثون.

لقد بدأ الوضع الحكوميّ الجديد يغلق علينا الآفاق، ويسدّ في وجوهنا الدّروب، ويضعنا في موقف دفاعيّ حرج في مواجهة القوى النّافذة في المجتمع الدّوليّ. وبدل أن نتقدّم على إثر ما تحقّق من تطور ديمقراطيّ، تراجعنا خطوات إلى الوراء، وبدأنا نفقد الدّعم الماليّ بالكامل، ناهيك عن فقدان الدّعم السّياسيّ الّذي كنّا في أشدّ الحاجة إليه، واتّسعت في وجوهنا جبهة الخصوم والأعداء، وأغلقنا على أنفسنا النّوافذ القليلة المفتوحة، وانصرفنا إلى معاجلة إمدادات الغذاء والكهرباء والدّواء، والمسائل اليوميّة، وبالنّتيجة واجه نظامنا السّياسيّ تحدّيات أضعفت من قدرته، ودفعت به إلى حافّة الهاوية.

في حزيران/يونيو ٢٠٠٧ استكملت حركة حماس خطّة الاستيلاء على السّلطة الوطنيّة في غزّة، ووضعت بتلك العمليّة الدّمويّة بداية فصل مديد لا سابق له

في تاريخ الحياة السّياسيّة الفلسطينيّة، إذ اختطفت حماس قطاع غزّة المحاصر، وراحت تدّعي شرعيّة منافسة لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، أيّ أنّها أعلنت الانقلاب على الشّرعيّة، الأمر الّذي اقتضى منا العمل على تحصين الوضع في الضّفّة الغربيّة ضدّ أيّ مظهر من مظاهر الفتنة الدّاخليّة، وعلى السّعيّ لاستئناف عمليّة سلام حقيقيّة، مع جهود وحدويّة جادّة، تؤدّي إلى إعادة توحيد الوطن، وتعيد الأمل للشّعب الفلسطينيّ بإمكانيّة وضع نهاية لآلامه المتواصلة، وتقريبه من هدفه المركزيّ بإقامة دولة فلسطينيّة مستقلة عاصمتها القدس.

في خضمّ هذا البحر الهائج من التّطوّرات والتّقلبات، أخذ يتكوّن إجماع لدى الأطراف المعنيّة بحاضر عمليّة السّلام ومستقبلها، على أنّه توجد فرصة بعد مرور أعوام من الجمود، لإيجاد نافذة لتحقيق فرصة تلوح في أفق النّزاع الطّويل، تفتح الطّريق للسّير قدماً بخطوات حثيثة على طريق السّعي للخروج من النّفق المظلم، وكسر حلقة العنف المفرغة والمتدحرجة منذ نحو سبع سنوات، وهو ما جعلنا نقبل التّوافق الّذي قادتّه الولايات المتّحدّة عبر جهود دبلوماسيّة حثيثة أدارتها وزيرة الخارجيّة الاميريكيّة كونداليزا رايس، ثمّ ذهبنا إلى مدينة أنابوليس الأمريكيّة للتّحقّق من وجود مثل هذه الفرصة، والشّروع في تنفيذ الاتّفاقيات، وفي مقدمتها خطّة خريطة الطّريق الّتي كانت قد وضعتها اللّجنة الرّباعيّة الدّوليّة.

وقبل أن أختتمَ هذا التّمهيد التّاريخيّ المختصر لعمليّة أنابوليس، أودّ أن أُشير إلى مشاركتي كمفاوض، أو كرئيس لوفد المفاوضات أواخر سنة ٢٠٠٨، حيث كانت هذه هي آخر مساهمة شخصيّة لي في هذا المسار التّفاوضي الّذي امتدّ أكثر من خمسة عشر عاماً، إذ كنت خلالها أخوض معركة سياسيّة قاسيّة

وصعبـة، اسـتهلكت جلّ وقـتي وجهدي وأعصـابي، ولقد نجحت حينـاً ... وأخفقت في بعـض الأحيـان، إلّا أنّـه لـم يخامـرني أدنى شـك في أنّ هـذه المهمّة (الّـتي أوكلتها إليّ القيـادة الفلسـطينيّة العليـا) كانت مهمّـة نضاليّة حقيقيّة، قمت بها وأنا شـديد الإطمئنـان إلى أنّ كلًّا مـن التّاريـخ والأجيـال المقبلـة همـا الـلّذان سـينصفاني في نهايـة المآل.

في مقابـل ذلـك كلّـه، كان المشـهد الدّاخـليّ الفلسـطينيّ عشـية أنابوليـس قـد انزلـق بوتيرة سريعـة إلى الدّرك الأسـفل، وبـدا الفلسـطينيون كأنهم يعيشـون نكبـة جديـدة. فإلى جانـب العـدوان الإسرائيليّ المتواصل، والاسـتعصاء المسـتمرّ في عمليّـة السّـلام، جـاء هـذا الانقسـام ليأخـذ قطاع غـزّة نحـو انفصال تـامّ عن الضّفّـة الغّربيّـة: سياسـيّاً وإداريّـاً وقضائيّـاً، الأمـر الّذي ألحق أفدح الخسـائر الّتي يمكـن تصوّرهـا لمـشروع وطـنيّ فلسـطينيّ، والّذي بدأ يعيـش منّذ تلـك اللّحظة الفارقـة في مسـار التّطـوّرات تحـت وطـأة تهديـد آخـر جديـد يهـدّد بتقويـض كلّ شيء تحقّـق بصعوبـة، وذلـك إلى جانب كلّ تلـك التّهديـدات الّتي تحيق بنا، وتسـدّ الطّريـق أمامنـا نحـو دولة فلسـطينيّة مسـتقلة.

في واقـع الأمـر، يمكـن تأريـخ بدايـة عمليّـة أنابوليـس في آواخـر تشرين/ نوفمـبر ٢٠٠٧ بالخطـاب الّذي ألّقـاه الرّئيـس جورج بـوش في ٧/١٦ من نفـس العامّ، ودعا فيـه إلى عقـد مؤتمر دوليّ بشـأن السّـلام في الشّرق الأوسـط في خريـف العامّ ذاتـه، وذلـك بعـد عدّة أشـهر من الانقـلاب الدّمـويّ الّذي قامت بـه حركة حماس، ومـا أدّى إليـه ذلـك الانقـلاب مـن نتائـج كارثيّـة، كان في مقدّمتهـا فصـل قطاع غـزّة عن الضّفّـة الغربيّة، ناهيك عن سلسـلة أخـرى من المضاعفـات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهو ما أدّى إلى إعادة تركيز الاهتمام الدّوليّ على المجريات الفلسطينيّة،

الّتي دخلت منعطفاً لا يمكن التّنبؤ بها وفق ما عكسه بيان اللّجنة الرّباعيّة الدّوليّة المنعقدة بعد غياب طويل في آواخر حزيران/يونية.

في ذلك الوقت انعقدت سلسلة من الاجتماعات الدّوريّة المنتظمة بين قيادة منظّمة التّحرير والحكومة الإسرائيليّة(مرّة واحدة كلّ اسبوعين)؛ إذ هدفت إلى تحسين مناخ بناء الثّقة بين الطّرفين، وإلى إيجاد أفق سياسيّ عبر تقديم مبادرات تعكس نفسها على أرض الواقع بما في ذلك الإفراج عن أسرى ومعتقلين، ورفع عدد من الحواجز، وبعث الثّقة في نفوس الفلسطينيين بوجود مخرج في نهاية النّفق، حيث تمّ الاتّفاق على تشكيل وفدين، ترأستُ الوفد الفلسطينيّ، بينما ترأست تسيبي ليفني وزيرة الخارجيّة الإسرائيليّة الوفد المقابل، وذلك بهدف العودة إلى طاولة المفاوضات، وإطلاق عمليّة سلام جدّيّة تشمل موضوعات الحلّ النّهائيّ، وقبل ذلك التّوقّف عن سياسة الاستيطان وبناء جدار الفصل العنصريّ؛ تدليلاً على حسن النّيّة.

وإثر سلسلة قصيرة من اللّقاءات بين كلّ من الرّئيس محمود عبّاس وإيهود أولمرت، بدأ استعدادنا للسّفر إلى نيويورك لحضور اجتماعات الجمعيّة العامّة للأمّم المتّحدّة، حيث عقدنا على هامش اجتماعات الجمعيّة العامّة لقاءً مع الرّئيس جورج بوش وكبار مساعديه، وأوضح لنا بوش فيه إصراره على وضع رؤيته الخاصّة بإقامة دولة فلسطينيّة إلى جانب دولة إسرائيل موضع التّطبيق، ورغبته في إنّجاح المؤتمر الدّوليّ الّذي كان قد دعا إليه قبل نحو شهرين، وقال لنا:» إنّه مصمّم على التّوصل إلى اتّفاق سلام خلال ما تبقى من فترة ولايته الثّانيّة في البيت الأبيض»، وحثّنا بشدّة على الوثوق بجدّيّة الإدارة الأمريكيّة وعزمها على تحقيق ذلك.

وبينما كانت تلك السّلسلة من اللّقاءات تعقد بدعم وتشجيع أمريكيّ للتّقريب بين وجهات النّظر وخلق الأجواء المواتيّة وتضييق الفجوات الواسعة بين الجانبين... كانت إسرائيل تعمل على تثبيط العزائم، وخفض سقف التّوقّعات، وتبديد أيّ رهان يمكن عقده على المؤتمر الدّوليّ الّذي سيعرف بعد إذن بمؤتمر أنابوليس، حيث طرحت إسرائيل بإلحاح لا سابق له على ضرورة اعتراف الفلسطينيين المسبق بيهوديّة الدّولة الإسرائيليّة، وجعلت ذلك شرطاً لإحراز أيّ تقدّم محتمل. وفي مقابل ذلك كانت الولايات المتّحدّة تبدي ثقة متزايدة بنجاح المؤتمر الّذي دعت إليه، وأنّ الجانبيين (الفلسطينيّ والإسرائيليّ) سيتّفقان قبل موعد عقد المؤتمر على إصدار وثيقة مشتركة لطرحها على المؤتمرين في أنابوليس، وذلك لم يحدث رغم التّدخّل النّشط من جانب كونداليزا رايس.

على أيّ حال، ومع مرور مزيد من الوقت المتبقي لعقد مؤتمر أنابوليس المحدّد يوم ٢٠٠٧/١١/٢٧، كان هذا المؤتمر يزداد غموضاً، وكانت أهدافه تزداد التباساً، حيث بدأنا نرى قبل مرحلة حزم الحقائب إلى أنّ هذا المؤتمر لن ينشغل بقضايا الحلّ النّهائيّ، بل سيركز معالجاته على نقطة بداية تمهيديّة؛ لاطلاق عمليّة مفاوضات ثنائيّة حثيثة بشأن القضايا الكبرى المعقدة، أو أنّه سيركّز في أحسن الحالات على خطّة خريطة الطّريق الّتي سبق أن أعتمدتها اللّجنة الرّباعيّة الدّوليّة، بما في ذلك تحسين التّعاون الثنائي بين طرفيّ النّزاع، لتحسين الأداء الأمنيّ والحدّ من إقامة مستوطنات يهوديّة جديدة، وخلق بيئة اقتصاديّة معزّزة بالمساعدات الخارجيّة؛ لإقامة نموذج واعد مقابل نموذج اليأس والحصار الّذي تقدّمه حركة حماس في قطاع غزّة.

كانت الفترة الزّمنيّة الواقعة بين إعلان الرّئيس جورج بوش دعوته

إلى عقد مؤتمر دوليّ للسّلام في الشّرق الأوسط، وبين موعد انعقاد مؤتمر أنابوليس فترة قصيرة، إلّا أنّها كانت حافلة بالمساعي والاتّصالات واللّقاءات التّمهيديّة. فقد عقدنا قبل الوصول إلى أنابوليس سبع جولات تفاوضيّة بين الوفدين الفلسطينيّ والإسرائيليّ، وستّة لقاءات ثنائيّة بيني وبين وزيرة الخارجيّة الإسرائيليّة تسيبي ليفني، إلى جانب عدّة لقاءات فلسطينيّة أمريكيّة، وأخرى مع الأوروبيين والعرب، ناهيك عن الاجتماعات المتواصلة بين الرّئيس (أبو مازن) وإيهود أولمرت، وذلك كلّه لإعداد البيان المشترك المقرّر عرضه على المؤتمرين في أنابوليس بعد وقت قصير، وذلك على نحو يمكّن كلّ الأطراف المعنيّة إدعاء نجاح ذلك المؤتمر العتيد.

عشيّة عقد (أنابوليس) كانت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة كوندالیزا رايس(الّتي أخذت على عاتقها مهمّة عقد المؤتمر) كثيرة الحضور، وبالغة الحرص على تذليل كلّ عقبة يمكن أن تعترض الطريق، واعتبرت ذلك بمثابة تحدٍّ شخصيّ لها، حيث أقامت ما يشبه ورشة عمل متحرّكة بين القدس ورام الله، وقوامها عدّد من الدبلوماسيين رفيعي المستوى، ثمّ أخذت تذرع المحيط جيئة وذهاباً في حركة نمّت عن الخشيّة من ظهور صعوبات مفاجئة بعد أن صار المؤتمر دولياء وتقرّر عقده في ٢٠٠٧/١١/٢٧. وقبيل آخر زيارة لها عشيّة « أنابوليس» كان وفد من كبار مساعدي رايس يزور المنطقة، حيث اجتمع مع الرّئيس (أبو مازن) الّذي قال:»إنّ أولمرت أبلغه موافقة إسرائيل على تشكيل لجنة ثلاثيّة أمريكيّة فلسطينيّة إسرائيليّة، على أنّ تكون الولايات المتّحدّة هي الحكم».

بعد ذلك أتت كوندالزا رايس، وجاءت إلى مكتبي في بيت فتح في رام الله،

حيث أبلغتني أنّه لم يتبق لعقد المؤتمر سوى أسبوعين، وأنها تريد التّركيز على الخروج بخطّة عمل لليوم الّذي يلي عقد المؤتمر، وكيفيّة نجاح المؤتمر في إطلاق مفاوضات حقيقيّة بدلاً من التّركيز على وثيقة مبدئيّة، حيث سيكون من الصعب على الطّرف الإسرائيليّ الدّخول فيها الآن؛ لأنّ الحديث في بداية العمليّة عن المبادئ أو الأسس سيؤدّي إلى ظهور مواقف تفاوضيّة متصلّبة، إلّا أنّ هذه الأسس يمكن الدّخول إليها خلال المفاوضات اللّاحقة وليس في بدايتها، ثمّ إنّ الحديث عن المبادئ سيدفع الجميع للسّؤال عن التّفصيلات، والشّيطان عادة ما يكون في التّفاصيل كما قال عمر سليمان.

وكما كان عليه الحال في اللّقاء الثّنائيّ الّذي عقدته كوندالیزا رايس معي يوم ٢٠٠٧/١١/٥، كان موضوع الوثيقة المشتركة الّتي سبق لرايس أنْ ألحّت عليها قبل افتتاح مؤتمر انابوليس، هو الموضوع ذاته الّذي أنصبّ عليه الاجتماع الموسّع ظهيرة ذلك اليوم في المقاطعة برام الله، حيث انشغلنا مع الأمريكيين بسيناريوهات اليوم التّالي لانتهاء المؤتمر الدّوليّ. وفي مستهل هذا الاجتماع ثمّن الرّئيس أبو مازن التّوصّل إلى اتّفاق مع المبعوثين الأمريكيين على اعتماد الولايات المتّحدّة حكماً في مسألة من نفذّ ومن لم ينفذ التزاماته المنصوص عليها بموجب خريطة الطّريق، لكن هناك مسائل أخرى مثل تشكيل اللّجنة الثّلاثيّة، وتشكيل لجنة إسرائيليّة فلسطينية، مع وجود أمريكيّ لصياغة الوثيقة المشتركة.

لم يبقَ على موعد افتتاح المؤتمر الدّوليّ سوى أيام قليلة، بينما كانت العجلة الدّبلوماسيّة الأمريكيّة تدور بكامل زخمها لاستكمال بعض التّرتيبات اللّوجستيّة؛ كي يأتي افتتاح المؤتمر في إطار مشهد سينمائيّ باذخ،

اعتادت الإدارات الأمريكيّة حسن إخراجه في كلّ المناسبات المماثلة. وفي رسالة الدّعوة الّتي وجهها الرّئيس جورج بوش إلى الرّئيس أبو مازن، أكدّ أنّ التّقدم في اتّجاه تحقيق السّلام سيكون من أهمّ أولويات إدارته خلال السّنة المقبلة، وأنّ (أنابوليس) سيكون نقطة انطلاق المفاوضات الّتي ستقود إلى إقامة دولة فلسطينيّة تحقّق السّلام الفلسطينيّ الإسرائيليّ. كما قرّر بوش عقد اجتماعات منفصلة قبل افتتاح المؤتمر مع كلّ من الرّئيس (أبو مازن) وإيهود أولمرت.

بعد وصولنا إلى مدينة أنابوليس، انتقلنا إلى الفيلا الّتي يقيم فيها الرّئيس جورج بوش، والّذي استقبلنا على سلّم الدّرج مداعباً كلّ فرد، وبالغ في ترحيبه بي قائلاً: « كبير المفاوضين»، وقال لنا إنّه يريد أن يخرج باتّفاق لنصل إلى السّلام المنشود، ثمّ لحق بنا الوفود الثّلاثة الّتي كانت نتهيّأ لدخول قاعة المؤتمر، والّذي تأخّر ساعة كاملة في انتظار ما قد تسفر عنه المحاولة الأخيرة. وفي مرحلة من النّقاش طلبت رايس أن نلتقي في غرفة مجاورة، حيث عرض علينا الأمريكيون نصّاً مطبوعاً للبيان الّذي سيتقدمون به إلى المؤتمر، وبعد ذلك دخلنا جميعاً قاعة المؤتمر.

على أيّ حال، وفي إطار مشهد هوليوديّ، اتّخذ أعضاء الوفود المشاركة مقاعدهم في القاعة الواسعة الّتي كانت تضمّ ممثلين من خمسين دولة، ثمّ دخل الرّئيس جورج بوش وهو يتوسّط الضّيفين الأساسيين: أبو مازن وأولمرت، واتّخذ الثّلاثة مقاعدهم على المنصّة وسط تصفيق طويل من جانب الحضور، وترقب مفعم بالأمل في أحداث انطلاقة جديدة وقويّة في مجرى عمليّة السّلام الّتي تعثّرت طويلاً، وبالفعل فقد ألقى الثّلاثة كلمات افتتاحيّة.

وما أن انتهت الجلسة العلنيّة حتّى بدأت لجنة النّقاش العامّ، فتحدثت

رايـس، ثمّ رفعت الجلسـة لتبدأ جلسـة نقـاش عامّ أخرى على مائـدة الغذاء. ولدى انتهـاء المؤتمـر أجرينـا محادثـات ثنائيّـة مثمـرة مـع عـدد مـن الوفـود، ثـمّ قفلنـا عائديـن إلى تونـس في الطّريـق إلى رام الله.

وبالعـودة قليـلاً إلى داخـل مقـرّ الأكاديميّـة البحريّـة الأمريكيّـة في مدينة أنابوليـس، حيـث جرت وقائع الجلسـة الافتتاحيّـة، فقد أبلغ الرّئيـس جورج بوش الحضور قائلاً: « إنّ الوقت مناسـب كي يحلّ السّـلام في الشّرق الأوسـط»، وأضاف:» إنّ الفلسـطينيين والإسرائيليـين سـيحتاجون إلى العـون الدّوليّ لتحقيـق ذلك»، ثمّ قـال بـوش بعـد اجتماعـه بـكلّ مـن الرّئيـس (أبو مـازن) وإيهـود أولمـرت:» إنّ الوقـت الحـالي مـواتٍ، والقضيّـة عادلـة، وإذا تـمّ بـذل جهد شـاق فإنّـني على يقين مـن أنّ في إمكانهـم النّجـاح»، واليـوم يـدرك كلا الجانيـين أنّ مسـاعدة أحدهمـا للآخـر في تحقيـق أمانيه الخاصة بالذّات يقتضي تأسـيس دولة فلسـطينيّة مسـتقلّة وديمقراطيّة.

وفي ختـام هـذا المؤتمـر الّذي لم يسـتغرق سـوى يوم واحـد أدلى بـوش ببيان مشـترك عن أعمـال « أنابوليس» جاء فيـه:» إنّ المجتمعين توصلـوا إلى ضرورة وضع حـدّ لإراقـة الدّمـاء والمعاناة، وإنّـه تعزيزاً لهـدف إقامة دولتين: إسرائيل وفلسـطين تعيشـان جنبـاً إلى جنـب بأمـن وسـلام، فإنّنـا نوافق على إطـلاق مفاوضـات ثنائيّة وبنيّـة طيّبـة، تفـرض التّوصّـل إلى اتّفاق سـلام يحلّ جميع المسـائل العالقـة بما فيها كلّ القضايـا الجوهريّـة من دون اسـتثناء، وإنّنا سـنبذل كلّ جهد ممكـن للتّوصّل إلى اتّفاقيّـة قبـل نهايـة سـنة ٢٠٠٨، وسـيواصل الرّئيس عبـاس ورئيس الـوزراء أولمرت الاجتمـاع كلّ أسـبوعين لمتابعـة سـير المفاوضـات، ويتعهـد الطّرفان بـأنّ ينفّذا على الفـور التزاماتهمـا بمقتضى خريطـة الطّريق المبنيّـة على الأداء».

وفي واقع الأمر، عدنا بعد ذلك المطاف الاحتفاليّ القصير ونحن أكثر ثقة ممّا كنّا عليه قبل الذهاب إلى ذلك المؤتمر، وبدا لنا أنّه من الممكن إحراز تقدم، لا على صعيد إعادة بناء جسور الثّقة مع الحكومة الإسرائيليّة فقط، بما في ذلك من خطوات إجرائيّة كانت حكومة أولمرت مطالبة بها، وإنما أيضاً لجهة استدراج الجانب الأمريكيّ إلى قلب عمليّة السّلام، والّتي لا غنى لها عن دور أمريكيّ فعّال، حيث بدت لنا الولايات المتّحدّة أنّها انتقلت من دور المراقب والشّاهد قبل مؤتمر أنابوليس إلى دور الوسيط المباشر في مجرى العمليّة التّفاوضيّة، الّتي كان يحرص الجانب الإسرائيليّ على إبقائها دائماً في إطار ثنائيّ بعيدٍ عن تدخّل أيّ طرف ثالث بما في ذلك الولايات المتّحدّة.

والحقّ، إنّ عمليّة أنابوليس كسرت جموداً دام نحو سبع سنوات، أعادة الاعتراف بنا كشريك في صنع السّلام بعد طول إنكار إسرائيليّ، وأحيت مجدّداً حلّ الدّولتين، وخيار المفاوضات السّلمية، وحلّ القضايا الخلافيّة بالحوار، كما حسّنت موقفنا التّفاوضيّ بدرجة كبيرة. وفوق ذلك نحن لم نذهب إلى هذه العمليّة متنازلين عن أيّ من ثوابتنا، ولم نشرع فيها ونحن حيارى متخبطون في رؤيتنا، أو متكلون على حسن نيّة أحد في الجوار أو في ما وراء البحار، وذلك بعد أن أصبحنا أشدّ مراساً من ذي قبل ، وأعمق تجربة من أيّ وقت مضى، وأقدر على فهم قوانين اللّعبة الدّوليّة قياساً بما كنّا عليه في السّابق، وأوسع معرفة بالذّهنيّة الإسرائيليّة، وذلك بعد كلّ هذه التّجارب والخبرات التّفاوضيّة المتراكمة.

وفي المحصّلة، فقد دامت (عمليّة أنابوليس) عاماً كاملاً، انبثقت من خلالها عدّة مؤشّرات أوّليّة تبعث على التّفاؤل باحتمال أن يكون هذا المؤتمر

مختلفاً عن المؤتمرات المماثلة في السّابق؛ إذ بدت لنا الإدارة الأميركيّة في زمن تعثّرها الشّديد في العراق أكثر قناعة من ذي قبل بأنّ حلّ القضيّة الفلسطينيّة هو المفتاح لحلّ مجموعة من الأزمات المتفاقمة في الشّرق الأوسط والعالم الإسلاميّ الأوسع اللّذين أصبحا في واقع الأمر ساحة كبرى للحرب الدّوليّة على الإرهاب، كما بدا لنا الحشد الدّوليّ في أنابوليس (٥٠ دولة ومنظّمة دوليّة) دليلاً إضافيّاً على ارتقاء مركزيّة القضيّة الفلسطينيّة، ورفعة مكانتها على جدول الاهتمامات الدّوليّة الّتي لا حصر لها.

وهكذا بدا لنا أنّ العام الأخير المتبقّي من ولاية جورج بوش في البيت الأبيض كان كافياً لإحراز التّقدّم المنشود على طريق السّلام، وأنّ هجوم السّلام الّذي واصل الجانب الفلسطينيّ شنّه بلا هوادة على مختلف الجبهات الإسرائيليّة والأميركيّة والأوروبيّة قد بدأ يؤتي أكله الأوّليّة، ويَعِدُ بحدوث تحوّلات مهمّة في مواقف سائر الأطراف المعنيّة، ويملي عليها إعادة حساباتها من جديد، تماماً على نحو ما تجلّى عليه الموقف في المراجعات الأميركيّة الأوسع نطاقاً على صعيد الإقليم كلّه، الأمر الّذي أدّى إلى تجديد الانخراط الأميركيّ في عمليّة السّلام، ودفعها لعدد من الدّول في أوروبا والعالم العربيّ إلى إبداء درجة أعلى من الاهتمام بحلّ هذه القضيّة المعقّدة.

وكما سبق قوله، فقد بدت لنا (عمليّة أنابوليس) في حينه مساراً جادّاً في الطّريق لحلّ النّزاع التّاريخيّ... مساراً تحفّ به مساندة دوليّة لا سابق لها منذ مؤتمر مدريد للسّلام عام ١٩٩١، فقد أعادت إسرائيل التزامها معنا ومع المجتمع الدّوليّ بخريطة الطّريق المعلن عنها عام ٢٠٠٣، كما جرى التّوافق في أنابوليس على إقامة جهاز أميركيّ فلسطينيّ إسرائيليّ لمراقبة حسن التّنفيذ، وأنّ المشاركة

العربيّة الكثيفة في المؤتمر أثبتت أنّ لدى الطّرف الفلسطينيّ تغطية عربيّة كاملة، وهو أمر لم نحرزه مثلاً في مؤتمر كامب ديفيد، وهي تغطية اكتسبت أهمّيّتها المضاعفة ممّا عقّب انقلاب حماس الّذي استخدمته إسرائيل للزّعم أن المفاوض الفلسطينيّ لا سلطة له على غزّة.

بعد العودة من أنابوليس تمّ تشكيل عشرة طواقم تفاوضيّة من كلّ جانب، وتمّ تفصيلها كلجان وهياكل ومسارات تفاوضيّة، وقد عملت هذه الطواقم بإشراف لجنة التّوجيه السّياسيّ على قاعدة أنّه إذا لم يتمّ الاتّفاق على كلّ شيء فلا اتّفاق على أيّ قضيّة يعينها. وقد أجرت هذه اللّجان مفاوضاتها بكلّ تكتّم، وتناولت سائر الموضوعات المدرجة على جدول الأعمال المتعلقة بالحلّ الدّائم باستثناء قضيّة القدس الّتي بقيت محصورة في نطاق مفاوضات كلّ من أبي مازن وإيهود أولمرت، وذلك استجابة من الجانب الفلسطينيّ لمطلب ايهود أولمرت وتسيبي ليفني، بعدم تعريض الائتلاف الحكوميّ الإسرائيليّ الهش للانهيار، إذا جرت المفاوضات حول القدس.

بعد ذلك جرت المفاوضات التّالية لمؤتمر أنابوليس في أجواء داخليّة غير مؤاتية، ولاسيّما للجانب الإسرائيليّ الّذي كانت تمثّله حكومة ضعيفة من حيث قاعدتها الائتلافيّة، والّتي كان حزب شاس الدّينيّ أحد أهمّ أركانها، حيث كان يهدّد بالانسحاب من الائتلاف إذا تمّ البحث في قضيّة القدس خلال المفاوضات، كما أدّى تورّط أولمرت في مخالفات قانونيّة، ومنها تهم الفساد الماليّ إلى إضعاف مكانته، الأمر الّذي أدّى في وقت لاحق إلى سحب التّفويض من حكومة تصريف الأعمال الإسرائيليّة اللآزم لعقد اتّفاق شامل، وأدخلَ المفاوضات الّتي استمرّت في تلك الأجواء في ما يشبه حلقة مفرغة لا تعد بشيء جدّيّ.

وهكـذا فقـد أتـت النّتائـج الّـتي أسـفر عنهـا مؤتمـر أنابوليـس على عكس مـا لاح في آفاقـه الأوليّـة مـن آمـال ظلّـت ضئيلة طـوال الوقـت، ورهانـات كانت محـدودة سـلفاً، فبـدت هذه العمليّة السّياسـيّة وكأنّهـا كتاب يضمّ بـين دفّتيه فصلاً واحـداً بـلا خاتمـة، أو عمـلاً مسرحيّـاً من فصـل واحد جـرت وقائعه على خشـبة مـسرح معتم لـم يتمكّن خـلاله الممثّلون مـن أداء أدوارهم المفترضة، ولم يسـتطع المشـاهدون رؤيـة النّهايـة المنطقيّـة الّتي قـادت المخـرج والمنتج والممثّلـين وجمهور المتفرّجـين إلى وضع يمكـن أن نسـمّيه (وضـع اللاّمكان)، وذلك وفـق كلّ ما نطقت بـه الوقائـع التّاليـة على عودة وفدنـا من مدينـة أنابوليـس الأميركيّة.

وبعـد نحـو شـهر مـن عقـد هـذا المؤتمـر، كان التّشـاؤم سـيّد الموقـف لدى معظـم المراقبـين والمنخرطـين في هـذا الحـدث الدّوليّ، حيـث بـدا الإخفـاق هـو العنـوان الأكـثر ملاءمـة لاجتمـاع أنابوليـس، وذلـك نظـراً لإخفـاق الولايـات المتّحـدّة في فـرض وجهـة نظرها على إسرائيـل، لاسـيّما وأنّ الدّولة المحتلّة أسـقطت بعـد أيـام من انتهـاء المؤتمر تلـك الوثيقـة الّتي صدرت عنـه، وقرأها جـورج بوش أمـام عدسـات المصوّريـن الصّحافيـين، كما تراجعت واشـنطن عـن تعهّدها بطرح المبـادئ الـواردة في تلـك الوثيقة على مجلـس الأمـن الدّوليّ كي يصدر بها قـراراً يلزم إسرائيـل الّـتي لا تـودّ أن ترى أيّ قـرارات جديدة صـادرة عن المرجعيّـات الدّوليّة.

كان واضحـاً لنـا منـذ بداية الأمر أنّ الائتـلاف الحكـوميّ الّذي يقوده أولمرت لا يسـير على طريـق مفاوضات الحـلّ النّهائيّ، بل إنّ إسرائيل سـارعت بعد أنابوليس إلى الإعـلان عـن عزمها بناء ٣٠٧ وحدات اسـتيطانيّة في جبل أبـو غنيم في القدس، وهي رسـالة واضحـة من الإسرائيليـين مفادها أنّهم لا يريدون التّفـاوض فعلاً، وأنّ مشروعهـم الوحيـد هـو الاسـتيطان، وأنّ إسرائيـل قـد أخرجـت القدس مـن إطار

المفاوضات بشكل عمليّ، حيث قال متحدّث رسميّ باسم الحكومة الإسرائيليّة في ذلك الوقت إنّ حكومته لم تلتزم ولم تقطع يوماً تعهّداً بتقييد سياستها في القدس، ولم تقبل تنفيذ المرحلة الأولى من خطّة خريطة الطّريق الصّادرة عن الرّباعيّة الدّوليّة.

وعندما بدأت سلسلة المفاوضات التّالية على مؤتمر أنابوليس، اختلفت خطّة العمل الّتي توصلنا إليها مع حكومة إسرائيل والّتي أُعلنت في المؤتمر عن الوثيقة المشتركة الّتي سعى الطّرفان للتّوصّل إليهاقبل الذّهاب إلى أنابوليس، وعن الوثيقة الّتي عملنا عليها خلال المؤتمر، وأعني بها الخطّة الّتي عرضتها وزيرة الخارجيّة كونداليزا رايس خلال زيارتها الأخيرة للمنطقة، وعرفت بخطّة النّقاط الخمس المقبولة من الجانب الإسرائيليّ مع ملاحظة أنّ بيان المؤتمر نصّ على التّنفيذ الفوريّ للمرحلة الأولى من خريطة الطّريق من دون تعبير (الموازي) الّذي كان من المقدّر له أن يسبب إشكاليّات في التّنفيذ.

وبالعودة إلى ورقة المقترحات الأميركيّة الخمسة الّتي طرحتها كونداليزا رايس، وقبلناها نحن، فقد كانت تتضمّن أربع نقاط أساسيّة، وهي:

أولاً: أن يلتزم الطّرفان ببدء تطبيق فوريّ ومتوازٍ للمرحلة الأولى من خريطة الطّريق.

ثانياً: أن يتّفق الطّرفان على تشكيل لجنة ثلاثيّة أميركيّة فلسطينيّة إسرائيليّة لمتابعة التّطبيق الفوريّ لخريطة الطّريق.

ثالثاً: أن يلزم الطّرفان أنفسهما بمواصلة تنفيذ الالتزامات الواردة في خريطة الطّريق حتّى التّوصّل إلى اتّفاق سلام.

رابعاً: ستراقب الإدارة الأميركيّة، وتحكم على تطبيق الجانبين للاستحقاقات المترتّبة عليهما في خريطة الطّريق، واشترطت إسرائيل للموافقة على هذه الورقة إضافة بند خامس، وهو: تنفيذ اتّفاق السّلام في المستقبل، وإن لم يتّفق الطّرفان على ذلك، سيتمّ تنفيذ خريطة الطّريق كما ترى الولايات المتّحدّة. كما طالبت بإضافة يهوديّة الدّولة، وهو ما حدا بالولايات المتّحدّة إلى سحب ورقتها.

على أيّ حال، سارت أمور المفاوضات كما كان مخطّطاً لها من قبل؛ فبعد أوّل اجتماع جرى يوم ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٧ في القدس، وبحضور كلّ من (الرّئيس أبو مازن) وأولمرت وسائر الاعضاء من الجانبين، أصدر الرّئيس أبو مازن قراراً بتشكيل الأطر والمرجعيّات الخاصّة بإدارة عمليّة المفاوضات. ثمّ أصدر في وقت لاحق قراراً آخر حدّد فيه أسماء كلّ من المرجعيّة العليا للمفاوضات، ولجنة المفاوضات، والطّواقم التّفاوضيّة، ولجنة متابعة المفاوضات.

غير أنّه غداة عودتنا من أنابوليس، والشّروع في اتّخاذ الإجراءات الخاصة ببدء عمليّة التّفاوض، باغتتنا إسرائيل في ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٧ بطرح مناقصة لبناء ٣٠٧ وحدات سكنيّة في جبل أبو غنيم، فكان هذا الإعلان الإسرائيليّ بمثابة عمليّة إجهاض مبكّر لكلّ تلك الآمال الضّئيلة النّاجمة عن مؤتمر أنابوليس، الأمر الّذي عزّز لدينا الشّكوك العميقة أصلاً في النّوايا الإسرائيليّة، ودفعنا إلى التّهديد بمقاطعة جلسات الحوار المقرّرة مسبقا، والطّلب من الولايات المتّحدّة بإلحاح التّدخل قبل أن ينهار المسار التّفاوضيّ.

على خلفيّة هذه الواقعة الاستيطانيّة الاستفزازيّة جرى تعليق جدول مواعيد اللّقاءات المتّفق عليها من قبل، وامتنعتُ عن الخوض في غمار عمليّة ستبدو وكأنّها تغطية على النّهب والمصادرة والاستيطان، وظلّ الأمر كذلك حتّى

أواسط الشّهر الأوّل من العام التّالي ٢٠٠٨ إلى أن نجحت الولايات المتّحدّة في عقد اوّل لقاء تفاوضيّ بيني وبين تسيبي ليفني في ١٣/ ١/ ٢٠٠٨.

لقد وصفتُ هذا الاجتماع في حينه على أنّه كان بمثابة وضع المفاتيح في أقفال أبواب مغلقة بإحكام، ومن ثمّة الدّخول عبرها إلى قاعة باردة الأجواء غير مهيأة لاستضافة جلسات طويلة، وإجراء مناقشات جادّة لجدول أعمال ساخن، وهو أمر بدا لي واضحاً في صيغة الأسئلة الجافّة والاستفهامات المفتوحة على فيض من الشّكوك المتبادل.

على خلفيّة هذا الفهم، قرّرنا العودة إلى سياق سريع من الاجتماعات وعلى نحو غير متباعد، حيث عدنا بعد أربعة أيام لعقد اجتماع كان أطول من سابقه، حيث جرى خلاله التّطرّق إلى مسائل عديدة منصبّة على الموضوعات المدرجة على جدول أعمال المفاوضات، إذ كانت الأسئلة الإسرائيليّة منصبّة على العناوين الّتي تشكّل في مجموعها ما يعرف بقضايا الحلّ النّهائيّ، مثل الحدود والمستوطنات والمياه وغيرها من الموضوعات الفرعيّة الّتي كنّا نلحّ عليها في كلّ جولة تفاوضيّة دون أن نجد من الجهة المقابلة غير التّسويف والتّهرب والمراوغة، كما بقينا لا نجد غير الإجابات العموميّة الّتي لا تفصح عن شيء جديد في الذّهنيّة التّفاوضيّة الإسرائيليّة إلّا كسب الوقت وتحريره، إلى جانب المحاولات الإسرائيليّة الدّؤوبة لسبر غور وجهة النّظر الفلسطينيّة، خصوصاً في مسألتيّ القدس واللاّجئين.

بعد تجاوز الإشكالات المترافقة مع بداية هذه العمليّة التّفاوضيّة المتجدّدة على خلفيّة مؤتمر أنابوليس، بدأنا في شهر شباط سلسلة جديدة من الاجتماعات المكثّفة، حيث تسارعت الوتيرة بمعدل اجتماع في الأسبوع وأحياناً اجتماعين، حتّى أنّه يمكن إحصاء تسع جلسات في هذا الشّهر القصير في العادة، وهو ما يشير من حيث الشّكل إلى استعجال، ويرمز إلى وجود رغبة في إنهاء الملفات

المعلّقة، وينطوي في الوقت ذاته على التزام متبادل بالجدول الزّمنيّ المتفاهم عليه من قبلُ.

ومع ذلك فقد بقي الجانب الإسرائيليّ يلتزم قدراً كبيراً من الحذر كلّما طرحنا عليه مطلباً من جملة المطالب، إذ بقيت رئيسة الوفد الإسرائيليّ تواصل طرح الأسئلة عن مسائل فرعيّة من شأنها إبطاء عجلة المفاوضات فقط. وحرصاً منّي على تحقيق أفضل مُناخ سياسيّ ممكن لإنجاح هذه المفاوضات، أصدرت في ذلك الحين قراراً يمنع أعضاء طاقم المفاوضات الفلسطينيّ من الإدلاء بأيّ تصريحات عن سير العمليّة التّفاوضيّة، وذلك للحؤول دون استغلال الطّرف الآخر لما يمكن أن يسمّيه تسريباً متعمّداً من أجل تعقيد الوضع أكثر، وزيادة المصاعب الّتي تسير على حبل مشدود، ويحاذر الوقوع في أيّ هفوة قد تؤدّي إلى تأزيم الوضع داخل الائتلاف الحكوميّ من جانب حزب شاس الدّينيّ.

التزم الوفد الفلسطينيّ المفاوض وكلّ من له صلة بهذه المفاوضات من جانبنا عدم التّعليق أو إبداء وجهة نظر ما دامت المفاوضات جارية على قدم وساق، وهو ما ساعدنا في الحفاظ على سرّيّة هذه العمليّة، وجعلها نهباً لافتراضات وتقديرات مراقبين ليسوا على اطّلاع كافٍ على مجرى النّقاشات الثّنائيّة، وكان ذلك على العكس تماماً من الحال الّذي كان عليه الجانب الإسرائيليّ، والّذي كانت صحفه ووسائل إعلامه تخوض بالعرض والطّول في مسار العمليّة التّفاوضيّة على خلفيّة مشاكل داخليّة إسرائيليّة تسودها مظاهر التّنافس والمماحكة والتّباين بين مكوّنات يهود أولمرت.

لم تتوقّف في المقابل قوى المعارضة الفلسطينيّة بما في ذلك الفصائل الإسلاميّة عند حدود إبداء الرّأيّ المخالف للتّوجّه المركزيّ الفلسطينيّ نحو المفاوضات، وإنّما أخذت تصعّد حملاتها الضّارية لإضعاف المفاوض الفلسطينيّ

أو حتّى تقويض مركزه التّفاوضيّ؛ وذلك من خلال القيام بعمليّات عسكريّة موظّفة لإفشال هذه المفاوضات تماماً كما كان عليه الحال في عهد الرّئيس الرّاحل ياسر عرفات، حيث كانت حركة حماس تُوَقّت عملياتها كلّما كان هناك فرصة سانحة للتّقدّم في مسار العمليّة السّلميّة، إذ كانت تختار موضع عملياتها في بعض الأماكن الأكثر حساسيّة من أجل زيادة حرج القيادة الفلسطينيّة.

في أحد الاجتماعات اللاّحقة الّتي تركّزت على الأفق ركّزتُ من جانبي على حقيقة أنّ الجانب الفلسطينيّ يتطلّع إلى السّلام لا إلى إملاءات باسم الأمن، لذلك فإنّ ما نريده في سياق هذه المفاوضات هو الاتّفاق على ما ستكون عليه الدّولة الفلسطينيّة مستقبلاً، وذلك بأن تكون دولة قادرة على حماية أرضها ومواطنيها وجيرانها، وقلت: «إذا ما سئلت اليوم عن أولوياتي، أقول: «إنهاء الاحتلال، أمّا في المستقبل فهو الأمن والاستقرار والتّنمية، اعتقاداً مني أنّ الشّرط المسبق لتحقيق الأمن بمفهومه الشّامل، هو تحقيق السّلام لا العكس».

وبينما كان التّوتّر يشتدّ في قطاع غزّة، وصل مساعد الخارجيّة الأميركيّة ديفيد والش لحلحلة الوضع، وحلّ العقد الّتي كانت تتراكم في طريق المفاوضات. لقد استقبلتُ والش في مكتبي في أبو ديس، وطالبته أن تكون الإدارة الأميركيّة- وهي راعية أنابوليس- أقلّ انحيازاً لإسرائيل، وأكثر عدالة مع الجانب الفلسطينيّ، وقلت له آنذاك: «إنّ المفاوضات الجارية غير جدّيّة، بل هي أقرب ما تكون إلى نوع من الاتّصالات الاستكشافيّة باعتبار أنّ المفاوضات الحقيقيّة والجادّة المنصوص عليها في بيان مؤتمر أنابوليس لم تبدأ بزخمها الكامل بعد، وإنّه لا يوجد ما سمّيناه بالاشتباك التّفاوضيّ اللاّزم، ولم يتم إلى الآن تشكيل لجان المفاوضات المتّفق عليها في المؤتمر».

أبدينا استعدادنا- في الاجتماعات اللاّحقة بيني وبين تسيبي لفني-

للبحث في الاحتياجات الأمنيّة المتبادلة دون أيّ مبالغات، وتطرقّنا إلى مسألة الاستعانة بالقّوات الدّوليّة لمساعدتنا في بناء قدراتنا الذاتيّة، وقلت إنّنا نقبل بوجود هذه القّوات في أراضينا، ولكنّنا لا نقبل وجود أيّ جنديّ إسرائيليّ معها، ونرفض دخول القوّات الإسرائيليّة تحت أيّ ذريعة، أو وجود محطّات إنذار مبكّر بعد أن غيّرت آليات الحرب الجديدة - ولا سيّما الصّواريخ - مسارح العمليّات الحربيّة. وفي المقابل وافقت لفني على أن نتحدّث حول كلّ القضايا بما فيها القدس، ولكّنها أظهرت أنّها لا تستطيع أن تعلن ذلك صراحة لأسباب ائتلافيّة مفهومة، وقالت: « إنّها ترفض القّوات الدّوليّة لأنها لا تحارب الإرهاب، وتقبل بها لمراقبة الحدود والمعابر».

توالت الاجتماعات وعقد الجلسات بوتيرة أسرع من ذي قبل، وكنّا كلما تقدمنا أكثر على الطّريق التّفاوضيّ، وتعمقنا في بحث المسائل الخلافيّة، وفي استجلاء المواقف المتباعدة، كنّا نكتشف عمق الهوّة القائمة بين مواقف الجانبين، وكنّا نلمس كذلك التّباين في المنطلقات والرّؤى والحيثيّات، ولكنّنا كنّا نرغب في سبر الموقف الإسرائيليّ بشأن تلك القضايا والموضوعات، والتّقدّم نحو إجراء مفاوضات أشمل في كلّ بند على حدّة، ثمّ أجرينا فيما بعد تسمية المساعدين الفلسطينيين من ذوي الاختصاص في الوقت الّذي كانت فيه الأجواء العامّة في الخارج تزداد سخونة، حيث كانت الأوضاع الأمنيّة على حدود قطاع غزّة تتفاقم أكثر، وردود الأفعال الإسرائيليّة على عمليّات إطلاق الصّواريخ تشتدّ حدّة وتتسع نطاقاً، الأمر الّذي كان يعكس نفسه بصورة أو بأخرى على أجواء طاولة المفاوضات.

بعد انتهاء سلسلة الاجتماعات المكثفة الّتي عقدناها في شباط/فبراير ٢٠٠٨ كانت شمس عمليّة أنابوليس قد أخذت تميل إلى الغروب، وكانت فحوى

المـداولات على مـدى الفـترة السّـابقة تنـذر بقـرب الوصـول إلى الحائـط المسـدود، كمـا كانـت البيئـة المحيطة والأجـواء السّياسـيّة المرافقة للمفاوضات تشـير على نحو (كان يـزداد وضوحـاً مـع مـرور الوقـت) إلى أنّ الأمـل الّذي كان في الأمس ضئيلاً قـد بات اليـوم على وشـك التّبـدّد الكامل.

فـفي أواخـر شـهر آذار/مـارس اللآحـق كانـت إرادات القـوى المناهضة لكلّ اتّفـاق محتمـل- ومـن الجانبـين معـاً- قـد غـدت أشـدّ وأقـوى كثـيراً مـن إرادات الرّاغبـين إن وجـدوا، وهـم قلّـة على أيّ حـال، وبـدت احتمـالات حـدوث اختراق في الحائـط المسـدود شـبه معدومـة، حيث كانـت الأمور خـارج طاولـة المفاوضات تشـير آنـذاك إلى أنّ الأرضيّـة السّياسـيّة تتهيـأ لعمليّـة عسـكريّة ضدّ قطـاع غزّة.

فـفي ذلـك الوقـت في شـتاء عام ٢٠٠٨ شـنّت إسرائيـل سلسـلة مـن الغارات الجوّيّـة، المصحوبـة بقصـف مدفعيّ ثقيل على شـمال قطاع غزّة ورافـق ذلك تصعيد وزيـر الحـرب إيهود بـاراك من نبرته التّهديديّة بشـنّ عمليّة عسـكريّة واسـعة ضدّ غـزّة بذريعـة إيقـاف إطـلاق الصّواريخ مـن القطاع الّذي أمسـكت حمـاس بزمام أمـوره، أمّـا الولايات المتّحـدة فقد اكتفت بالدّعـوة إلى وقف إطـلاق الصّواريخ من غـزّة، متجاهلـة ردود الفعل العسـكريّة الإسرائيليّة العمياء ضـدّ النّاس الأبرياء في القطـاع المحـاصر، وهـو الأمر الّذي حمّـل القيادة الفلسـطينيّة على الدّعـوة لايقاف إطـلاق النّـار والكـفّ عـن الغـارات الجوّيّـة. غـير أنّ هذه الدّعـوة ذهبـت إدراج الرّيـاح حـين صعّـدت إسرائيل عدوانها الشـامل ضـدّ القطاع.

وعلى خلفيّـة ذلـك علّقـت القيـادة الفلسـطينيّة جلسـة مفاوضـات كانـت مقـرّرة في ذلـك الحـين، كمـا طلبت عقـد جلسـة لمجلـس الأمـن الدّوليّ. وفي هذه الأثنـاء شـنّت حركة حمـاس هجومـاً سياسـيّاً ضاريّاً ضـدّ السّـلطة الوطنيّة طالبت

فيه بالتّوقف نهائيّاً عن المفاوضات، بينما لم يكن لدينا في واقع الأمر قدرة سياسيّة أو أخلاقيّة للدّفاع عن استمرار المفاوضات المتعثّرة بطبيعة الحال. وبرز في هذه الأجواء توافق دوليّ إقليميّ على قيام مصر بجهد حثيث لوقف إطلاق النّار، وتحقيق تهدئة تؤدّي إلى فتح المعابر المغلقة مع القطاع المحاصر.

وهكذا تكوّن مشهد يشي بكلّ شيء إلّا بإمكانيّة تهيئ الأجواء لاستئناف العمليّة التّفاوضيّة المتوقّفة. إذ إنّنا لم نكن قادرين تحت تلك الأجواء المثقلة بمشاعر الغضب إزاء ما يجري من مجازر في قطاع غزّة على العودة إلى مائدة التّفاوض، إلّا من خلال عقد اجتماع ثنائيّ غير رسميّ بيني وبين تسبي ليفني، حيث نقلت إليها رسالة فلسطينيّة شديدة اللّهجة ضدّ عودة إسرائيل إلى استئناف عمليّات الاغتيال، فضلاً عن تعميق أنشطة الاستيطان، وأكّدت لها أنّ ذلك دمرّ الأجواء الملائمة لاستئناف المفاوضات الّتي عدنا إليها في أواخر آذار/ مارس بفضل وساطة بذلتها كوندليزا رايس، حيث بدت تلك الجلسة الّتي عقدناها في فندق شيراتون بلازا في القدس كأنّها تتمّة لجلسة اللّجان الفنيّة المشتركة، والّتي عقدت قبل ذلك بوقت قليل على مستوى الخبراء.

لقد كنّا في واقع الأمر خلال الجلسات الأولى كمن يدور في حلقة مفرغة؛ كنّا نقف أمام العقبة الكأداء ذاتها، نستهلك الجهد والوقت بلا طائل، بينما كانت أجواء العنف حول قطاع غزّة تنذر بتفاقم الأوضاع الصّعبة أصلاً، وتشي بأنّنا مقبلون على تطوّرات عسكريّة أوسع، قد تفضي إلى اجتياح القطاع المحاصر، وبالتّالي إلى تبهيت عمليّة المفاوضات أكثر ممّا هي عليه في الحقيقة، ومن ثمّة جعلنا غير قادرين على الدّفاع عن أنفسنا أو تبرير استمرارنا في هذه المفاوضات، بينما أزيز الرّصاص ودويّ المدافع يدور في الأسماع.

على أيّ حال كان شهر نيسان/أبريل ٢٠٠٨ شهراً للتّصيد المتبادل بين إسرائيل الّتي وجدت في هذا الخيار ضالتها المنشودة للتّخلص من عبء استمرار المفاوضات المهددّة لإئتلافها الحكوميّ، وبين حركة حماس الّتي وجدت في هذا التّوتّر فرصة سانحة لتكثيف هجومها الضّاري على السّلطة الوطنيّة وحركة فتح ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، وذلك من خلال تسخيف ما يجري من تفاوض لا تشارك الحركة الإسلاميّة فيه، سيّما وأنّها كانت تدّعي أنّها صاحبة الخيار الأجدى والشّرعيّة والأغلبيّة البرلمانيّة، وغير ذلك من المزاعم.

ولعلّ أهمّ الوقائع الّتي جرت في هذا الشّهر كان ذلك الاجتماع الّذي عقدناه في واشنطن يوم ٤/٢٣ مع الرّئيس جورج بوش، والّذي أظهر لنا رغبته في التّوصّل إلى اتّفاق سلام يكون خاتمة لعهده في البيت الأبيض، الأمر الّذي شجّع الرّئيس (أبو مازن) على التّصريح في حينه أنّه لا يزال واثقاً بالقدرة على التّوصّل إلى سلام يؤدّي إلى دولة فلسطينيّة رغم محدوديّة التّقدم في المفاوضات.

والحقّ إنّني أردت من خلال هذا الاستعراض المختصر لأهمّ اللّقاءات والتّطوّرات والمواقف الّتي كانت تفرض نفسها على مناخ المفاوضات) أيّ قبل أن تختم تلك المرحلة أوزارها وتختتم اللّقاءات آجالها (أن أظهر الأجواء السّيرياليّة الغربيّة الّتي كانت تعيشها عمليّة أنابوليس، وهي في الهزيع الأخير من ليلها الطّويل، وذلك إلى أن وضعت الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة نقطة داميّة وكبيرة في آواخر تلك السّنة الّتي كان من المقدر لها أن تكون سنة التّوصّل إلى اتّفاق سلام. ففي أوائل آيار/مايو وصلت كوندالیزا رايس إلى المنطقة تحت وطاة شعور متزايد بأنّ الأمور قد تخرج عن السّيطرة، وأنّ عمليّة أنابوليس الّتي استثمرت فيها رايس مواهبها الدّبلوماسيّة كانت توشك على السّقوط تماماً.

ويبدو أنّ وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة كانت قد وصلت إلى استنتاج مفاده أنّ عمليّة أنابوليس قد دخلت في النّزع الأخير من عمرها القصير، وأنّ جلساتها المتباعدة تشير إلى أنّ العمليّة في طور الاختصار البطيء لمريض فتك به داء عضال، الأمر الذّي جعلها تسعى في جولتها الشّرق أوسطيّة الأخيرة إلى العمل لإيجاد ما يشبه التّعويض عن الفشل والاستعصاء، وذلك من خلال حثّ إسرائيل على تحسين الأوضاع الحياتيّة للنّاس في الضّفّة الغربيّة عبر تخفيف الحواجز العسكريّة، ولمّ الشّمل، وغير ذلك ممّا كانت تعدّ به إسرائيل.

لقد سألتني رايس في اجتماع ثلاثيّ حضرته تسيبي ليفني عمّا تحقق في هذه الجلسات، فقلت لها : إنّ التّقدّم الّذي تحقّق حتّى الآن هو أنّه تمّ استئناف المفاوضات بشأن كلّ القضايا، لكنّنا لم نتوصل إلى أيّ اتّفاق حول أيّ مسألة حتّى الآن.

وكما كان متوقّعاً، فقد انتهى ذلك الاجتماع الثّلاثيّ دون تحقيق أيّ تقدّم يذكر، وقفلت كونداليزا رايس عائدة إلى بلادها تاركة الأمور على حالها لمزيد من التّصعيد على المستويين السّياسيّ والعسكريّ. فمن جهة أولى كانت الأزمة القضائيّة والتّحقيقات الّتي يمرّ بها إيهود أولمرت تزداد تفاقماً، ومن جهة ثانية كانت حركة حماس ترفع نبرة تهديدها بتفجير الأوضاع حول القطاع المحاصر، كما بدا لنا أنّ الجيش الإسرائيليّ قد تلقى أوامر الاستعداد لحرب وشيكة على غزّة. وزاد الطّين بلّه أنّ الاجتماع الّذي عقد في حينه في منتجع شرم الشّيخ، وحضره الرّئيس بوش والرّئيس حسني مبارك والرّئيس أبو مازن غاب عنه إيهود أولمرت.

لقد كان مفاجئاً لنا أنّ وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة الّتي سبق لها أن

غادرت المنطقة بشعور تملؤه خيبة الأمل قد عادت مرّة أخرى في أواسط شهر حزيران/يونيو؛ لتعمل كلّ ما في وسعها لإنقاذ عمليّة أنابوليس الّتي استثمرّت فيها كونداليزا رايس كثيراً، وإجراء عمليّة مراجعة للمفاوضات المتعثّرة لعلّها تنقذ ما يمكن إنقاذه في اللّحظة الأخيرة، حيث جرى عقد اجتماع ثلاثيّ جديد، فيما كانت ساعة الرّمل آخذة في النّفاذ بسرعة قياسيّة، وكنّا في عمليّة سباق مع الزّمن الّذي بات محدوداً من عهد جورج بوش صاحب فكرة حلّ الدّولتين. وفوق ذلك فقد كانت المشكلات الّتي كانت قائمة من قبل لا تزال على حالها، حتّى لا أقول إنّها تفاقمت على نحو أشدّ ممّا كانت عليه فيما مضى، خصوصاً ونحن نرى الاستيطان ماضٍ بكثافة، والوضع المتفجر حول قطاع غزّة ينذر بعواقب وخيمة.

كانت جلسات المفاوضات المنعقدة بحضور كونداليزا رايس، أو غيرها من المبعوثين الأمريكيين تبدو جلسات جدّيّة، وكانت المسائل المثارة فيها لا تتّصل بقلب العمليّة التّفاوضيّة بما في ذلك مسألتي الأمن والحدود، بل كانت هذه الجلسات تبدو وكأنّها تنحو نحو إيجاد حلّ في نهاية الفترة الّتي تسبق مغادرة جورج بوش الوشيكة. لكنّ الوقائع على الأرض كانت في الواقع منفصلة تماماً عمّا كان يدور في أجواء تلك المفاوضات، بل إنّه يمكن القول: إنّ الميدانيّات كانت معاكسة تماماً لمجرى النّقاشات الّتي تطرّقت في بعض الأحيان إلى تفصيلات دقيقة تتعلّق بمستقبل العلاقات بين الدّولة الفلسطينيّة المنشودة وبين دولة إسرائيل .

كانت مجريات الأمور أيضاً تعزّز النّظرة التّشاؤميّة في حينه، حيث كان كلّ ما تشاهده العين المجرّدة، وتسمعه الأذن مباشرة يشير إلى أنّ العقبات القائمة على

طريـق السّـلام يسـتلزم إزالتها حـدوث معجزة، وذلـك إذا كان الهدف هـو التّوصّل إلى اتّفـاق سـلام قبـل انقضاء سـنة ٢٠٠٨. وفي المقابـل كان الجانب الإسرائيليّ يشـيع في وسـائط الإعـلام أجـواءً إيجابيّة، إذ تحـدّث إيهود أولمـرت في حزيـران/ يونيو من السّـنة نفسـها عن حـدوث تقدّم في قضايـا اللاّجئين والحـدود والتّرتيبـات الأمنيّة، وهـو عكـس مـا كان عليـه الحـال في تلـك المفاوضـات، والّـتي كانـت تعـبر مـن اسـتعصاء شـديد إلى اسـتعصاء أشـدّ، لا سـيّما وأنّ إسرائيل كانت تواصل عمليّات الاسـتيطان، وتتهـرّب، في الوقـت ذاته، من اسـتحقاقات عمليّة السّـلام.

في ظـلّ تلك الأجواء التّشـاؤميّة، وعلى أثر سلسـلة من الاتّصـالات مع أركان الإدارة الأمريكيّـة بمـا في ذلـك زيـارة قمت بهـا شـخصيّاً إلى واشـنطن، اقترحت كوندالـيزا رايـس عقد سلسـلة أخـرى من اللقـاءات الثّلاثيّـة في نيويـورك خلال شـهر تموز/يوليـو من ذلـك العام، وذلـك لإنقاذ عمليّـة أنابوليس من الفشـل الّذي بـات يحـدّق بها من كلّ جانـب، ولعلّ مثل هذا الجهـد المكّثف يمكننـا من التّوصّل إلى اتّفـاق سـلام يوقّعـه الرّئيـس جورج بوش بنفسـه قبـل أن يختتـم ولايتين له في البيـت الأبيض، اللّتين شـهدتا حربين على بلدين إسـلاميين(أفغانسـتان، والعراق) على أمـل ألّا يتـم وصـم عهـد بوش الابـن كصانع حرب ضـدّ العرب والمسـلمين.

كنّـا نـدرك في قـرارة أنفسـنا أنّ مـا لـم نتمكّـن مـن تحقيقـة عبر الشـهور الطّويلـة الماضيّـة،(أيّ منـذ انطـلاق عمليّـة أنابوليـس في أواخـر العـام ٢٠٠٧)، لـن نتمكّـن مـن تحقيقـة في غضون الأسـابيع القليلـة المتبقيّـة من عهـد الرّئيس الأمريكـيّ صاحـب رؤيـة حـلّ الدّولتين. ومـع ذلك فقـد كنّا في وضـع لا يتيح لنا سـوى الاسـتجابة لمثـل هـذه الدّعـوات الأمريكيّـة المفعمـة بالنّوايا الحسـنة، كما بـدت لنـا على الاقـل، خصوصـاً وأنّ الانقـلاب الّذي قامـت بـه حمـاس في قطـاع

غـزّة قـد أصبـح حقيقـة قائمة، حيـث راح يعزّز نفسـه بنفسـه مع مـرور مزيد من الوقـت في وجـه السّـلطة الوطنيّـة الّـتي لـم يعدّ لهـا نفوذ كبـير في قطـاع غزّة.

على هـذه الخلفيّـة، لبّيـتُ دعـوة أخرى لزيـارة واشـنطن بعد مرور شـهر على زيـارة مماثلـة، حيـث التقيـتُ وزيـرة الخارجيّـة كونداليزا رايـس في تمـوز من ذلك العـام، فوجدتهـا تشـعر أنّها في سـباق مع الوقـت الّذي كان يمـرّ بسرعـة فائقة، وهو الأمـر الّذي وفّـر لنا فرصة مناسـبة لمطالبـة الإدارة الأمريكيّة بإظهـار جدّيّة أكبر وأكـثر ممّـا سـبق في إطـار معالجاتهـا العقبـات الّـتي كانت تقـف في طريـق التّقدّم نحـو اتّفاق سـلام في الفترة القليلـة المتبقيّة مـن ولاية الرّئيس جـورج بوش، بما في ذلـك القيـان بتدخّـل حـازم لمنع انهيـار عمليّة سـلام كانت تترنح بشـدّة، وتوشـك على السّـقوط، غـير أنّ مـا أفضت إليـه هذه الدّعـوات كان مجرّد الدّعـوة لعقد مزيد مـن اللّقـاءات الثّلاثيّة العاجلة في واشـنطن.

في تلـك الأثنـاء تعـزّزت القناعة السّـائدة لدنيـا أنّ المفاوضـات الثّنائيّة الّتي لـم تحـرز أيّ تقـدّم يذكر تنـذر في واقع الأمـر بمفاوضـات ثلاثيّة مماثلـة من حيث النّتيجـة، وأنّ عمليّـة أنابوليـس- بـكلّ مـا رافقهـا مـن آمـال ضئيلـة، ومـا بُذل فيهـا مـن جهـود كبـيرة- قـد أوشـكت في التاقـع على الوصـول إلى حائط مسـدود، الأمـر الّذي دفـع القيـادة الفلسـطينيّة إلى التّفكـير في إجراء مراجعة عميقة لسـير عمليّـة المفاوضـات هذه، ودراسـة إمكانيّـة وقف الاتّصـالات بالجانـب الإسرائيليّ، خصوصـاً وأنّ التّوتّـر الّذي كان يتصاعـد حـول قطـاع غـزّة، وينذر بحـرب اخرى، كان يضغـط على الجانـب الفلسـطينيّ للقيام بخطوة مـا تتقاطع مع المطالب الشّـعبيّة الدّاعيّـة إلى وقـف هـذه المفاوضات غـير المجدية.

وفي تلـك الأجـواء عقد اجتماع ثنائيّ في القدس اسـتضافه إيهود أولمرت الّذي

كان يتعرّض لضغوط شديدة لترك منصبه جرّاء التّحقيقات القضائيّة الجاريّة في حقّه، وقد حضر ذلك اللّقاء وفد فلسطينيّ ترأسه (الرّئيس أبو مازن) يوم ٢٠٠٨/٨/٦، حيث اتّفق فيه على إجراء مزيد من هذه اللّقاءات، والّتي بدت كلّ واحدة منها وكأنّها الفرصة الأخيرة لإحراز تقدّم ملموس. وحينها أيضاً وصلت كوندالیزا رایس في جولة أخرى، كانت هي السّابعة منذ مؤتمر أنابوليس، أو الزّيارة الثّامنة عشر في غضون عامين، الأمر الّذي كان يعكس حرص وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة على تحقيق شيء ما، تدّونه كأنجاز شخصيّ لها، خصوصاً وأنّها استثمرت الكثير من الجهد في عمليّة أنابوليس المتعثّرة.

وقبل أن ينصرم شهر آب/ أغسطس بأجوائه اللاّهبة، كان رئيس الحكومة الإسرائيليّة الّذي أصبح على العتبة الخارجيّة لمكتبه، يدعو لعقد اجتماع جديد مع الرّئيس أبي مازن، حيث اجتمع الرّئيسان والوفدان المفاوضان في ما بدا كأنه اجتماع وداعيّ، حيث تمّ خلاله طرح قضايا تتعلّق بالاتّفاق المنشود تحقيقه قبل نهاية تلك السّنة، وذلك دون التّمكّن مرّة أخرى من التّوصّل إلى أيّ شيء ذي مغزى، حيث اتّضح لنا بكلّ جلاء أنّ الهوّة العميقة بقيت كما هي على الرّغم من كلّ ما أشاعه أولمرت، وتحدثت عنه تسيبي ليفني من أنّ الأمل لا يزال يحدوهما بالتّوصّل إلى اتّفاق مع الجانب الفلسطينيّ قبل نهاية العام ٢٠٠٨.

أدليتُ في ختام ذلك اللّقاء شبه الوداعيّ بتصريح لوكالة رويترز أوضحت فيه أنّ الجانب الفلسطينيّ رفض خلال اللقاءات مع أولمرت، عرضاً تقدّم به الجانب الإسرائيليّ للتّوصل إلى اتّفاق سلام في ربع السّاعة الأخير؛ لأنّه كان يستثني قضايا جوهريّة مثل القدس واللاّجئين، لا سيّما وأنّ مثل هذا الاتّفاق/ الصّفقة لن يؤدّي إلى إنهاء الاحتلال ولا يفضي إلى نتائج يمكن قبولها والدّفاع

عنها، وقلتُ: تساورني شكوك عميقة في التّوصّل إلى اتّفاق سلام خلال عام ٢٠٠٨، فنحن نريد اتّفاقاً يُنفّذ على الأرض لا أن ينقل إلى المحاكم للتّحكيم مستقبلاً، وأنّ استثناء القدس واللاّجئين لا يقبل به أحد من الفلسطينيين.

وفيما كان الوضع الفلسطينيّ المعقد لا يساعد على التّوصّل إلى مثل هذا الاتّفاق أو غيره، كان الوضع الإسرائيليّ أيضاً لا يساعد بعد أن تمّ تكليف وزيرة الخارجيّة تسيبي ليفني تأليف حكومة جديدة تخلف حكومة أولمرت، كما أنّ الوقت كان ضيّقاً أمام الإدارة الأمريكيّة الرّاحلة عما قريب.

اتّصلت ليفني بي في تلك الأثناء، وقالت لي:» إنّ محادثات السّلام لن تتوقّف، ولن يُعطّلها تأليف حكومة إسرائيليّة جديدة «، ثمّ اجتمعتُ بها في حينه، وصرّحتُ في أعقاب ذلك الاجتماع الاستثنائيّ أنّ اجتماعي بها كان إيجابيّاً وجيّداً، وأنّ ليفني الّتي ترأّست فريق المفاوضات الإسرائيليّ أعادت التّأكيد لي أنّها ستواصل جهودها لإنجاح عمليّة السّلام دون أيّ شروط مسبقة.

وهكذا انتهت (عمليّة أنابوليس) إلى الحائط المسدود مع أنّ المصادر الإسرائيليّة شبه الرّسميّة تحدّثت عن تفاصيل ما جرى في لقاء القمّة الأخير بين إيهود أولمرت والرّئيس أبي مازن، فذكرت أنّ رئيس الحكومة الإسرائيليّة عرض على الوفد الفلسطينيّ ما نسبته ٩٣,٥٪ من أراضي الضّفّة الغربيّة، على أن يتمّ تعويض ألـ ٦,٥٪ من أراضي النّقب، وأنّ أولمرت ينتظر ردّاً فلسطينيّاً على تلك الخطّة الّتي سلّمها للرّئيس محمود عبّاس. وبموجب هذه الخطّة - حسب تلك المصادر- يُعطي الفلسطينيون تواصلاً جغرافيّاً مع الأردّن، مع وعد بحلّ قضيتي القدس واللاّجئين المركزيتين على مدى زمنيّ طويل، ومواصلة المفاوضات إلى أن يتمّ التّوصّل إلى مصالحة تاريخيّة.

غـير أنّـه في حقيقـة الأمر لـم نتوصّـل إلى أيّ خطّة مكتوبـة، بل إنّنـا رفضنا إبـداء الـرّأي في الخريطـة الّتي رسـمها أولمـرت بقلمـه؛ إذ أصرّ الجانب الفلسـطينيّ على ضرورة التّوصّـل إلى اتّفـاق رزمة شـامل لكلّ القضايا المدرجـة على جدول أعمال المفاوضـات الثّنائيّـة، وذلك على قاعدة الاتّفـاق على كلّ شيء، أو لا شيء، وأنّ لا محلّ لاتّفاقيّـة انتقاليّـة مجـتزأة تسـتثني القـدس أو غيرهـا مـن القضايا محـلّ التّفاوض، والّـتي سـبق لاتّفـاق إعـلان المبـادئ أن حدّدهـا قبـل ذلـك بزمـن طويـل، وهو ما يعـني في واقـع الأمـر ضرورة إنهـاء الاحتلال الّذي وقـع في العـام ١٩٦٧ وتبعاته، بما في ذلـك الاسـتيطان وجـدار الفصل العنـصريّ، ناهيك عـن عمليّة تهويـد القدس الجاريّـة على قدم وسـاق.

كان الجانـب الفلسـطينيّ في الواقـع يتعـرّض في تلـك المرحلة لضغـوط هائلة مـن جانـب الولايـات المتّحـدة وإسرائيـل؛ لتوقيـع اتّفـاق إعـلان مبـادئ جديـد، يتمـاشى مـع عـرض إيهـود أولمـرت الخـاصّ بالانسـحابات المقترحـة مـن الضّفّـة الغربيّـة، حيـث كثّفـت الإدارة الأمريكيّـة اتّصالاتهـا بالرّئيـس (أبو مـازن) وبي شـخصيّاً؛ لإقناعنـا بتوقيـع هـذا الاتّفاق قبـل رحيل كلّ مـن جورج بـوش وأولمرت مـن منصبيهمـا، وقيـل في حينـه إنّ دولتـين عربيتين قد شـاركتا في هـذه الضّغوط، وليـس لي علـم بذلـك. فقـد تمسّـكنا بـضرورة إيجاد حلـول شـافيّة لـكلّ القضايا الجوهريّـة حـتّى لـو كان ذلـك على حسـاب تأجيـل عمليّة السّـلام إلى وقـت إضافيّ غـير معلوم.

وهكذا انقضى شـهر أيلول/ سـبتمبر مـن عام ٢٠٠٨ والفجوة الـتي كانت قائمة الا تـزال قائمـة على مـا هي عليه، فقد كان هذا الشّـهر هو شـهر الانتخابات الحزبيّة في إسرائيـل، تلـك الانتخابـات الّتي تمخّضت عن فوز تسـيبي ليفني برئاسـة حزب

كاديما، كما كانت الانتخابات الرّئاسيّة الأمريكيّة تدخل أيامها السّاخنة على نحو لا يتيح لأي إدارة الالتفات إلى ما هو خارج الولايات المتّحدة. ومع ذلك فقد تمّ عقد لقاء أخير (فلسطينيّ إسرائيليّ) قبل أن يترك أولمرت منصبه بصورة نهائيّة، حيث تمّ الاتّفاق في ذلك اللّقاء على قيام إسرائيل بالإفراج عن ٢٠٠ أسير فلسطينيّ، وتعهّد من جانب تسيبي ليفني باستمرار عمليّة المفاوضات الّتي بدأت كأنّها قد فقدت كلّ معانيها .

والحقّ إنّه بعد هذا التّاريخ لم يعد هناك من شيء يذكر فيما يتعلق بالمفاوضات الثّنائيّة المباشرة الّتي تقرّرت في مؤتمر أنابوليس أواخر العام ٢٠٠٧، إذ انشغل الجانب الفلسطينيّ بشؤونه الدّاخليّة، خصوصاً حركة فتح الّتي بدأت الخطوات الأولى من عمليّة طويلة تقود إلى عقد مؤتمر عامّ جديد للحركة طال انتظاره، بينما كان الجانب الإسرائيليّ مستغرقاً في ملفّ الانتخابات الدّاخليّة والمساومات الحزبيّة الخاصّة بتأليف حكومة انتقاليّة برئاسة تسيبي ليفني. أمّا الأمريكيون فكانوا بدورهم قد بدأوا عمليّة العدّ العكسيّ ليوم إجراء الانتخابات الرّئاسيّة المقررّة في أواخر شهر تشرين الثّاني/ نوفمبر، الأمر الّذي يعني أنّ الحديث عن المفاوضات هو مجرّد لغو كلاميّ.

وعليه، فقد دخلت عمليّة أنابوليس في طور النّزع الأخير، وراحت تحتضرُ ببطء شديد، إلى ان تحوّلت إلى جثّة هامدة مع أوّل قذيفة إسرائيليّة انطلقت ضدّ قطاع غزّة في ذلك العدوان الّذي بلغ ذروته أوائل عام ٢٠٠٩، والّذي رسم نقطة كبيرة في آخر السّطر من جملة أنابوليس، والّتي لم تتمكّن الجهود من تقويمها بشكل صحيح بما في ذلك جهود الدّولة العظمى الوحيدة الّتي حصدت فشلاً دبلوماسيّاً جديداً، مضافاً إلى تلك السّلسلة الطّويلة من الجهود الأمريكيّة

الفاشلة المتحقّقة على رؤوس الأشهاد طوال العقود الطّويلة السّابقة، تلك العقود الّتي احتكرت فيها واشنطن جهود الوساطة.

وهكذا كانت مفاوضات أنابوليس الّتي انخرطتُ فيها- كما في كلّ المحطّات التّفاوضيّة السّابقة- بمثابة حلقة أخرى في سلسلة المفاوضات الطّويلة الّتي تمّ افتتاحها في قناة أوسلو ١٩٩٣، واستمرّت أكثر من خمسة عشر عاماً، وكانت حافلة بالاتّصالات والحوارات والمراوغات بما في ذلك مفاوضات كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، وما سبقتها من مفاوضات متعلّقة بخريطة الطّريق، واستكهولم، وواي ريفر وطابا، قبل أن نعود في أواخر العام ٢٠٠٧ إلى القاعدة البحريّة الأميركيّة في ميناء أنابوليس في الحلقة الأخيرة من هذه المفاوضات الّتي غطّت معظم أشهر العام ٢٠٠٨ لأختتم بنفسي هذه المسيرة التّفاوضيّة المرهقة.

لقد انتهت مفاوضات أنابوليس إلى اللاّشيء، وبدت لي كأنّها المحطّة الأخيرة في هذه السّلسلة، ولذلك فإنّني أرغب في أن ألقي نظرة تأمليّة على كامل هذا المسار المثير، أقلّب فيها الوجوه والأحداث والذّكريات، وأستخلص منها النّتائج والعبر، وأبوح بما يمكن البوح به في هذا الزّمن الفلسطينيّ العصيب، مسجّلاً للتاريخ والأجيال أنّني راضٍ عن نفسي إلى حدّ بعيد، وأنّني أعتدّ بمسيرة قدّمت فيها أحسن ما يمكنني تقديمه لخدمة شعبيّ وقضيّتي الوطنيّة بكلّ تفانٍ وإخلاص، وبذلت في غضونها ما أستطيع بذله من جهد ووقت وأعصاب براحة ضمير، علّني أستطيع في نهاية المطاف تعديل الخلل الشّديد في موازين القوّة السّائدة بيننا وبين إسرائيل.

وبنظرة تقويميّة شاملة، فإنّ خيار السّلام الّذي اعتمدناه خياراً استراتيجيّاً، وعبرنا به بقضيّة شعبنا عتبة التّحوّل الّذي أرسى لنا دعائم أوّل سلطة فلسطينيّة

على أوّل أرض متاحة من فلسطين التّاريخيّة، كان خيارا خلافيّا ومحلّ سجالات داخليّة حامية الوطيس، إلّا أنّه ظلّ طوال الوقت الرّافعة الكبرى المجمع عليها إلى أبعد حدّ ممكن داخل الصّفّ الوطنيّ الفلسطينيّ؛ لإدامة الاشتباك مع الاحتلال من فوق الأرض الفلسطينيّة ذاتها، وذلك بعد أن سُدّت الدّروب في المنافي القريبة والبعيدة، وأغلقت الجبهات كلّها في وجوهنا، وكادت أعوام النّفيّ والشّتات أن توديّ بكلّ ما حقّقه شعبنا من إنجازات ومكاسب سياسيّة متفرّقة.

إنّ احتدام السّجال الدّاخليّ الفلسطينيّ بشأن جدوى المفاوضات المترافق مع حالات لا تنتهي من الاستعصاءات التّفاوضيّة كثيراً ما أدّى إلى شعور شخصيّ بعبثيّة ذلك الوضع الّذي وجدنا فيه المرارات وهي تعتصرنا وتضغط على أعصابنا، الأمر الّذي دفعني في بعض الحالات- وهي نادرة في الحقيقة- إلى التّفكير في طلب إعفائي من هذه المهمّة الّتي بدت لي مستحيلة، غير أنّ الشّعور العميق بثقل المسؤوليّة، وخصوصيّة اللّحظة الفلسطينيّة، وتمسّك القائد الرّمز ياسر عرفات بجنوده ودفاعه عنهم حتّى النّفس الأخير، كانت تردّني على الفور إلى إعادة حمل جمرات المسؤوليّة بيدّ عارية، والمضيّ بها قدماً مع إخوتي في النّفق الطّويل الّذي قلّما كان يلوح الضّوء في آخره.

والحقّ إنّ مثل هذا الاحتدام الدّاخليّ- ناهيك عن الشّعور باللّاجدوى في بعض الأحيان- لم يكن قائماً في كلّ الأوقات، ولا سيّما في المراحل الأولى من عمليّة سلام كانت تحرز بعض التّقدّم الطّفيف حيناً، وتتعثّر في أكثر الأحيان، خصوصاً في الفترة الأولى؛ أي في الفترة الّتي كان فيها حزب العمل أثناء ولاية إسحق رابين ثمّ شمعون بيريس لا يزال يقدّم نفسه شريكاً لنا في هذه العمليّة الّتي بدأت تتعثّر على نحوّ اشدّ، بل وتتراجع أغلب الوقت منذ أن عاد حزب

اللّيكـود برئاسـة بنيامـين نتنياهو إلى سـدّة الحكـم عام ١٩٩٦، حيث بـدا لنا الأمر في حينـه- والّذي كنّـا قـد بدأنـاه قبـل ثلاثة أعـوام - قـد وصل إلى حائط مسـدود.

لقـد بدأ الانسـداد مع بدايـة حكومة نتنياهـو الأولى، ثمّ تفاقـم أكثر بعد أن خلفـه إيهـود باراك الّذي مـارس كلّ فنون المراوغـة والتّجاهل لفتـح المفاوضات من جديـد. وأذكـر أنّنا خضنـا في عهد بـاراك مفاوضـات مكثّفة سـبقت وأعقبت أهمّ محطّـة تفاوضيّـة في كامبـد ديفيـد عام ٢٠٠٠، حيث عقدنـا مفاوضات في اسـتكهولم عشـيّة ذلـك المؤتمـر الّذي فشـل فشـلاً ذريعـاً، وعقدنـا محادثـات أخـرى بعده في طابـا المصريّـة قبـل أن يغـادر بـاراك موقعـه بأيـام قليلة، حيـث كان عامـل الوقت الّذي نفـذ بسرعـة إلى جانـب عوامـل أخرى لا حصر لهـا، تتضافر معـاً لمنع حدوث أيّ اخـتراق كان يبـدو لنا على وشـك الحصول.

بعـد أن تـولّى أريئيـل شـارون دفّـة الحكـم خلفـاً لبـاراك، وتغـيّر البيئـة الدّاخليّـة لعمليّة السّـلام المتعـثّرة كي لا نقول أنّهـا انقلبت رأسـاً على عقب، ناهيك عـن تغـيّر البيئة الإقليميّـة، وفوق ذلك التّبـدّل العنيف الّذي شـهدته البيئة الدّوليّة إثـر تلـك العمليّـة الإرهابيّـة الكبـيرة الّتي وقعـت في ١١ أيلـول/ سـبتمبر عام ٢٠٠١، وشروع الولايـات المتّحـدّة في حـرب كونيّة ضـدّ الإرهاب، بدأت في أفغانسـتان، ثمّ انتقلـت إلى العـراق، أقـول: «إنّ ذلك كلّه مكّن شـارون الّذي أعاد احتـلال الضّفّة الغربيّـة في أوائـل عام ٢٠٠٢، ومحـاصرة مقـرّ الرّئيـس الرّاحـل يـاسر عرفـات في رام الله، مـن إظهـار نفسـه كشريـك لجـورج بـوش في الحـرب الشّـاملة ضدّ ما أسـماه الإرهاب الفلسـطينيّ.

وهكـذا وقعـت عمليّة السّـلام المثخنة بالجـراح الرّاعفـات على وجهها طوال الأيـام الّـتي أمضاها شـارون في سـدّة الحكم، حتّى أنّـه عندما قرّر الانسـحاب من

قطاع غزّة من طرف واحد عام ٢٠٠٥، أي بدون التّنسيق مع السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة الّتي كانت لا تزال قائمة في القطاع المحاصر، فقد أعطانا إشارة سلبيّة على أنّ إسرائيل لم تعد في وارد الاستمرار في عمليّة السّلام الّتي انكفأت بدورها مع الانتفاضة الثّانية المعروفة باسم انتفاضة الأقصى، خصوصاً بعد أن تحوّلت هذه إلى أعمال عسكريّة بالغة الضّراوة، أدّت إلى تصفية مادّيّة مباشرة ومنهجيّة لمؤسّسات السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة.

كنّا في تلك المرحلة العصيبة من زمن شارون (وهو أشدّ قادة إسرائيل تطرّفاً) قد خسرنا الزّعيم التّاريخيّ الشّهيد ياسر عرفات في أوضاع موت غامضة، وفي هذه الفترة الانتقاليّة عُهد إليّ باستمرار تولي رئاسة الحكومة الفلسطينيّة الّتي كنت قد بدأتها في عهد الرّئيس الرّاحل أبي عمّار، حيث أجرينا في تلك الفترة القصيرة انتخابات رئاسيّة وأخرى تشريعيّة، أوصلت حركة حماس إلى شغل مقاعد الأكثريّة البرلمانيّة، الأمر الّذي أنهى فترة طويلة من تسلّمي مقاليد تلك الحكومة الّتي نقلتها حسب الأصول إلى رئيس حكومة حماس، ومن ثمّ الدّخول في عهد فلسطينيّ جديد، انتهى بدوره بحدوث ذلك الانقلاب الدّمويّ الّذي خلق واقعاً فلسطينيّاً مريراً لا يزال مستمرّاً حتّى اليوم.

من ناحية أخرى، أدّى دخول شارون في غيبوبة مرضيّة كاملة إلى دفع الولايات المتّحدّة نحو القيام بمراجعة داخليّة لسياساتها الشّرق أوسطيّة، ثمّ حملها ذلك على تجديد مساعيها لإحياء عمليّة السّلام الّتي كانت قد دخلت في موت سريريّ، بالدّعوة إلى تجديد عقد المفاوضات الفلسطينيّة الإسرائيليّة مرّة أخرى، وقد شاركتُ في تلك المفاوضات الّتي عرفت باسم عمليّة أنابوليس الّتي كانت في واقع الأمر آخر محطّة تفاوضيّة انخرطتُ فيها، ولم أتمكّن خلالها من

إحـراز التّقـدّم المنشـود، ولم أتمكّـن أيضاً من الانسـجام في إدارة هـذه المهمّة الّتي كانـت بمثابـة الجهـد المركـزيّ في عملنا الوطـنيّ، فقـد كان العـدوان الإسرائيليّ على قطـاع غـزّة أواخـر العـام ٢٠٠٨ نقطة في آخر سـطر من سـطور هـذه المفاوضات.

وقبـل أن أختتـم هذا الـسّرد الموجز لحكايـتي الطّويلـة مع المفاوضـات أودّ أن أشـير إلى واقعـة لم ترد في سـياق هـذا العرض، وهي أنّه في الأشـهر الأخـيرة من عمر عمليّـة أنابوليـس انتابـني شـعور جارف بحالـة انفصـام تجـاه العمليّـة التّفاوضيّة، وبحالـة من التّشـتّت وعـدم الثّقة جعلتـني أعتقد بعبثيّـة ما نجريه مـن مفاوضات تـراوح مكانهـا، وجعلـني أيضاً أشـعر بالخجل عندمـا كنت أذهب إلى عقد جلسـة جديـدة مـن تلـك المفاوضـات إذ لـم أعـد أجـد لديّ قـدرة على تسـويغ مـا نواصل القيـام بـه في ظـلّ نهـب الأرض، وتهويـد القـدس، وتواصـل إقامـة جـدار الفصل العنـصريّ، فضـلاً عـن ارتفـاع وتيرة العـدوان العسـكريّ ضدّ قطـاع غزّة.

على هـذه الخلفيّـة حدثـت حالـة مـن التّنافر بيـني وبـين الرّئيس (أبـو مازن) الّذي بـدت عليـه الدّهشـة عندما وَقَعَ كلامي اليائس على مسـامعه، فضـلاً عمّا نقله إليـه مـن كانـوا يضيقـون ذرعاً بعلاقة الثّقـة الوطيدة بيني وبينـه منذ ما قبل أوسـلو، كمـا دفـع تصريحي عـن الإحباط من سـير العمليّة التّفاوضيّة بتسـيبي ليفني رئيسـة الوفـد الإسرائيـليّ المفـاوض إلى الاتّصـال بي مسـتفسرة عـن صحّة ما نسـب إليّ من أقـوال. ومـع ذلـك فإنّه لو سـألني سـائل عمّـا إذا كنـتُ نادمـاً على مشـاركتي في هذا المسـار الّذي كان محـلّ خلاف سـياسيّ داخليّ عميـق، لأجبت على الفور بأنّني لسـت نادمـاً على المشـاركة في صنـع الانعطافـة الأكـثر أهمّيّة في مجـرى الـصّراع التّاريخيّ، وهي الانعطافـة الّـتي أدّت إلى قيام أوّل سـلطة فلسـطينيّة منهجيّة.

وفي المحصّلـة شـبه النّهائيّـة، فقـد كان اتّفـاق أوسـلو- وهو بيـت القصيد في

عمليّة السّلام الّتي لم تتقدّم بعده كثيراً، ولم تتآكل مخرجاتها بالمقابل- ثمرة أداء سياسيّ فلسطينيّ حاذق وناجح ورصين، حيث تجلّت فيه الكفاءة الذّاتيّة والحضور الباهر للقيادة الكارزميّة الفلسطينيّة، فضلاً عن الإدراك العميق لمتغيّرات البيئة الإقليميّة، والضّرورات الوطنيّة الملحّة في زمن التّحوّلات الدّوليّة الكاسحة. وبهذا الفهم المؤسّس على مدركات الواقعيّة السّياسيّة الّتي تحلّت بها القيادة الفلسطينيّة، فقد كانت بداية هذه العمليّة بمثابة نهاية لمرحلة انعدام الوزن، وتهافت الموازين، وضعف اليقين الّذي استبدّ بنا منذ نكبة العام ١٩٤٨.

لا شكّ لديّ أنّ اتّفاق أوسلو تحيط به مشاعر سلبيّة مثقلة بخيبة الأمل والمرارة لدى مختلف الأطراف المعنيّة بهذا الاتّفاق الّذي كان بمثابة عمليّة بعث للكيان الفلسطينيّ، وتطويبه كحقيقة سياسيّة غير مسبوقة في تاريخ هذا الصّراع الطّويل، أو قل كفاصلة كبيرة بين حقبتين مختلفتين من زمن الشّرق الأوسط، بدأت تغيّر لدى الطّرفين الرّؤية المتبادلة والمفاهيم السّائدة والخطط والاستراتيجيّات المتقابلة، وتنهي الوضع الشّاذّ في منطقة تضمّ خمسة شعوب تتنازع داخل أربعة كيانات، إذ أرست مبادئ هذا الاتّفاق حجارة الأساس لمعمار الكيان الخامس؛ كيان الشّعب الفلسطينيّ الّذي لم يعد منذ ذلك الحين مجرّد فائض سكّانيّ في إقليم الشّرق الأوسط.

كان اتّفاق أوسلو هذا حصيلة موضوعيّة لميزان قوى ذاتيّة، وإقليميّة، ودوليّة، خلق فيها الفلسطينيون واقعاً سياسيّاً جديداً أدّى إلى إعادة إنتاج أفضل وضع دوليّ مؤاتٍ لهم منذ عام ١٩٤٨، فقد أوجدوا حالة من التّوازن السّياسيّ النّسبيّ كان مفقوداً بينهم وبين إسرائيل، وقلّلوا- إلى حدّ- ما ذلك الخلل الهائل الّذي حكم ميزان الصّراع بينهم وبين عدوهم القوميّ، وراكموا فوق ذلك بعض

عوامـل النّديّـة والتّكافـؤ بينهـم وبين سـائر الأطـراف الّتي لـم تعد منذ ذلـك اليوم تجـادل في إقامـة الكيـان الفلسـطينيّ مـن عدمـه، وإنّما بشـأن حدود هـذا الكيان ومضمونـه وزمـن انبثاقـه كدولـة مسـتقلّة، كمـا لـم يعـد هنـاك دور محتمـل لحلّ القضيّـة الفلسـطينيّة بعيداً عـن أصحابها.

وبعيـداً عـن المسـاجلات الّتي قد تطول بشـأن اتّفـاق أوسـلو الّذي لم يكن اتّفاقـاً مثاليّـاً على أيّ حـال، وإن كان اتّفاقـاً واقعيّـاً وممكنـاً؛ لأنّ الطّرفـين أراداه، ورغبـا في تحقيقـه دون إكـراه في إطـار علاقـة اختياريّـة تقـوم على قاعـدة الحـلّ الوسـط، وإيجـاد الفـرص وتعظيـم الأربـاح والمنافع المشـتركة، نقول بعيـداً عن هذه السّـجالات: إنّ هـذا الاتّفـاق صنـع تاريخاً جديـداً في المنطقـة، واتّبـع منهج تحقيق الهـدف المرغـوب فيـه بالتّدريـج على مراحـل زمنيّـة متعاقبـة ومترابطـة ومحـدّدة الأجيـال. ومـع أنّ هـذا النّهـج تعـثّر طويـلاً، إلّا أنّ الغايـة مـن التّدريـج والمرحليّة كانـت صحيحة حسـب المفهـوم الفلسـطينيّ، وهـو ما أحـدث الخـرق التّاريخيّ في جـدار الـصّراع المديـد، إذ أدّى هـذا النّهـج إلى إحـداث اخـتراق في اربعـة مجالات متنوعة:

الاوّل: وضـع إعلان المبادئ المشـترك موضـع التّطبيق العمليّ بـكلّ ما يعنيه تفعيـل المبـادئ مـن سـنّ قوانـين وتشريعـات تتعلّـق بالمرحلـة الانتقاليّـة، وإقامـة حقائـق تمهـد الطّريـق للوصـول إلى مرحلـة المفاوضـات النّهائيّـة بعـد أن يكون قـد تـمّ دحـر الاحتـلال عـن أكـبر مسـاحة ممكنـة مـن الأرض الفلسـطينيّة، وتمّ بنـاء السّـلطة الوطنيّة على قاعـدة متينة من المؤسّسـات الدّيمقراطيّـة، وتحقيق تنمية اقتصاديّـة اجتماعيّـة على أسـاس مـن التّعـاون الاقتصـاديّ والأمـنيّ مـع المحيـط المجـاور بمـا في ذلـك المحيـط الإسرائيليّ.

الثّاني: إحداث اختراق استراتيجيّ نوعيّ على الأرض موضع النّزاع، سواء أكان لجهة تعديل الميزان الدّيمغرافيّ ما أمكن، عبر عودة عشرات الآلاف من المنفى، أم كان لجهة إعادة إعمار وطن خرّبه الاحتلال وحرمه من التّطوّر الطّبيعيّ، وذلك من خلال تمويل عمليّة السّلام. وبمثل هذه المعايير فقد كان اتّفاق أوسلو بمثابة اختراق نوعيّ وخطّة استراتيجيّة طويلة المدى، فهو بمعيار ميزان القوى يعبّر عن استراتيجيّة هجوميّة، وبمعيار المراحل المتعاقبة يمكن النّظر إليه على أنّه تجسيد لاستراتيجيّة الخطوة الأولى، أي على العكس من استراتيجيّة الصّفقة الواحدة قد تحقّق كلّ شيء، وقد لا تحقّق شيئاً على الإطلاق.

الثّالث: إشراك مباشر لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، وكوادرها السّياسيّة، وقواها الأمنيّة الآتية من المنفى في صنع مقوّمات المرحلة الفلسطينيّة الجديدة بما في ذلك تحقيق الاستقرار الأمنيّ الّذي يفتح طريقاً أوسع نحو بناء سلطة وطنيّة مؤهّلة لاجتياز خصائص مرحلة التّحرير الوطنيّ، ثمّ العبور نحو عتبة الدّولة المستقلّة من دون إحداث قطيعة مع ماضٍ لم يمضِ بعد، أو الانزلاق دفعة واحدة إلى لُجّة بحر عميق مليء بالحوّامات القاتلة.

الرّابع: اتّفاق باريس الاقتصاديّ الّذي وضع آليّة لاستعادة الضّرائب المباشرة والرّسوم الجمركيّة الّتي كانت إسرائيل تجبيها من الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة منذ بداية الاحتلال عام ١٩٦٧ لصالح الخزينة الإسرائيليّة. فاتّفاق باريس انتزع حقنّا في انشاء وزارة ماليّة فلسطينيّة تتبعها إدارات ضريبيّة وجمركيّة، وإنشاء سلطة نقد فلسطينيّة سمحت ببدء عمل البنوك الفلسطينيّة والعربيّة رسميّاً، وأكدّ على ولاية السّلطة الوطنيّة في جباية الضّرائب غير المباشرة والجمارك الّتي كانت تجبيها السّلطات الإسرائيليّة لدفعها

لصالح الخزينة الفلسطينيّة، وذلك للإنفاق على المؤسّسات والخدمات التّعليميّة والصّحّيّة وغيرها.

فهذا الاتّفاق الاقتصاديّ هو الّذي مكّن السّلطة الوطنيّة - عبر السّنوات الماضيّة - من تغطية ما يزيد عن ٨٠٪ من موازناتها كمعدل سنويّ من الايرادات الدّاخليّة الّتي تتحقّق عبر اتّفاق باريس، وذلك على الرّغم من أنّ إسرائيل قد تراجعت عن تنفيذ معظم بنود الاتّفاق بعد عام ٢٠٠٠.

وعلى الرّغم من أنّ ضعف الأداء الإداريّ الّذي أدّى إلى قدر كبير في تسرّب هذه الإيرادات الّتي قدّرها البنك الدّوليّ بحوالي ٥٪ من النّاتج المحلّيّ الإجماليّ سنويّاً، وعلى الرّغم من أنّ قطاعاً واسعاً من المستوردين الفلسطينيين الّذين لا يلجأون إلى الاستيراد المباشر، ويستسهلون استمرار العمل كموزعين للمستوردين الإسرائيليين ممّا يحرم الخزينة الفلسطينيّة من إيرادات إضافيّة لايستهان بها، الا إنّ اتّفاق باريس الاقتصاديّ قد حقّق جانباً مهمّاً من مقوّمات السّلطة الفلسطينيّة عبر انتزاع سلطة جباية الضّرائب والجمارك من سلطات الاحتلال، وعبر إنشاء المؤسّسات الوطنيّة، وانتزاع صلاحياتها في إدارة شؤون الاقتصاد الوطنيّ الفلسطينيّ وفقاً للأولويّات الوطنيّة.

كما أنّ المسألة الجوهريّة في اتّفاق أوسلو (وبالتّبعيّة في اتّفاق باريس) هي أنّ المُستَهدف منها كان وضع آليات انتقاليّة مؤقتة لفترة انتقاليّة مؤقتة محدّدة في نصّ الاتّفاق بما لا يزيد عن خمس سنوات، وأنّ عدم إمكانيّة الالتزام بالمدّة الانتقاليّة المحدّدة يعود إلى عوامل متعدّدة، منها بداية التّعنّت الإسرائيليّ، ومنها - بلا شكّ - ضعف الأداء الفلسطينيّ في عدّة مجالات، وأكثرها تأثيراً كان التقاء المصالح في رفض الاتّفاق، وإسقاطه بين أوساط اليمين الإسرائيليّ والمستوطنين

مـن جهة، وبين قوى المعارضة الفلسـطينيّة الّتي سـعت منذ الشّـهور الأولى إلى منع الالتزام بتنفيذ بنوده، وإلى إسـقاط السّـلطة عـبر العمليّات الانتحاريّـة والتّفجيريّة بـين المدنيـين الإسرائيليـين، ممّا قـدّم الذّريعة لأوسـاط اليمـين الإسرائيـليّ للقيام بتعبئـة الـرّأي العـامّ الإسرائيـليّ ضـدّ الاتّفـاق وضـدّ السّـلطة. وقـد أدّى ذلك إلى المزيـد من مصادرة الأراضي، والتّوسـع الاسـتيطانيّ كردّ على العمليـات الإنتحاريّة، وإلى الضّغـط على الحكومـات (ابتـداء مـن عهـد حكومـة رابـين) إلى التّنصّـل مـن الالـتزام بالاسـتحاقات. ومـن جهـة أخـرى، التقت مصالـح وأهـداف اليمين الإسرائيـليّ، مـع اهـداف ومصالـح والمعارضـة الفلسـطينيّة، وتوافقـا كل من وجهة نظـره، على رفـض حـلّ الدّولتـين، وعلى تقويـض السّـعي إلى تحقيق مـشروع الحكم الذّاتيّ كحـلّ دائـم، وحـلّ (الدّولـة الواحـدة) الّتي تأخـذ مضموناً ومحتـوى مختلفاً لدى كلّ منهما.

في الواقـع أتـت النّتائج متواضعة، وظلّت هشّـة ومتلبّسـة، إلّا أنّ هذا الاتّفاق الّذي كان بمثابـة ممـرّ إجبـاريّ لشـعب ناضـل طويلاً، وضـحّى كثيراً مـن أجل حقّه المـشروع في الحرّيّة والاسـتقلال، بـقي تعطيله أمراً ممكنـاً فعلاً، لكـنّ إلغاءه قصّة أخـرى لـم يقـدر عليهـا - ولا يسـتطيعها- أيّ مـن الخصـوم والأعـداء. وأكثر من ذلـك، فـإذا كان الالـتزام بـه ضعيفـاً، فـإنّ التّنصّـل منـه وممّـا أرسـاه مـن حقائق مادّيّـة وسياسـيّة وديموغرافيّـة على الأرض يدخـل في باب المسـتحيلات السّياسـيّة وفـق ما أكّدته كلّ التّطـوّرات اللاّحقة؛ لأنّ الحكومـات الإسرائيليّة المتعاقبة- وكان بعـض رؤسـائها من أشـدّ أعداء اتّفاق أوسـلو- لـم تتمكّن من مقارفة إسـقاطه، أو إعـلان بطلانه رسـميّاً، مـع أنّها تراجعـت عن تنفيذ كثـير من بنـوده، وأجّلت دفع العديـد مـن اسـتحقاقاته، وراوغـت بـلا نهايـة- وهي لا تـزال تـراوغ إلى الآن- في تنفيـذ كلّ بند مـن بنوده.

وعلى الرّغم من معارضة خصوم هذا الاتّفاق، سواء في الجانب الفلسطينيّ أو في الجانب العربيّ، وقولهم كلاماً ضدّ أوسلو أكثر ممّا قاله الإمام مالك في تحريم الخمر، فإنّه لا يزال يحضرني على نحو خاصّ خطاب إسحق شامير في الجلسة الّتي ناقش خلالها الكنيست اتّفاق أوسلو تمهيداً لإقراره، فقد استمعت في حينه إلى ترجمة فوريّة لخطباء تلك الجلسة الطّويلة، واستوقفني ما قاله من بينها زعيم المعارضة اسحق شامير- وهو يخاطب إسحق رابين- بصوت جهوريّ متهدّج: «ماذا دهاك يا إسحق! في أيّ صفحة من كتاب الشّعب اليهوديّ سيدوّن اسمك؟ لقد كان أخطر عدوّ لليهود بعد هتلر، كان يغرق في البحر، فلماذا مدّدت له يدك؟ لماذا أنقذته؟».

إنّني على المستوى الشّخصيّ لا أشعر بالحرج بعد مرور كلّ هذه الأعوام المريرة في أن أضمّ صوتي إلى أصوات منتقدي هذا الاتّفاق، وأزيدهم من الشّعر بيتاً، وهو أنّ هذا الاتّفاق لم يتمكّن من إجراء مفاوضات بشأن حلّ دائم دون المرور بمرحلة الحلول المؤقّتة، فقد كان هذا هو قدر الشّعب الفلسطينيّ منذ أن تمّ البدء بالحديث عن الحلول السّياسيّة في أواسط السّبعينات من القرن الماضي، أي بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، لاسيّما في مؤتمر كامب ديفيد بين الإسرائيليين والمصريين عام ١٩٧٨. ومع ذلك فإنّنا نرى في اتّفاق أوسلو- على الرّغم من كلّ المآخذ عليه- نقطة تحوّل إيجابيّ بمعايير تلك اللّحظة التّاريخيّة الّتي كان فيها حصاد عقود من الكفاح المجيد على وشك أن تذروه رياح التّطوّرات الكبرى.

إنّ علينا اليوم محاكمة هذا الاتّفاق الّذي أسّس لمرحلة مغايرة في مجرى الصّراع التّاريخيّ المديد وفق معطيات الوضع الذّاتيّ الفلسطينيّ آنذاك، بما في ذلك تشتّت قوى الثّورة الفلسطينيّة ورحيل قوّاتها بعيداً عن خطوط وقف

إطلاق النّار، وحالة الحصار السّياسيّ والماديّ الّتي تعرّضت لها منظّمة التّحرير الفلسطينيّة في أعقاب حرب الكويت عام ١٩٩١، فضلاً عن انهيار الاتّحاد السّوفياتيّ الصّديق الصّدوق للشّعب الفلسطينيّ، ناهيك عن انقسام العالم العربيّ على نحو مريع، الأمر الّذي ترك الفلسطينيين بلا حليف دوليّ وبلا غطاء قوميّ، حيث انغلقت أمامهم الدّروب، وجفّت لديهم مصادر التّمويل، وأنذرت بدفع منظّمة التّحرير الفلسطينيّة إلى طريق ذواء يشبه ما آل إليه حال حكومة عموم فلسطين.

إنّني لا أودّ في ختام هذا العرض- لاسيّما في خضمّ هذا اللّيل الفلسطينيّ الطّويل- أنّ أُجمّل اتّفاق أوسلو، إلّا أنّني أرغب في التّذكير بحقيقة أنّ كلّ هذا الانكفاء في مكانة القضيّة الفلسطينيّة ليس من صنع أوسلو بالتّحديد، بل بفعل معطيات أكبر كثيراً من طاقة الشّعب الفلسطينيّ وقدرته على وقف سلسلة الانهيارات الكبرى، أو إجراء أيّ تعديل في ميزان القوى المائل بشدّة لمصلحة عدوّ مدجّج بكلّ عوامل التّفوّق الحاسمة.

فعلى مدى نحو سبعين عاماً ظلّ منحنى خطّ التّفوّق الإسرائيليّ على المحيط العربيّ صاعداً دون انثناء، يرقى من طورٍ إلى طورٍ أشدّ مضاءً، بينما بقيَ منحنى الوضع العربيّ والفلسطينيّ يهبط من درجة كسيفة إلى درجة أدنى على سلّم التّراجع قبل اتّفاق أوسلو وبعده، ولم يحدث أن تقاطع الخطّان ولو لمرّة واحدة إلّا عبر هذا الاتّفاق الّذي تمكّن من كبح خطّ الهبوط الفلسطينيّ بعض الوقت، بفضل ما حقّقه الاتفاق من مكتسبات غير قابلة للإمحاء.

ولعلّ السّؤال الّذي لم يراود خيال السّاخطين على اتّفاق أوسلو هو السّؤال الآتي: هل الحال الفسطينيّ من دون هذا الاتّفاق كان سيصبح أفضل ممّا هو

عليه اليوم؟ وهل أنّ منظّمة التّحرير الفلسطينيّة والنّاطقة باسمهم كانت ستتحسن مكانة او تزداد فاعلية؟ وهل الأرض المحتلّة كانت ستدنو درجة أقرب من عتبة الخلاص من غير هذا الحضور على الأرض موضع الصّراع؟ وهل أنّ الشّتات الفلسطينيّ كان مقدّراً له ألّا يتحلّل في منافيه؟ وأنّ الشّعب الّذي كان بمثابة فائض سكّانيّ في جغرافيا الشّرق الأوسط كان سينجو من مصير هنديّ أحمر بعد ما جرى خلال فترة ما عرف باسم الرّبيع العربيّ؟

الجزء الخامس

المفاوضات المتعدّدة الأطراف

ينتمي هذا الجزء الخاص بتاريخ عمليّة السّلام، من حيث تسلسل الوقائع، إلى فترة ما قبل مسار أوسلو، كونه من مخرجات مؤتمر مدريد للسّلام الّذي انعقد في ١٩٩١/١٠/٣٠؛ أيّ في أعقاب حرب الخليج الأولى، وهو المؤتمر الّذي استضافته الحكومة الإسبانيّة، ورعته كلّ من الولايات المتّحدة والاتّحاد السّوفياتيّ، حيث هدفت المفاوضات المتعدّدة الأطراف في حينه إلى توفير بيئة اقتصاديّة أكثر ملاءمة لقيام تعاون على المستوى الإقليميّ في جميع المجالات، ومن ثمّة توزيع عوائد السّلام على أوسع نطاق.

أدركت الأطرف جميعها أنّ هناك شرطاً مركزيّاً لتحقيق الآمال والتّوقّعات بشأن التّعاون المتبادل والتّنمية المستدامة، إذ من أجل تحقيق مكاسب السّلام ينبغي أن يكون هناك سلام أوّلاً، وأن يكون هذا السّلام مقبولاً من مختلف الأطراف المعنيّة، وأن يُدعم بمشاريع مشتركة على الأرض.

لقد وجدت الأطراف المتفاوضة في إطار مؤتمر مدريد نفسها عالقة في سلسلة من مفاوضات تسير بلا هدى، إلى أنّ حدثت المفاجأة المثيرة في آب/أغسطس ١٩٩٣، ليكتشف العالم أنّ إسرائيل ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، كانتا تتفاوضان سرّاً في أوسلو بعيداً عن المفاوضات الرّسمية الجاريّة علناً، وأنّهما توصلتا إلى اتّفاق الى اتفاق كان بمثابة تحوّل استثنائيّ في عمليّة السّلام العربيّة الإسرائيليّة.

كما أدرك الجميع أيضاً أنّ السّلام لن يكون مستديماً إلّا إذا ترافقت الاتّفاقيّات السّياسيّة مع مسيرة تعاون طويلة الأجل تشمل دول المنطقة كافّة، وكان هذا يتطلّب من إسرائيل والدّول العربيّة أن تضع عداوتها ومخاوفها القديمة جانباً، من أجل ترسيخ نماذج سلوك جديدة، والتّفكير بصورة إبداعيّة في آليّات مؤسّساتيّة لدعم أسس هذه النّشاطات. وكان هذا يتطلّب في الوقت ذاته لا مجرد التزام الأطراف الإقليميّة بعمليّة السّلام فحسب، بل أيضاً تقديم الدّعم الفعّال من جانب المجتمع الدّوليّ، وذلك للحفاظ على أن تظلّ هذه المساعي مستمرة دون توقف، ويكون ذلك باحتضانها ودعمها بكلّ السّبل الممّكنة.

لقد شقّ مهندسو مسيرة السّلام في مدريد مسارين متوازيين للمفاوضات: الأوّل كان المسار الثّنائيّ الّذي هدف إلى حلّ صراعات الماضي، والثّاني كان المسار المتعدّد الأطراف، والّذي هدف بدوره إلى التّركيز على مستقبل الشّرق الأوسط من خلال معالجة المشكلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والبيئيّة الّتي تتخطّى الحدود الوطنيّة، في إطار محاولة لتعزيز الأمن والتّنميّة الإقليميّة على المدى البعيد، وإيجاد حلول عمليّة لمشكلات إقليميّة عابرة للحدود، وهو الأمر الّذي دفع بالمتفاوضين السّياسيين إلى تشكيل مجموعات عمل متخصّصة في إطار ما بات يعرف فيما بعد باسم «المفاوضات متعدّدة الأطراف» على أن تسير هذه المفاوضات بموازاة المفاوضات الثّنائيّة المباشرة.

لقد كان الهدف من كلّ ذلك الجمع بين إسرائيل وجاراتها من الدّول العربيّة، وتوسيع هذه الدّائرة كي تشمل دول الخليج العربي ودول شمالي أفريقيا؛ للبحث في قضايا إقليميّة مهمّة ضمن إطار عمل واسع، وذلك من أجل التّعامل مع قضايا ذات اهتمام متبادل، والّتي قد تخدم إجراءات بناء الثّقة، وتسهيل التّقدّم على المستوى الثّنائيّ.

وهكـذا بـدأت المفاوضـات المتعـدّدة الأطـراف تجري منـذ اللّقـاء التّنظيميّ الافتتـاحيّ في موسـكو كانـون الثّاني/ ينايـر ١٩٩٢. ومنذ ذلك الحين التقى المشـاركون في سـبع جـولات ضمـن خمـس مجموعات عمـل منفصلـة؛ للبحـث في قضايـا المياه والبيئـة واللاّجئين والتّسـلّح والأمـن والتّنميّـة الاقتصاديّة.

وعلى الرّغـم مـن أنّ المفاوضـات متعـدّدة الأطـراف هـذه هي جـزء مُكمّـل لمسـيرة السّـلام، فإنّ مـا يعرف عنهـا كان قليـلاً، لا سـيّما وأنّ التّغطيّـة الإعلاميّة لهـا كانـت محـدودة، والاهتمـام بهـا كان ضئيـلاً. وبالنّتيجـة الموضوعيّة، فـإنّ هناك قليـلاً مـن الـوعي والمعرفـة بطبيعـة هـذه المفاوضـات ذات المحتوى غير السّـياسيّ البحـت، وليـس هنـاك أيضاً معرفـة بكيفيّة عمل تلـك الاجتمـاعات، أو الأجندة والقضايـا الّـتي تمّـت مناقشـتها، ناهيـك عـن العلـم بالمشـاركة الفلسـطينيّة في هـذه المفاوضـات، وإن كان هنـاك مـن يعـرف، فإنّـه لم يكـن يعلم بمحتـوى هذه المفاوضـات الّـتي بقيـت محصـورة في إطـار مجموعـة صغيرة مـن الدّبلوماسـيين.

ورغـم غيـاب الاهتمـام العـامّ، ونـدرة متابعـة وسـائل الإعلام لمجـرى هذه المفاوضـات، فقـد أنتجـت الاجتماعات المتنقلة بـين عدّة عواصم في العالم سلسـلة مـن التّطـوّرات الّـتي كانـت مهمّـة في حـد ذاتهـا في ذلـك الوقـت، حيـث وضعـت المفاوضـات المتعـدّدة الأطـراف أجنـدة واسـعة مـن المشـاريع والأفـكار المشـتركة، ووفّـرت منتـدى فريـداً مـن الاتّصـالات المبـاشرة بـين إسرائيـل وعدد واسـع من الدّول العربيّـة. كمـا أنّ الشّـكوك الّـتي سـادت في بدايـة هذا المسـار غير المسـبوق في تاريـخ صراع الـشّرق الأوسـط، تقلّصـت مـع مـرور الزّمـن، واسـتبدلت بموجة مـن التّفاؤل الحـذر. فقد كان الاعـتراف بأهمّيّـة العنصر الإقليميّ يكسـب رواجاً باستمرار.

ولقد ترافق الإغفال النّسبيّ للمسار المتعدّد الأطراف مع ضعف في التّحليل للدّور الّذي كانت تنهض به هذه العمليّة المعقدة، ومع تقليل في أهمّيّة مساهمة الدّول الدّاخلة في هذه العمليّة. وعليه فإنّ هذا الجزء- وهو الخامس من الكتاب الأشمل- هو رفع مستوى الوعي بهذا الوجه من هذا المسار، وإلقاء الضّوء على القضايا الّتي تمّ البحث فيها في لجنة التّوجيه، وفي كلّ واحدة من مجموعات العمل، ناهيك عن المشاركة الفلسطينيّة، والاستعداد والأداء الفلسطينيّ. كما يلخّص هذا الجزء من الكتاب الإنجازات والإخفاقات، ويقوّم دور المفاوضات المتعدّدة الأطراف في مسيرة السّلام العربيّة الإسرائيليّة إلى جانب المساهمة الّتي قدّمتها في دفع هذه المسيرة.

لقد أفتُتحت المفاوضات المتعدّدة الأطراف في موسكو يوم ١٩٩٢/١/٢٨ بإشراف راعيي عمليّة مدريد؛ الرّوسيّ والأمريكيّ، وبمشاركة ٣٦ دولة، اتّفقت فيما بينها على تشكيل خمس مجموعات عمل منفصلة، حيث ركّزت كلّ واحدة منها على إحدى القضايا الرّئيسة وهي : مصادر المياه، والبيئة، وضبط التّسلّح، والأمن الإقليميّ، واللاّجئون، والتّنميّة الاقتصاديّة الإقليميّة. وقد عقدت الاجتماعات اللاّحقة، وحتّى الجولة المتعلقة بمجموعة العمل الخاصّة بمصادر المياه، والّتي انعقدت في عمّان في حزيران/ يونيو ١٩٩٥، نقول: انعقدت تلك الاجتماعات في مختلف أنحاء العالم بما في ذلك بعض العواصم الأوروبيّة والشّرق أوسطيّة.

في البدايّة رفضت إسرائيل المشاركة في مجموعة العمل الخاصّة باللاّجئين، وأيضاً في اللّجنة الخاصّة بالتّنميّة الاقتصاديّة الاقليميّة؛ نظراً لمشاركة الفلسطينيين في الشّتات. كما رفضت سوريا ولبنان المشاركة في مجموعات

العمـل على الصّعيـد الثّنـائيّ. وكذلـك رفضت إسرائيل المشـاركة في مجموعـة العمل الخاصّـة بضبـط التّسـلح والأمـن الإقليمي؛ ولذلـك فقد تـمّ تجميد هذا المسـار لمدّة خمـس سـنوات بعد قـرار جامعـة الدّول العربيّـة بمقاطعتها، ثـمّ عادت إلى الانعقاد في ٢٠٠٠/١/٣١ بمؤتمـر للجنـة التّوجيـه الوطـنيّ عقـد في موسـكو، حيـث تـمّ خـلاله تحديـد مواعيـد جديـدة لعقـد اجتمـاعات مجمـوعات العمـل الخمـس ابتـداءً من نيسـان/أبريل من السّـنة نفسـها.

وكمـا سـبق ذكره مـن قبل، فقـد انبثقـت المفاوضـات المتعدّدة الأطـراف من مؤتمـر مدريـد للسّـلام عام ١٩٩١ كمسـار مـوازٍ للمفاوضـات الثّنائيّـة، مـن أجـل تحقيـق هدفـين كبيريـن داعبـا خيالات من أسـموا أنفسـهم بـِ(صنّاع السّـلام)، حيـث كان الهـدف الأوّل هـو تسـهيل التّقـدّم على المسـار الثّنـائيّ من خـلال خلق مسـاحة منفصلـة، تتمكّـن فيها إسرائيـل والدّول العربيّـة المجـاورة - بما في ذلك دول الخليـج والمغـرب العـربيّ- مـن البحـث فيما يُعـدُّ من ناحيّـة فنّيّـة قضايا غير سياسـيّة، لكنّهـا كانـت ذات اهتمـام مشـترك بطريقـة يمكـن فيهـا للتّطـوّرات في هـذه القضايـا أن تخـدم في مجـال آخـر، الّا وهي إجراءات بنـاء الثّقة بـين الأطراف المعنيّـة، ومـن ناحيّـة أخـرى، فقـد كان الهدف الثّـاني من هـذه المفاوضـات إحرازَ تقـدّم في نطـاق أوسـع من سـابقه لمصلحـة معالجة مشـكلات المنطقة على مسـتوى إقليميّ.

لقـد سـاهمت مشـاركة المجتمـع الدّولي في هـذه المفاوضـات بجلـب منافـع جزئيّـة ومتفرقـة لـكلّا الاعتبارين المذكوريـن آنفـاً، ونعـني بهمـا حـلّ نـزاعات الماضي بالتّركيز على قضايا سياسـيّة كالسّـيطرة الإقليميّة، والسّـيادة، وترسيم الحدود، والتّرتيبـات الأمنيّـة، والحقوق السّياسـيّة للفلسـطينيين، والّتي كانـت في واقع الأمر

المسألة المركزيّة الكامنة في خلفيّة جلّ تلك اللّجان المتعدّدة الأطراف، بما في ذلك اللّجان الّتي كانت مباحثاتها تدور في إطار إقليميّ أوسع من الشأن الفلسطينيّ في حدّ ذاته.

لقد كانت هذه المفاوضات تركّز على قضايا إقليم الشّرق الأوسط بمعناه الواسع، وتفترض نطاقاً من الموضوعات غير السّياسيّة الّتي تتخطى الحدود الوطنيّة المعترف بها للدّول، فضلاً عن إيجاد الحلول الضّروريّة لتحقيق الأمن، وتشجيع تنميّة اقتصاديّة إقليميّة طويلة الأجل، وكان ذلك من منطلق أنّ مثل هذه القضايا لا تحتمل الانتظار إلى أن يتمّ تحقيق السّلام المنشود في المنطقة، وإنهاء النّزاع العربيّ الإسرائيليّ المديد، وذلك مثل الحاجة إلى ترتيبات تعاون لتعزيز التّنميّة المستدامة، والحفاظ على مصادر المياه وتعزيزها أكثر، والسّيطرة على الانحلال البيئيّ، وما إلى ذلك من قضايا مشتركة.

إنّ الفكرة الجوهريّة في المسار المتعدّد الاطراف هذا كانت تكمن في النّظرة الشّاملة لعمليّة سلام وتعاون دوليّ، بحيث يتمّ إيقاع دول المنطقة في شرك شبكة واسعة من الاعتماد المتبادل؛ اقتصاديّاً وفنّيّاً ورفاهيّاً، وهو الأمر الّذي سيحثّ هذه الدّول على أن تضع جانباً خصوماتها السّياسيّة والأيدبولوجيّة، وذلك من منطلق أنّ التّعاون المستمر في مجالات ذات اهتمام مشترك سوف يضعف العداوات القديمة، ويخلق تصوّراً جديداً للحاجات المتبادلة، وإنّ مثل هذا التّفاعل سيترافق مع مسيرة تعليميّة تحدث تغيراً أساسيّاً في المواقف، وتؤدّي إلى تقارب في التّوقّعات وفي السّلوك، وفي تكوين رؤيّة لفوائد السّلام الحقيقيّ، الأمر الّذي سيساعد على التّقدّم في المفاوضات الثّنائيّة.

كان الغرض الرّئيس لهذا المسار هو جمع الأطراف الإقليميّة معاً، كما

كان هنـاك أيضـاً اعتبـار ثانـويّ، وهو جـرّ المجتمـع الدّوليّ إلى مسـيرة السّـلام بعد أن كان المجتمـع الدّوليّ مسـتبعداً مـن رعايـة مؤتمـر مدريد، ومعزولاً عـن القضايا الجوهريّـة موضـع النّقـاش في المفاوضـات الثّنائيّـة. وأيضـاً فـإنّ البعـد الإقليـميّ للسّـلام والأمـن بجميـع أشـكاله ضروريّ لديمومة طويلـة الأجل لأيّ تسـويّة عربيّة إسرائيليّـة، وهـذا يتطلّب الالتزام المسـتديم للأطـراف الإقليميّـة، ويتطلّب كذلك الدّعـم الفعّـال من المجتمـع الدّوليّ، طالمـا أنّ المفاوضات المتعـدّدة الأطراف مصمّمة لاجتـذاب الخـبرة والتّجربـة، وفـوق هـذا وذاك جـذب المـوارد الماليّـة مـن المجتمع الدّوليّ؛ لتأمـين تسـويّة سياسـيّة شـاملة ودائمة.

لقـد حـدّد وزيـر الخارجيّـة الأمريكـيّ جيمـس يبكـر، في حينـه، الفكـرة مـن وراء مبـادرة المفاوضـات المتعـدّدة هـذه في خطابـه الافتتـاحيّ أمـام الاجتماع التّنظيـميّ في موسـكو في كانـون الثّاني/يناير ١٩٩٢، قائـلاً:» إنّ القصد من المفاوضات المتعـدّدة هي أن تكـون بمثابـة إضافـة مكّملة للمفاوضـات الثّنائيّة، بحيث تسـند كلّ منهمـا الأخـرى، يتـمّ بنـاء مجموعة جديـدة من علاقـات التّعاون والسّـلام بين إسرائيـل والعالـم العـربيّ»، وهـو مـا شـكّل في واقـع الأمـر التزامـاً طموحـاً ومحفوفاً بالحـظّ، أخذتـه واشـنطن على عاتقهـا. وقد عَدَّ كثيرون أنّ توسـيع مسـيرة السّـلام على هـذا النّحـو كان وسـيلة لتهدئة إسرائيـل، وضمان مشـاركتها في مؤتمـر مدريد للسّـلام الّذي انبثقـت عنه مسـارات فرعيّـة منفصلة.

لقـد بـدا في واقع الأمـر أنّ إحضـار إسرائيـل وسـائر الدّول العربيّـة للبحث في مشـكلات ذات اهتمـام مشـترك، ومجـالات تعـاون مسـتقبليّ قبل حـلّ القضايا الأساسـيّة للـنّزاع التّاريـخيّ المديـد، كأنّه ليـس مثاليّاً فحسـب، بل وسـاذجاً أيضاً، وهو مـا أكّدتـه الوقائـع اللاّحقة فيمـا بعد.

فقد تجاهل القائمون على هذا المسار خطأً أنّه بدل من أن تخدم هذه المفاوضات غاياتها المتصورة، وأن تعمل كمنتدى لحوار بناء، فإنّه سيتّم إستخدامها كمنصّة للاحتجاج والجدل العنيف بين الأطراف المنخرطة مباشرة في الصّراع، وبالتّالي فإنّ الفشل المتحمل في هذه المحادثات سيكون له تأثير سلبيّ في مسيرة السّلام، وإنّه سيدّمر عنصر الثّقة بدلاً من بنائه... وكانت هناك قلّة ممن لديهم توقعات بشأن الفوائد الملموسة الّتي قد تنبثق عن هذه المفاوضات.

لقد طرح الافتقار إلى وضوح في تعريف مسائل معنيّة ستخاطبها المفاوضات، والغموض في العلاقات بين المفاوضات المتعدّدة الأطراف والمفاوضات الثّنائيّة، تساؤلات جدّيّة تتعلّق بجدوى المشاركة في المسار المتعدّد. فالأشهر الثّلاثة من التّأخير بين مؤتمر مدريد وعقد الجلسة الافتتاحيّة في موسكو، والافتقار إلى استعداد حقيقيّ من جانب المشاركين في ذلك الاجتماع، أدّت إلى تعميق الشّكوك العميقة أصلاً. وعلى أيّ حال فقد كان مقدّراً لهذا المسار أن ينهار في وقت لاحق، وأن افتراضاته الأوليّة كانت غير مبرّرة.

وبخلاف التّحضيرات المفصّلة والجهود الدّبلوماسيّة الحثيثة الّتي ميّزت مؤتمر مدريد للسّلام، والمفاوضات الثّنائيّة في واشنطن، فقد أحاطت شكوك كبيرة بجلسة افتتاح المفاوضات المتعدّدة في موسكو. وقد كان هناك خلف الأهداف العريضة لهذا المسار فكرة ضئيلة بشأن الموضوعات المعيّنة الّتي سيتمّ تداولها في هذا المنتدى، وتساؤلات عن طريقة إدارة المفاوضات، وكيفيّة سير هذه العمليّة. وبخلاف مؤتمر الأمن والتّعاون في أوروبا- الّذي سبقته ستّة أشهر من المحادثات التّمهيديّة- فإنّه لم يتمّ رسم توجيهات واضحة، أو ترتيبات تأسيسيّة، أو قواعد إجرائيّة مسبقة تولّد ديناميكيّة ذاتيّة ولغة خاصّة.

وفي تقرير سرّيّ وضعته المجموعة الأوروبيّة لتقويم مؤتمر موسكو، رأي الأوروبيون أنّ الأمريكيين قد أعدّوا- كما كان عليه الحال في مدريد- استعراضاً محكم التّنظيم، وأظهرت إجراءاتهم الفعاليّة الشّديدة لواشنطن. وقد تبلور ذلك كلّه من خلال لجنة التّوجيه؛ إذ قدّمت الولايات المتّحدة لإسرائيل الشّرعيّة الدّوليّة من دون المرور بالأمم المتّحدة، وفي الوقت نفسه جمعوا لإسرائيل حول مبادرتهم للسّلام أهمّ الفاعلين الدّوليين الأساسيين لضمان نجاح هذه الفكرة، والّتي بدت من ألفها إلى يائها وكأنها فكرة أمريكيّة خالصة، ناهيك عن حقيقة أنّ واشنطن هي قوّة الدّفع الرّئيسة الّتي وقفت وراء هذا المسار من أساسه.

وبحسب التّقرير الأوروبيّ ذاته، فقد تمّ اقتياد الجميع بقبضة من حديد من جانب الطّاقم الأمريكيّ، والّذي لم يسمح بأيّ انحراف للمؤتمر عن المرجعيّة المحدّدة في مدريد. أمّا بالنّسبة للإسرائيليين فقد قال التّقرير إنّهم استطاعوا « أن يقدّموا مؤشرات الإرادة الحسنة» الّتي لن تكلفهم شيئاً، حيث أنّ مواقف هؤلاء تبنتّها الولايات المتّحدة بشكل مسبق، خصوصاً في موضوع التّمثيل الفلسطينيّ، وتغييب الأمم المتّحدة، فضلاً عن استبعاد المجموعة الأوروبيّة عن أيّ تحرّك فعّال في مجموعة العمل الخارجيّة بضبط التّسلح والأمن الإقليميّ، وبالتّالي فقد شكّلت لجنة التّوجيه ومجموعات العمل سلاحاً خطراً؛ لأنّها منحت إسرائيل حقّاً فعّالاً في استخدام حقّ النّقض، لا سيّما فيما يتعلّق بتمثيل الشّتات الفلسطينيّ.

أمّا بالنّسبة للمشاركين العرب، فقد اعتبر التّقرير الأوروبيّ أنّهم أرادوا أن يظهروا للأمريكيين حقّاً أنّهم أصدقاؤهم، ولهذا أظهروا أنّهم ليسوا مغالين،

وكانت مساهماتهم موجّهة إلى الرأي العامّ عندهم، ومتمحورة حول المطالبة بالإجماع بإقامة مجموعة عمل خاصّة بالقدس، ولجنة أخرى خاصّة بحقوق الإنسان. أمّا الدّول الغائبة كسوريا ولبنان والعراق وليبيا فلم يبد غياب هذه الدّول عقبة لنجاح المفاوضات المتعدّدة الأطراف. وقد أدّى غياب الفلسطينيين دوراً لمصلحتهم، حيث شدّد الآخرون على وجود العامل الفلسطينيّ وعلى ضرورته من أجل إصلاح العمليّة السّلميّة، وأنّ استمرار هذا الغياب سيكون له أثرٌ غير مثمر ومدمر.

أمّا بالنّسبة للمجموعة الاوروبيّة ودولها الاعضاء، فقد اعتبر التّقرير الأوروبيّ أنها كانت المتحدّث الأقلّ رضوخاً للأمريكيين، وأنّ حضورها الجماعيّ أحدث خللاً في التّوازن الجغرافيّ في إطار تكوين المجموعات، وقد ظهر ذلك بشكل خاصّ عندما طلبت كلّ الدّول الأعضاء في المجموعة الأوروبيّة أن تعبّر عن أرائها في إطار الجلسة الختاميّة العامّة، حيث أعرب هؤلاء عن أسفهم لغياب الأطراف العربيّة الثّلاثة (سوريا، ولبنان، والفلسطينيين)، وركزوا بشكلّ خاصّ على ضرورة حضور الفلسطينيين بمن في ذلك فلسطينيو الشّتات، وأكّدوا أيضاً على ضرورة حضور الأمم المتّحدة، وليس فقط وكالاتها المتخصّصة.

في مؤتمر موسكو هذا، تقرّر تنظيم مجموعات العمل على النّحو الآتي:

١. مجموعة اللاّجئين برئاسة كندا.

٢. مجموعة مصادر المياه برئاسة الولايات المتّحدة.

٣. مجموعة البيئة برئاسة اليابان.

٤. مجموعة ضبط التّسلح والأمن والإقليميّ برئاسة كلّ من الولايات المتّحدة وروسيا.

أمّا لجنة التّوجيه العامّة فقد أعطتها الولايات المتّحدة الفرصة لتأكيد الطّابع المركزيّ للمفاوضات الثّنائية الجاريّة في واشنطن على أساس مخرجات مؤتمر مدريد للسّلام.

وصل وفد فلسطينيّ إلى موسكو حيث كان مقرّ انعقاد أوّل جلسة للمؤتمر المتعدّد الأطراف، إلّا أنّه لم يحضر الجلسة الافتتاحيّة بصورة رسميّة، وجادل في أن صيغة مدريد الّتي تستثني الفلسطينيين في القدس والشّتات يجب ألّا تنطبق على إطار عمل المفاوضات المتعدّدة الأطراف، كون موضوعات البحث متعدّدة ومتنوّعة، وتشمل قضايا تهمّ الفلسطينيين في أماكن وجودهم كافّة، ولذلك يجب أن يكون التّمثيل الفلسطينيّ شاملاً. كما اعتبر الوفد الفلسطينيّ في مذكرة قدّمت لراعي المؤتمر أن المفاوضات المتعدّدة تظلّ غير مستكملة ما لم يتمّ تشكيل مجموعتي عمل أخريين تعنيانِ بقضايا بالغة الأهمّيّة، مثل مجموعة عمل بشأن القدس، ومجموعة بشأن حقوق الإنسان، إذ اعتبر الجانب الفلسطينيّ أنّه على الرّغم من أنّ الوضع النّهائيّ للقدس سيُحلّ على أساس قراري مجلس الأفق الدّوليّ ٢٤٢ و٣٣٨ في المرحلة النّهائيّة للمفاوضات الثّنائيّة، فإنّ هناك حاجة ملحّة إلى عمل دوليّ لمراقبة الأعمال الأحاديّة الجانب الّتي تقوم بها إسرائيل ووقفها، على نحو يحدّد وضع المدينة المقدسة بصورة مسبقة، وأنّ ما تقوم به إسرائيل في القدس لا يعرّض نتيجة المفاوضات بشأن مستقبل القدس للخطر فقط، وإنّما يمزّق قدرته على وجود حمايّة دوليّة للتراث الفريد للقدس، وضمان المصالح الإقليميّة والدّوليّة فيها.

وأودّ هنا أن أشير إلى أنّ قرار مقاطعة اجتماع موسكو من الجانب الفلسطينيّ كان قراراً مستقلًّا، ولم يكن مجاملة لسوريا أو خضوعاً لضغوط سورية كما أشيعَ في حينه.

وعلى الرّغم من أنّ اقتراح جيمس بيكر وزير الخارجيّة الأمريكيّ على الفلسطينيين، كان إشراك ممثّلين عنهم من الشّتات في مجموعات العمل، وهو الامر الّذي أمر سيتقرر في الوقت المناسب، فقد جوبه هذا الإقتراح بالرّفض من الجانب الفلسطينيّ الّذي طالب بتعهّد واضح بهذا الصدّد. وفي المقابل فقد أعرب الوفد الإسرائيليّ عن معارضته إدخال أيّ تعديلات على ما سبق أن تمّ الاتّفاق عليه، عادّاً أنّ هذا الأمر في حال حدوثه سيفتح الباب أمام كلّ الاحتمالات.

في تلك الأثناء وجّه الرّئيس المصريّ حسني مبارك رسالة عاجلة إلى الرّئيس الفلسطينيّ ياسر عرفات ناشده فيها القبول بصيغة الحلّ والوسط المقترحة علينا من جانب جيمس بيكر. ولذلك فقد شارك الفلسطينيون في مجموعات العمل الخمس على الرّغم من أنّه لم تتمّ دعوتهم للمشاركة في مفاوضات مجموعة العمل الخاصّة بضبط التّسلح والأمن الإقليميّ. وقد ظلّ الوضع على هذا النّحو حتّى الجلسة الثّالثة الّتي انعقدت في أيّار/ مايو ١٩٩٣، حيث قبلت الحكومة الإسرائيليّة الجديدة برئاسة حزب العمل في تشرين الأوّل/ أكتوبر١٩٩٢ السّماح لوفد فلسطيني من الشّتات بحضور جميع اجتماعات مجموعات العمل شريطة ألّا يكون بين أعضائه أعضاء من منظّمة التّحرير الفلسطينيّة أو المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ.

شكّلت المفاوضات المتعدّدة الأطراف، كما ذكرنا من قبل، خمس مجموعات عمل خاصّة بكلّ من المياه، والبيئة، واللاّجئين، وضبط التّسلّح، والأمن الإقليميّ، والتّنميّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة الإقليمية. وقد عقدت كلّ مجموعة سبع جولات من المحادثات منذ انعقاد الجلسة الافتتاحيّة الأولى في موسكو.

وكانت هذه المجموعات تجتمع بصور متزامنة، ويتم الرّجوع إليها جماعيّاً تحت عنوان المفاوضات المتعدّدة الأطراف، حيث أعطت بذلك الانطباع بشأن عنصريّ الوحدة والتّكامليّة. وقد اختلفت هذه المجموعات من النّاحيّة العمليّة من حيث التّقدّم الّذي تم أحرزته خلال الأعوام الأربعة.

ونظراً إلى أنّ هذه المجموعات تعمل على نّظام الإجماع في صنع القرار، فإنّ الجلسات كانت مصمّمة للسّماح للأطراف بطرح قضايا واهتمامات دون التّطرق أو الدّخول في مساومات، حيث كان التّشديد منصبّاً على أطر عمل غير رسميّة وغير مؤطّرة، وعلى مساومات جماعيّة. ولم يتمّ تسجيل محضر مداولات، حيث كانت كل الأطراف حذرة في تجنّب جعل أيّ مسودة أو تقارير أو بيانات رسميّة محلّ تركيز أساسيّ؛ إذ وكان يصدر في ختام كلّ اجتماع (حامل المطرقة) بياناً موجزاً يلّخّص طبيعة المناقشات والقضايا الرّئيسة الّتي طرحت في الاجتماع. لقد شكّلت هذه البيانات أساساً لتقارير حامل المطرقة المرفوعة إلى لجنة التّوجيه دون أن تصوغ وثائق رسميّة ملزمة. ومع ذلك فلم يكن وضع مسودّات تلك البيانات مهمّة سهلة دائماً.

إنّني أودّ هنا أن اتحدّث قليلاً عن لجنة التّوجيه الّتي كانت تقف على قمّة المفاوضات المتعدّدة الأطراف، وكانت تجتمع في ختام كلّ جولة مفاوضات لمجموعات العمل الخمس، وهي لجنة ممثّلة باللآعبينِ الرّئيسين في المفاوضات المتعدّدة ذاتها. وقد تكونت لجنة التّوجيه هذه من الرّاعيين (الولايات المتّحدة وروسيا)، وأطراف المفاوضات الثّنائيّة، وهي : إسرائيل، ومصر، والأردنّ، والفلسطينيون، والسّعوديّة، كممثّلة لمجلس التّعاون الخليجيّ، وتونس كممثّلة لدول اتّحاد المغرب العربيّ، والاتّحاد الأوروبيّ، واليابان، وكندا بصفتها منظّمة

رئيسة لمجموعات العمل. وفي آواخر عام ١٩٩٣ دُعيت النّرويج بصفتها رئيسة لجنة ارتباط، كما تمّ حجز أماكن لسوريا ولبنان إذا قرّرتا الانضمام.

اجتمعت لجنة التّوجية هذه ستّ مرّات في ختام كلّ جولة من اجتماعات مجموعات العمل. وقد تمّ عقد اجتماع ثانٍ لها في موسكو في شباط/ فبراير ٢٠٠٠؛ لإعادة إحياء المفاوضات المتعدّدة.

كانت لجنة التّوجيه تعمل وفقاً لمبدأ الإجماع وليس التّصويت بالأغلبيّة. وقد أصبح استخدام الاجماع وسيلة لصنع القرار في اجتماع مجموعات العمل، حيث لا أحد في المجموعات يعارض الاتّفاقيات أو النّتائج الّتي يتمّ التّوصّل إليها في لجنة التّوجيه. وقد أدّى نهج الإجماع هذا إلى تجزئة القضايا إلى عناصر يمكن إدارتها بصورة أفضل، وإلى تشجيع البحث بالتّدريج عن اتّفاقيات بدلاً من محاولة حلّ جميع أوجه مشكلة معقدة ضمن إطار عمل واحد، وبالتّالي تسهيل التّوصّل إلى رؤية جماعيّة مشتركة.

ذلك أنّ الحاجة إلى إجماع تعني النّتائج الّتي تعكس مبدئيّاً القاسم المشترك الأصغر في مجالات تهمّ الأطراف المعنيّة، بينما القضايا الأكثر تعقيداً يتمّ تأجيلها إلى مراحل متأخرة من مسيرة المفاوضات. والدّول الّتي تتمتّع بحقّ النّقص(الفيتو) كانت تستمدّ من نهج الإجماع هذا ما يضمن إدخال عنصر المساومة الرّسميّة إلى المداولات. ومن وجهة النّظر الإسرائيليّة فإنّ هذا يعني أنّ الأجندة للمفاوضات المتعدّدة الأطراف غير مهيمن عليها من جانب الدّول العربيّة نتيجة تفوقّها العدّديّ. أمّا من وجهة النّظر العربيّة فإنّ متطلّب الإجماع سمح للإسرائيليّ بدعم ضمنيّ من الولايات المتّحدة أن يملي سير المفاوضات، وأن يمنع مناقشة قضايا معيّنة.

ومـع أنّ لجنة التّوجيه هي هيئـة عليا في المفاوضات المتعـدّدة، ودورها الرّئيس هـو تأمـين الاسـتمرار والدّعم للمسـار المتعـدّد، والإشراف على نشـاطات مجموعات العمـل الخمـس، والبحـث في أفـكار خلّاقة أو مبـادرات جديـدة، فإنّهـا في الحقيقة قـد أثّـرت في بعـض قـرارات، وأدّت دوراً شرفيّاً خـلال أوّل أربع جـولات مبكّرة.

لقـد حصرت لجنـة التّوجية نفسـها في الاعـتراف بأنّهـا كانت تتسـلّم تقارير اللّجـان لتحـدّد مـكان الجولة القادمـة وزمانها، بمـا في ذلك الموافقة على مشـاركين جـدد في مجمـوعات العمـل. أمّـا مسـألة إقامـة لجـان إضافيّـة تتعامـل مـع قضايـا الطّاقـة وحقـوق الإنسـان، والصّحـة العامّـة، والقـدس، فلم يتـمّ التّوصّـل إليها.

ومـع اختتـام الجولـة الرّابعـة أصبح واضحاً بشـكل متزايـد الحاجـة إلى إقامة مسـار أكـثر منهجيّة لمراقبة نشـاطات لجنـة التّوجيه. واعترافـاً بهذا الواقـع، فقد تمّ عقـد مناقشـات تمهيديّـة في اجتمـاع طوكيو بشـأن مسـتقبل المفاوضـات متعدّدة الأطـراف، والدّور الّذي يجـب أن تؤدّيـه لجنـة التّوجيـه في توجيـه هـذه المسـيرة التّفاوضيّـة، كمـا تشـجعت الأطـراف أيضـاً في الإعـراب عـن آرائهـا في الأهداف الكلّيّـة طويلـة الأجـل للمحادثات. إلّا أنّ المناقشـات لـم تكن حاسـمة، ولم ينجم عنهـا تـبنٍّ لإجـراءات صلبة جديـدة، وعلى أيّ حال لـم يتفق المشـاركون على أهمّيّة وضرورة مراجعـة دور لجنـة التّوجيـه هذه.

وفي الاجتمـاع الخامـس- الّذي انعقـد في أوائـل عام ١٩٩٤- حدثـت نقطـة تحـوّل في تاريـخ مفاوضـات المتعـدّد الأطـراف، وكذلـك في دور لجنـة التّوجيـه. إذ اعترفـت الأطـراف لأوّل مـرّة بالحاجـة إلى أنّ تقـدّم لجنـة التّوجيـه قيـادة حقيقية بالاتّجـاه الإسـتراتيجيّ. إذ بعـد مراجعـة شـاملة للإجـراءات العمليّـة وضعت لجنة التّوجيـه خطّة عمل لتوجيه النّشـاطات المسـتقبليّة لمجموعات العمـل الخمس، فقد

دعـت - على سـبيل المثال - مجمـوعات العمل في اجتماعها التّـالي إلى أن تتبنّى الدول المشـاركة عـدداً مـن المشـاريع لمجمـوعات العمـل الخمـس، بمـا في ذلك المشـاريع الموافـق عليهـا مـن قبل، وتلـك الّتي يمكـن تنفيذها بسرعـة معقولـة، والمقدّر لها أن تجلـب فوائـد مبـاشرة لشـعوب المنطقة.

كمـا طلبـت لجنـة التّوجيـه من (حامـلي المطرقـة) درجـة أكبر من التّنسـيق والمسـاءلة والمتابعـة في النّشـاطات الّـتي الـتزم بها رعاة المؤتمـر المتعـدّد، وتمّ إبلاغ حامـلي المطرقـة بأن يقدّمـوا تقريراً إلى لجنـة التّوجيه في أعقاب كلّ جلسـة مكّتملة الأعضـاء، يحدّد الإنجازات الرّئيسـة لمجمـوعات عملهم، والعقبـات الّتي تحول دون تحقيـق تقـدّم أكـبر، على أن تتّضمـن هـذه التّقاريـر ملخّصـاً للنّقاشـات ومراجعة مفصلـة للقـرارات المتخذة. ومـع أنّ لجنة التّوجيه قطعت شـوطاً طويـلاً في الحفاظ على المتعـدّد الأطـراف - بعيـداً عـن أضـواء وسـائل الإعـلام - فإنّهـا شـعرت فيما بعـد أن الوقـت ملائـم لإطـلاع الجمهـور على مداولاتهـا، وتوسـيع رقعـة التّغطيّـة الإعلاميّـة لهـذه المحادثات.

لقـد كان هنـاك اعـتراف بـأنّ على المسـار المتعدّد الأطـراف ألّا يهتـمّ بصورة منفـردة بتراكـم المشـاريع، وأنّـه بحاجـة إلى صـوغ نظـرة اسـتراتيجيّة ومجموعـة مبـادئ للـشرق الأوسـط. وكخطـوة أولى في هـذه المهمّـة، فقـد وضـع الرّاعيـان للنّقاش مسـودّة (توجيهات لمسـيرة سـلام الشّرق الأوسـط المتعدّد الأطـراف)، كما تقـرّر أيضـاً أن تضـع لجنـة التّوجيه ورقـة تتعلّق بمسـتقبل المنطقة. وقـد كان وضع مسـودّة هاتـين الوثيقتين المهمّـة الرّئيسـة الّتي اتّخذتهـا لجنة التّوجية لنفسـها، وكان ذلـك جـزءاً معقولاً مـن المدلولات في الجلسـة الّـتي عقدت في طـبرق(تونس) بعد اكتمـال الجولّـة الخامسـة، والّتي كانت مكرّسـةً أساسـاً لهـذا الموضوع الّذي أشـغل حـيّزاً واسـعاً مـن النّقاشـات الدّاخليّـة في إطار لجنـة التّوجية.

وبعد جدال واسع قرّرت لجنة التّوجيه أن يضع الرّاعيان مسودّة ورقة توجيهات جديدة يتمّ توزيعها على الأطراف كافّة، وأن تتمّ مواجهتها في اجتماع بين جلسات العمل خلال فصل الشّتاء من ذلك العام على أمل أن تتمّ الموافقة عليها في الاجتماع التّالي للّجنة التّوجيه مع أنّه قد تمّ رسم خطّة عمل مفصّلة لورقة البحث في شأن المنطقة. ومع التّقرير ينبغي أن يكون الرّاعيان مسؤولينِ عن الإشراف المباشر على صياغة مسودّة الوثيقة، فإنّ حاملي المطرقة وافقوا- غير متحمسين إلى حدّ ما- على أنّ يضعوا بالتّشاور مع الأطراف الإقليميّة (أوراق رؤية) في مجالات مسؤولياتهم.

تمّ في ذلك الاجتماع - الّذي عقد في القاهرة، في مطلع العام ١٩٩٥- إحراز تقدّم في اطار إعادة وضع مسودّات للتّوجهات، لكنّه لم يكن في الإمكان التّوصّل إلى إجماع على فقرات معنية بخصوص القدس، وحقّ تقرير المصير للفلسطينيين، وترتيبات إقليميّة للرّقابة على التّسلّح؛ فقد كان المقصود من مسودّة التّوجهات، ومناقشة اوراق الرّؤيّة الّتي وضعها حاملو المطرقة أن تكون مكرّسة في الأساس للموضوعات الرّئيسة المدرجة على أجندة اجتماع لجنة التّوجيه في الاجتماع اللاّحق المقرر في مايو/آيار ١٩٩٥.

على أيّ حال، وبعد قرار إسرائيل مصادرة مزيد من الأراضي في القدس، واشّتعال النّقاشات في الكونغرس الأمريكيّ بشأن نقل السّفارة الأمريكيّة من تلّ أبيب إلى القدس، فقد هيمن وضع المدينة المقدسة هذه على المداولات كلّها. فقدّ جادلت الدّول العربيّة بقوّة - بقيادة الفلسطينيين- من أجلّ إقامة مجموعة عمل جديدة متعدّدة الأطراف تكون مخصّصة لقضيّة القدس حصراً، فيما أصرّت إسرائيل - الّتي كانت في موقف دفاعيّ غاضب- على أنّ متعدّد

الأطـراف ليـس المنتدى المناسـب لمناقشـة هـذه المسـألة، ورفضت قبـول الطّلب. لذا تـمّ وضـع المناقشـات المتعلّقة بالتّوجيهـات وأوراق العمـل وأوراق الرّؤيـة جانباً بسـبب القـدس تحديـداً، وانتـهى الاجتمـاع دون وضـوح للعـرض الـكلّي مـن هذه الممارسـة، ولكيفيّـة الاسـتمرار فيها بشـكل أفضل.

لقـدّ كان أهـمّ ماميّزّ ذلك الاجتمـاع في مونترو أنّـه تمّت الموافقـة فيه على ما يجـري لأوّل مـرّة، إدراج مسـألة حقـوق الإنسـان ضمن المسـار المتعـدّد الأطراف، وكانـت المقترحـات الأوليّة لضـمّ مجموعة عمـل منفصلة خاصّة بحقوق الانسـان قدّ تـمّ رفضهـا ببسـاطة من جانب إسرائيـل والعـرب. وفي هذا المؤتمر أعادت سـويسرا ادخـال هـذه الفكرة تحت قنـاع مجموعة عمـل في مجال (حقـوق مدنيّة، وسياسـيّة، واجتماعيّـة واقتصاديّـة، وثقافيّـة، وتفاهمات بـين الثّقافات)، حيث كانت سـويسرا مؤمّنـة أنّهـا تعمـل بمثابـة (راعيّـة) لهـذه المسـائل ضمـن إطـار مجمـوعات العمل القائمـة، وأن تنصح الراعيين بشـأن حقوق الانسـان في المسـيرة المتعـدّدة الأطراف الّـتي ازدادت الثّقـة فيها بعد هـذه المبادرة السّـويسريّة.

سـانتقل في الصّفحـات الآتيـة إلى فحـوى وسرديّـة المشـاركة الفلسـطينيّة في المفاوضـات المتعـدّدة الأطـراف، لأقـول: إنّ هـذه المشـاركة جـاءت على خلفيّـة مخرجـات مؤتمـرّ السّـلام في مدريـد في نطاق مجمـوعات العمل المنبثقـة عنه، حيث تـمّ اتّخاذ قـرار المشـاركة في إطار منظّمـة التّحرير ومؤسّسـاتها والفصائـل المنضويّة تحـت لوائهـا، اذّ تـوّج ذلـك كلّـه في المناقشـات العميقـة والطّويلـة داخـل المجلس المركـزيّ الفلسـطينيّ، والّذي قـرّر على ضـوء تلـك النّقاشـات تأكيـد المشـاركة الفلسـطينيّة في مؤتمـر السّـلام بشـقّيه: الثّنـائيّ والمتعـدّد، على الرّغـم مـن اعتقـاد فلسـطينيين وعـرب آخريـن بوجـوب أن يتـمّ وضع الحصـان السّـياسيّ أمـام عربة التّنميّـة والتّعـاون...إذا مـا أريـد لهـذه العربـة أن تتحـرّك إلى الأمام.

كان قـرار المجلـس المركـزيّ هذا قـراراً شـجاعاً في حينه، ومسـؤولاً إلى أبعد الحـدود، حيـث وضـع في اعتبـاره جميـع معطيـات المرحلة، وقـارب بحصافـة طبيعة موازيـن القـوى الدّوليّـة والاقليميّـة، وركّـز على اسـتمراريّة نضـال شـعبنا بـكلّ السّـبل المتاحـة بمـا في ذلك انتفاضـة الحجـارة المباركـة. ولكي نكـون موضوعيين وواقعيـين لا بـدّ من الاقـرار أنّ هـذه العمليّة بشـقيّها (الثّنائيّ، والمتعـدّد) لمّ تكن بشروطهـا المجحفـة منصفـة وعادلـة وملبيّـة لمطالبنا، غير أنّنـا قبلنا التّعـاطي معها بشـجاعة المسـؤوليّة السّياسـيّة والثّقة بالنّفس وبالشّـعب، وبعدالـة قضيّتنا، حيث نظرنـا إليهـا كممـرّ إجبـاريّ فرضتـه موازيـن القـوى وصراع الإرادات الإقليميّـة والدّوليّـة، ورأينـا فيهـا معركـة سياسـيّة ودبلوماسـيّة نناضـل مـن خلالهـا لضمان حقـوق شـعبنا الوطنيّة.

وقـدّ ارتأينـا أيضـاً، أنّه مـا دمنا قـد أخذنا قرار خـوض هذه المعركـة (معركة السّـلام) كواحـدة مـن معاركنـا السّياسـيّة المصيريّـة، فـلا بـدّ أن نصارح أنفسـنا أنّ علينـا أن نفهـم بـأنّ شروط العمليّة السّياسـيّة ليسـت شروطنا نحـن، وتصميم خطواتهـا ليـس مـن فعلنـا أو فعـل حلفائنـا وأصدقائنـا. ولـمّ يغـب عن بالنـا أنّ إسرائيـل كانـت تهـدف مـن مشـاركتها بالمسـار المتعـدّد إلى قبـض الثّمـن قبل أن تسـلّم البضاعـة؛ ونعـني بذلـك تطبيـع العلاقـات العربيّـة الإسرائيليّـة، وعـزل مشـكلة اللاّجئين الفلسـطينيين والتّعامل معها كقضيّة انسـانيّة، وتقسـيم الشّـعب الفلسـطينيّ بـين الدّاخـل والخـارج، ثـمّ اعادة تقسـيمه بـين الضّفّـة والقطـاع عبر إجـراء انتخابـات لحكـم ذاتيّ يشـكّل الصّيغـة النّهائيّـة للتسـويّة بـدل أن يكون مرحلـة انتقاليّة وسـيطة.

وعليـه، فقـدّ تـمّ بنـاء الموقـف الفلسـطيني على عـدّة أسـس، أهمّهـا العمل

بـلا كلـل مـن أجـلّ بلّـورة موقـف عـربيّ موحّـد وتضامـن حقيـقيّ يضـع القضيّة الفلسـطينيّة في صـدارة الاجتماعات العربيّة، والاسـتمرار في محـاورة القوى الدّوليّة الفاعلـة ومواجهتهـا بحقائـق الممارسـات الإسرائيليّـة، ناهيـك عن توحيـد موقفنا الوطـنيّ ورصّ صفوفنـا، وإبقـاء بـاب الاجتهـاد مفتوحـاً كضمانـة لعـدم الوقوع في الخطـأ، ومـن ثمّة رسـم حدود واضحـة ومحـدّدة لسياسـتنا ومواقفنا واسـتراتيجيّتنا وتكتيكاتنـا لكلّ جولـة من جـولات المفاوضات الثّنائيّـة والمتعدّدة، ولـكلّ مجموعة عمـل، مـع الرّبـطّ المحكـم بـين المسـارين (المتعـدّد، والثّنـائيّ) مـن جهـة، وبين مجمـوعات العمـل في المؤتمـر المتعـدّد من جهـة أخرى.

لقدّ تجاذب السّـاحة الفلسـطينيّة - منـذ انطلاق عمليّة السّـلام - اجتهادان أساسـيّان وكلاهمـا صحيح، وهمـا: أولًا ألّا ندخل هذه العمليّـة إلّا بشروط واضحة ومحـدّدة، تضمـن الحفـاظ على حقوقنا، وثانيّـاً أن نختبر كلّ إمكانات تحسـين شروطنا قبـل الانخـراط في العمليّـة... على أن نواصـل نضالنا بكـلّ الوسـائل؛ لتحسـين هذه الـشّروط من داخلهـا، وكان الحسـم في النّهاية لصالح الخيـار الثّاني.

لقـدّ تولّيـتّ أنـا شـخصيّاً مسـؤوليّة ملّـف المفاوضـات المتعـدّدة الأطـراف كمنسـق عامّ للوفـود الفلسـطينيّة لمجمـوعات العمـل، وتـمّ تشـكيل طواقـم فنّيّـة متخصّصـة في مبـنى بيـت الشّرق- وهو مقـرّ الفريق الفلسـطينيّ لمؤتمر السّـلام في داخـل الوطـن- لتتكامـل هـذه الطّواقـم مـع نظيراتهـا الموجـودة في الخارج.

لقـدّ ذهبنـا إلى جولـة المسـار المتعـدّد في موسـكو محاولـين تعديـل شروط المشـاركة فيهـا، وخضنـا معركـة التّمثيل الأوسـع، وحقّقنـا تمثيلاً للدّاخـل والخارج معـاً في لجنـتيّ التّنميّـة الاقتصاديّـة واللآجئـين، فيما تـمّ حصر التّمثيل مـن الدّاخل في مجموعـتيّ العمـل الخاصتـين بالمياه والبيئـة، وفي لجنـة التّوجيه أيضاً. لقـدّ حرمنا

مـن التّمثيـل في لجنـة ضبط التّسـلّح والأمـن الاقليميّ حـتّى الجّولة الثّالثـة، وبقينا نناضـل من داخـل هـذه العمليّة المعقـدّة لتحسـين شروط مشـاركتنا، وتصحيحها إن أمكـن مـن أجـل مواصلـة الجّهـود المرنـة والتّعامـل الايجـابيّ، وذلـك إلى أن تمكّنّـا مـن رفع الخطـر عن تمثيل شـعبنا في الدّاخـل والخارج بمن في ذلـك مواطنو القدس.

انعقـدت الجّلسـة الاولى للتّحضـير للمفاوضـات المتعـدّدة الأطـراف يـوم ١٩٩٢/٤/٣٠ في مبـنى دائرة الشّـؤون الاقتصاديّـة والتّخطيط التّابعـة لمنظّمة التّحرير الفلسـطينيّة، حيـث قدّمـت للمُجتَمعينَ شرحـاً وافيّاً عـن الأوراق الخاصّة باللجان الفرعيّـة، وأكـدّت أهمّيّـة هـذه الأوراق والخـبراء وجـدارة المشـاركين في اعداهـا، وأشرت إلى أنّ قـرار الدّوّل العربيّـة ليـس في يدنـا، لكـنّ المهـمّ في هـذا الموضـوع كسـب أو تحييـد الأخـوة العـرب، وحثّهم على عـدم الوصـول إلى اتّفاقيّـات مباشرة أو أيّ ترتيبـات قبـل الوصـول إلى نجاحات ملموسـة في المفاوضـات الثّنائيّة، وأنّ من المهـمّ تبـادل الوثائق والمسـتندات، والاطّـلاع على جميع ما يصدر مـن وجهات نظر، وتحديـداً وجهـة النّظـر الإسرائيليّة.

كانـت هنـاك لجنتـان تتوليّـان صياغـة وترتيـب هـذه الأمـور، وهمـا اللجنة العليـا للتّفاوضـات متعـدّدة الأطـراف في الخارج، ومكتـب الأخّ فيصل الحسـينيّ كرئيـس للفريـق المفاوض في الدّاخـل. كنّا معنيين بالتّنسـيق مـع الدّوّل العربيّة، لا سـيّما مـع الاردنّ، حيث سـافر عدد من أعضاء هيئـة التّفاوض إلى عمّان للتّنسـيق في مـا قـدّ يـرقى إلى تشـكيل سـكرتاريا فلسـطينيّة أردنيّـة. وكان أهـمّ مـا يشـغل اهتمامنـا تحقيق تسـوية سياسـيّة مرضية للجّانب الفلسـطينيّ في نهايـة المطاف مع ضرورة اسـترداد المـوارد الطّبيعيّة والمصادر والأصول وسـواها ممّا صادرته سـلطات

الاحتلال، خصوصاً الأرض والمياه، فضلاً عن تصحيح التّشوّهات والاختلالات في بنية الاقتصاد الفلسطينيّ، وخلق فرص عمل جديدة، وتوفير عشرات آلاف الوحدات السّكنيّة.

على أيّ حال، فقد تمثّلت المشاركة الفلسطينيّة في أعمال مجموعات العمل بالهجوم في طرح المواقف، بينما تمثّل الموقف الإسرائيليّ بالسّلبيّة والدّفاع من خلال المقاطعة والتّغيّب في بعض الجلسات، وقد نجحنا في تشكيل تواصل وتوافق يصل إلى حدّ الإجماع في اللّجان المختلفة وفي مجموعات العمل المتخصّصة بما في ذلك نجاحنا في الرّبط بين المفاوضات الثّنائيّة والمتعدّدة الأطراف. وبذلك أفشلنا المخطّط الإسرائيليّ بالتّطبيع، وجعله في آخر سلّم الأولويّات مشروطاً بحدوث تقدّم حقيقيّ في الثّنائيّ؛ وهو ما يعني أنّ السّلام أوّلاً، وبالتّالي فإنّ المفاوضات الثّنائيّة هي مركز عمليّة السّلام الجاريّة، وهي مقياس التّقدّم والنّجاح.

لقد كان إقرار هذا المبدأ مهمّاً كون أنّ التّعاون الإقليميّ في المستقبل يقتضي الإقرار بداهةً بحقّ الشّعب الفلسطينيّ بالسّيطرة على أرضه ومياهه وموارده الطّبيعيّة ناهيك عن امتلاك قراره الوطنيّ الاقتصاديّ، وحقّه في بناء مؤسّساته الوطنيّة المستقلّة، وفوق ذلك الاعتراف بالشّعب الفلسطينيّ كطرف متكافئ، وعلى قدم المساواة كما الأطراف الأخرى. كما أكّدنا على دور منظّمة التّحرير بصفتها الممثّل الشّرعيّ الوحيد للشّعب الفلسطينيّ، وصاحبة قرار المشاركة في هذه العمليّة وقيادتها، وهو تمثيل يعكس بالضّرورة وحدة شعبنا في الدّاخل والخارج، بما في ذلك القدس الّتي طالبنا بتشكيل لجنة خاصّة تهتمّ بهذه المدينة، وتسعى للحفاظ على معالمها في وجه موجة التّهويد والاستيطان العاتية.

تقويم المفاوضات متعدّدة الأطراف

كانت المفاوضات متعدّدة الأطراف تمثّل البعد الخفيّ لمسيرة عمليّة السّلام العربيّة الإسرائيليّة الّتي بدأت في مؤتمر مدريد، حيث كان الاهتمام منصبّاً في السّنوات الأولى من هذه العمليّة على المفاوضات الثّنائيّة، فيما كانت التّقارير عن التّطوّرات في المسار المتعدّد نادرة. ونتيجة ذلك كان هناك وعي ضئيل بطبيعة هذه المفاوضات، أو المسائل الّتي بحثت خلالها. ومع أنّ هذه المفاوضات لم تكن تحمل الأهمّيّة الّتي كانت تحملها المفاوضات الثّنائيّة، إلّا أنّ مفاوضات المتعدد أدّت دوراً قيّماً في مسيرة السّلام، وفي تعزيز ظروف وترتيبات تعاون مستقبليّة في الشّرق الأوسط.

صحيح أنّ التّقدم الّذي تمّ إحرازه في إطار المفاوضات المتعدّدة لم يؤدّ إلى تأثير مباشر في الحياة اليوميّة لشعوب المنطقة، إلّا أنّ أجزاء كبيرة من هذه المفاوضات-لاسيّما في الجولات الأول - ركّزت على القضايا الإجرائيّة أكثر من الجوهريّة، إذ تمّ تكريس جهد ووقت كبيرين لمسائل مختلفة، مثل المشاركة والتّمثيل، خصوصاً فيما يتعلّق بتشكيل الوفد الفلسطينيّ، وبمشاركة الدّول الاثنتي عشرة الأعضاء آنذاك في مجموعة العمل الخاصّة بضبط التّسلّح والأمن الإقليميّ. فعلى سبيل المثال وبينما لم تكن مشاركة الأمم المتّحدّة مقبولة لغاية الجولة الخامسة من هذه المفاوضات، فقد أصبحت المنظّمة الدّوليّة لاحقاً مشاركة تماماً في النّشاطات المتعدّدة الأطراف.

ومع أنّ الدّول العربيّة وإسرائيل كانت تجلس رسميّاً حول طاولة

المفاوضات متعدّدة الأطراف، فإنّ كثيراً من النّشاطات الّتي جرت في حينه كان مشابهاً للأنشطة والمهام المترافقة عادة في مرحلة ما قبل المفاوضات في مسيرة عمليّة السّلام. فقد تمّ تعريف ما قبل التّفاوض بأنّه ((مقياس الزّمن والنّشاط الّذي انتقلت فيه الأطراف من حلول متفرّدة خلافيّة لمشكلات متبادلة إلى بحث مشترك عن حلول تعاونيّة)). وبهذا المعنى فقد وفّرت المفاوضات المتعدّدة الأطراف إطار العمل اللاّزم، ووضعت تصوّرات تعاونيّة، وعيّنت الحدود، وبيّنت أهمّيّة المشاركين، ووضعت أجندات للنّقاش التّفاوضيّ.

وخلال هذه المفاوضات الّتي جرت على مدى أربعة أعوام، على نحو متباعد، لم تنخرط الدّول العربيّة وإسرائيل في مسيرة مساومات، فقد كانت في واقع الأمر مسيرة اكتشاف تؤدّي إلى درجة ما، وتمكّن من إعادة تنظيم وتعديل تفاهمات وتوقّعات وتصرّفات ستفضي - إذا نجحت- إلى نقاشات معيّنة ومفيدة أكثر بشأن وضع شروط ممكنة لحصيلة نهائيّة متّفق عليها، وبالتّالي فإنّه يمكن اعتبار ذلك بمثابة مسيرة تحديد وإعادة تحديد لعلاقات خلافيّة تشمل سلسلة مراحل، إذ تنتقل فيها الأطراف المعنيّة من مرحلة الاعتراف بوجود المشكلة إلى مرحلة الحلّ المتّفق عليه مبدئيّاً لذات المشكلة.

يختلف مسار مفاوضات المتعدّد عن مسار المفاوضات الثّنائيّة؛ فالمسار المتعدّد - بما في ذلك النّشاطات ما بين الجلسات- يضاهي تمريناً في « دبلوماسيّة مسار ثانٍ»، ونهج ورشة عمل حلّ هذه المشكلة لتسوية النّزاع القائم. وتعرف دبلوماسيّة المسار الثّاني بأنّها تفاعل شكليّ غير رسميّ بين أعضاء مجموعات متخاصمة أو دول متعادية، يهدف إلى وضع استراتيجيّات للتّأثير في الرّأي العامّ وتنظيم موارد بشريّة وماليّة بوسائل قد تساعد في حلّ النّزاعات فيما بينهم،

وبالتّـالي فهي مسـيرة مخصّصة لمسـاعدة قـادة ومسـؤولين على إدارة الـنّزاع، أو حلّه بوسـاطة، بعيـداً عن أعـين الـرّأي العامّ.

تتطلّـب المفاوضـات اسـتعدادا وتعلّما وفهما ودعما، لاسـيّما في بيئة يسـودها عـدم الثّقـة والتّصوّرات المشـوّهة والمواقف السّـلبيّة والاتّصـالات الضّعيفة، ومبدأ ربـح/ خسـارة تنافسيّ على نحـو ما هو عليـه الحال في الـنّزاع العـربيّ الإسرائيليّ، إذ بعـد أعـوام مـن الاجتماعات لمجمـوعات العمـل في الإطـار المتعدّد يصعـب العثور على نجـاح محـدّد، لكنّها بإرسـائها درجـة معيّنة من التّعـاون بين إسرائيـل والعرب، فإنّـه يمكـن القـول إنّ هـذه المفاوضـات قـد سـاهمت في عمليّة السّـلام على هذا النّحـو أو ذاك، حيـث قدّمـت مجـالاً دبلوماسـيّاً فريداً للتّبـادل والاتّصـالات ذات المخاطـر الضّئيلـة للطّرفـين بمـا في ذلـك تكويـن أفـكار لحلـول إبداعيّـة، ووضع الأسـس لنشـاطات مسـتقبليّة تكـون على مسـتوى الإقليم الشّرق أوسـطيّ.

ذلـك أنّ المحادثـات والنّشـاطات ذات العلاقـة بمسـار المفاوضـات متعـدّدة الأطـراف سـمحت لإسرائيـل والدّول العربيّـة بالحصـول على مصـادر جديـدة للمعلومـات، والّـتي قـد تغيّر تصوّراتهـا ومواقفها بصـورة إيجابيّة، بمـا في ذلك إعادة التّفكـير في فرضياتهـا القديمـة، وخفـض خطـر الشّـكوك، وتقـصّي إمكانيّـة حـلّ مشـترك للمشـكلات القائمـة.

كمـا قـدّم هذا المسـار فرصاً لكلّ جانـب للغوص في أعماق الأهـداف والنّوايا والتّصـوّرات والقلـق والمرونـة وحدود الآخر، وهـذه قد تؤثّر في أفـكار الطّرف الآخر بشـأن مـا هـو عمـليّ وضروريّ وواعـد في البحـث عـن حلـول مشـتركة. كمـا أنّ هـذه المفاوضـات واللّقـاءات وفّـرت إطاراً لأهـداف إقليميّـة إضافيّة تعـزّز وتدعم التّعاون والاسـتقرار في الشّرق الأوسـط.

كذلك فإنّ الأجواء الّتي تشبه أجواء كلّيّة جامعيّة، ساعدت المتفاوضين في المسار المتعدّد على تطوير اتّصالات شخصيّة، وعلاقات عمل وتفاهمات متبادلة وتعاطف مع آراء آخرين، وهو الأمر الّذي من شأنه، موضوعياً، أن يسهل عمليّة المفاوضات الأوسع في مرحلة لاحقة. كما قدّم هذا المسار آليّة لتطوير علاقات ثنائيّة بين إسرائيل والدّول العربيّة المشاركة، فمثلاً سمح هذا المسار لدول الخليج ولدولتين من شمال إفريقيا (تونس والمغرب) بأن تصبح مشاركة في عمليّة السّلام، حيث سمحت بعض هذه الدّول باستضافة اجتماعات لمسار المفاوضات المتعدّدة الأطراف بمشاركة كاملة من إسرائيل، وعلى نحو واضح وصريح لم يكن متاحاً مثله من قبل.

وبالمحصّلة العمليّة، فقد أدّت سلسلة اجتماعات ثنائيّة بين وزراء إسرائيليين وعرب إلى تطوير روابط دبلوماسيّة بين إسرائيل والعالم العربيّ، حيث فتحت إسرائيل مكتبي مصالح دبلوماسيّة في المغرب وتونس، وإلى تبادل بعثات تجاريّة مع سلطنة عُمان، ناهيك عن التآكل المتدرّج لنظام المقاطعة العربيّة لإسرائيل، حيث أعلنت دول الخليج عن وقف المقاطعة الثّانويّة ضدّ إسرائيل، ومن ثمّ إقامة علاقات تجاريّة بين إسرائيل وبين بعض الدّول الخليجيّة، وقد عقدت القمّة الاقتصاديّة للشّرق الأوسط وشمال إفريقيا في الدّار البيضاء عام ١٩٩٤، وبعدها قمّة المتابعة في عمّان بعد عام، ثمّ محاولة إقامة بنك الشّرق الأوسط للتّنمية الإقليميّة، وهي جميعها محصّلة ثانويّة لمسار المفاوضات المتعدّدة الأطراف.

كان هناك منذ البداية اعتراف من جميع الأطراف بأنّ تقدّماً في المفاوضات المتعدّد يعتمد على التّطورات في مسار المفاوضات الثّنائيّة، وكان هناك قبول مفاده

بأنّه لا اتّفاق - مهمّا كان محدوداً في مجاله- يمكن تنفيذه قبل حدوث انفراج مهمّ في المسار الثّنائيّ، وأنّ المتعدّد ليس بديلاً عن المفاوضات الثّنائيّة المباشرة. وعليه فقد أدّى المتعدّدالأطراف دوراً مكمّلاً للمحادثات الثّنائيّة، حيث حدّد هذا المسار تقسيماً قيّماً للعمل التّفاوضيّ، وأقام فصلاً بين المسائل المتفاوض عليها، وذلك عن طريق توفير منتدى للنّقاش في مجالات فنّيّة في طابعها، ومنفصلة عن المسائل الأساسيّة في قيد النّقاش.

في واقع الأمر كانت هناك مسائل عديدة قيد البحث في المفاوضات متعدّدة الأطراف، وكان معظمها قضايا ثنائيّة أكثر من كونها متعدّدة الأطراف، حيث سمح المسار المتعدّد لكلّ الأطراف المتفاوضة البحث في مسائل، وعرض أفكار يمكن ضخّها في نهاية الأمر داخل المسار الثّنائيّ عندما تصبح هذه ذات علاقة بالمداولات.

ففي الجولة الثّانية من مسار المتعدّد تمّ السّماح للفلسطينيين في الشّتات (الّذين كانوا مستبعدين وفق قواعد مؤتمر مدريد) بالمشاركة في مسيرة السّلام لأوّل مرّة، كما أنّ الكثير من بنود اتّفاق إعلان المبادئ (أوسلو) كإقامة سلطة البيئة الفلسطينيّة، وسلطة المياه، تمّ بحثها في المفاوضات متعدّدة الأطراف.

مثل هذا النّوع من التّأثير كان واضحاً في وجوه أخرى من المفاوضات الثّنائيّة؛ فمثلاً هناك من شروط معاهدة السّلام الأردنيّة الإسرائيليّة - خاصّة في مجال المياه - تمّ طرحها في المسار المتعدّد، ويذكر أنّ رئيس الوفد الأردنيّ في مجموعة العمل الخّاصة بالمياه كان أحد المفاوضيين الرّئيسيين في معاهدة السّلام الأردنيّة الإسرائيليّة. كما يذكر أيضا أنّ البنك الدّوليّ تمّ تفويضه- من خلال مجموعة العمل الخاصّة بالتّنمية الاقتصاديّة الإقليميّة - إعداد تقرير عن اقتصاد

المناطـق المحتلّـة، وهـو التّقرير الّذي اسـتخدم لاحقا كأسـاس لأفـكار كثيرة كانت قيـد النّقـاش من أجـل تنميّـة الضّفّـة الغربيّة وقطـاع غزّة.

لقـد سـمحت تجربـة تجزئـة المسـائل إلى مجـالات وظيفيّـة محـدّدة وضيّقـة، وجمعـت خـبراء إقليميـين وغـير إقليميـين، والّذيـن قامـوا بطـرح آراء واهتمامات وحلـول بديلـة محتملـة، حيـث أدّى مسـار المفاوضات متعـدّدة الأطـراف إلى بروز عـدّة مجتمعـات معرفيّـة تعرف بشـبكة محترفين ذوي خـبرة وأهليّة في مجـال معيّن، وادّعاء رسـميّ بالمعرفـة في هـذا المجال، هـذه المعرفة الّتي قـد تؤثّر في اتّخـاذ قرارات ذات طبيعة سياسـيّة.

لقـد كان أسـلوب العمـل يتطلّـب إحضـار خـبراء مـن المنطقـة معاً (ليسـوا سياسـيين أو دبلوماسـيين) إلى ورشـات عمـل، وتركهـم يناقشـون المشـكلات بأنفسـهم. وبالتّجربـة العمليّـة اتّضـح أنّه عندمـا كان يتمّ وضـع الخبراء معـاً فإنّهم كانـوا يحلّـون المشـكلات، ويتحدّثـون بلغـة مشـتركة.

وبالنّتيجـة العمليّـة اتّضـح أنّ التّفاعـل المسـتمرّ بين خبراء مـن دول مختلفة يسـتطيع مـع مـرور الوقـت تعزيـز التّقـارب بـين التّوقعـات ومأسسـة أعـراف السّـلوك، ليـس لدى الخبراء الفنّيـين فقط، وإنّما في النّطاق السّـياسيّ الأوسـع، فمن خلال مسـيرة المتعـدّد بدأت دول الشّرق الأوسـط صـوغ مجموعة مبـادئ وأعراف وقوانـين وإجـراءات صنـع سـلام، تحكـم طبيعـة علاقاتهـا في المسـتقبل. فمثـلاً وضعـت مجموعـة العمـل الخاصّة بالبيئة قواعد سـلوك بيئيّة للشّرق الأوسـط خلال اجتماعهـا في البحريـن، بينمـا واصلـت مجموعـة العمـل الخّاصـة بضبط التّسـلّح والأمـن الإقليمـيّ العمـل على وضـع مسـودّة إعلان مبـادئ بهـذه الخصوص.

في جلسة لجنة التّوجيه خلال اجتماع لاحق تمّ الاتّفاق على وضع مسودّة ورقة توجيهات لمسيرة المفاوضات متعدّدة الأطراف، كما تمّ إبلاغ حاملي المطرقة بضرورة وضع أوراق رؤية لمجموعات عملهم. ومع أنّه تمّ في اجتماع لجنة التّوجيه في طرق وضع جدول زمني لصياغة مسودّات هذه الأوراق، إلّا أنّه تمّ إعطاء اهتمام ضئيل للموضوع كلّه، ولكيفيّة إدارة هذه المبادرة، وتنسيقها على الرّغم من أنّه تمّ إنتاج مسودّة أوراق رؤية متعدّدة الأجيال الزّمنيّة، والّتي كانت موجّهة في وقتها إلى اجتماع لجنة التّوجيه في مونترو. فقد تمّ إحراز تقدّم ضئيل لإيصال هذا الأداء إلى خاتمة ناجحة.

في تلك الأثناء من حيث المسائل الوظيفيّة، مهّد المؤتمر متعدّد الأطراف الأرض لبروز مجموعات مؤسّسات إقليميّة جديدة مثل مركز أبحاث تحلية المياه في سلطنة عُمان، ومراكز التّدريب البيئيّ في الأردنّ والبحرين، ومركز الأمن الأقليميّ المقترح في الأردّن، وكان من المهمّ بشكل خاصّ إنشاء لجنة المراقبة في مجموعة العمل الخاصّة بالتّنمية الاقتصاديّة والإقليميّة، ولقرار إنشاء أمانة سرّ دائمة في العاصمة الأردنيّة عمّان باعتبار أنّ إنشاء أمانة السّرّ يمثّل خطوة نوعيّة مهمّة في مأسسة مسيرة المفاوضات متعدّدة الأطراف، وفي نقل مسؤوليّة قيادة مسار التّعاون الإقليميّ إلى الأطراف الإقليميّة ذاتها.

كان التّركيز منصبّا بصورة متعمّدة على أطر فضفاضة (حرّة)، وكانت المساومات في المسار المتعدّد مساومات تمهيديّة، والاتّصالات كانت حرّة نسبيّا، وكان مقدراً لهذه المسيرة أن تصبح جادّة أكثر مع تواصل النّقاشات، وكذلك ان تصبح التّنازلات المتبادلة أوضح وأكثر إلحاحاً، مع بروز الرّغبة في التّوصل إلى اتّفاقيات، خصوصاً مع انتقال النّقاش من جدوى الأفكار نحو تنفيذ مشاريع

معيّنـة، وبالتّـالي فـإنّ هذه الاجتماعات سـتصبح فيما بعـد أقلّ من نـدوات إقليميّة وأكـثر مـن مسـاومة خصاميّة بين وحـدات سياسـيّة متصارعة، وهو مـا يجعل إطار العمـل المؤسّـسيّ مهمّـاً في المسـاعدة على التّوسـط، واحتـواء نزاع المصالـح، وتعزيز سـيرة التّعـاون الإقليميّ.

لقـد كانـت الطّبيعـة الرّسـميّة المنخفضـة لاجتمـاعات المتعـدّدة الأطـراف، ممزوجـة مـع غيـاب التّوقّعـات المتعلّقة بها، أمر سـاهم بصـورة مهمّـة في التّطوّرات والإنجـازات على هـذا المسـار المتعـدّد، كمـا أسـفر كلّ ذلـك عـن مسـيرة تفتقر إلى التّركـيز والاتّجـاه. ومـع أنّ لجنة التّوجيه أنشـئت للتّنسـيق والإشراف على نشـاطات المتعـدّد الأطـراف، إلّا أنّهـا لـم تقم بهـذا الدّور كما ينبـغي؛ ففي اجتمـاعات لآحقة اعترفـت الأطـراف المعنيّة بـضرورة تزويد المسـار المتعدّد بشـعور أكبر مـن الإدارة والتّوجيـه في أيّـار/ مايـو ١٩٩٥، حيـث كانت معظم المـداولات مكرّسـة للبحث في مسـألة القدس.

أمّـا إذا تحدّثنـا عـن الاخفاقات للمسـار المتعـدّد الأطـراف فإنّـه بالرّغم من الإنجـازات المحـدودة والمتفرّقـة والاجتمـاعات العديدة، فـإنّ توقّف هذا المسـار في نهايـة المطـاف، والفشـل في إعادة إحيائـه بعـد بـدء مفاوضـات الوضـع النّهـائيّ في الإطار الفلسـطينيّ الإسرائيليّ في أواخر العام ١٩٩٩، يشـير إلى هشاشـة هذا المسـار إن لـم نقـل انهيـاره خـلال فترة حكومـة بنيامـين نتنياهـو الأولى، لكـنّ العقبات الّتي اعترضت المسـار الثّنائيّ هذا ليسـت تفسـيرا شـافيا لفشـل مفاوضات المسـار المتعـدّد، لاسـيّما وأنّ العلاقات الفلسـطينيّة الإسرائيليّة كانت بعيدة عن السّلاسـة طـوال الفـترة الممتدة مـن عام ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٦.

ذلـك أنّ مفاوضات المسـار المتعدّد الأطراف شـهدت العديد مـن الصّعوبات

إلّا أنّه لم يتمّ تعليقها رسميّا حيث ظلّت تراوح بين مدّ وجزر، إلّا أنّه تمّ إنهاؤها بصورة غير رسميّة في أواخر العام ١٩٩٦. كما عانت مفاوضات هذا المسار ضعفا في الشّكل وفي المضمون، وواجهت عقبات لا حصر لها خصوصاً في إطار مجموعة العمل المتعلّقة بضبط التّسلح والأمن الإقليميّ، والمسألة المتّصلة بأسلحة الدّمار الشّامل، ولذلك فإنّ أيّ عمليّة تقويم لفحص هذا المسار ومجراه فإنّه لا مفرّ من دراسة عيوبه البنيويّة ومحدوديّة أهدافه المنشودة، وذلك قبل أن يعزى فشل هذا المسار إلى التّقلبات السّياسيّة في عمليّة السّلام.

فمنذ البداية كان ينظر إلى المسار المتعدّد على أنّه مسار يؤدّي دورا ثانويّا في مسيرة السّلام العربيّة الإسرائيليّة من غير أن تكون له وظيفيّة محدّدة ومن دون دليل لعمله، إذ أدّت الاجتماعات غير الرّسميّة واللّقاءات على مستوى منخفض إلى ازدواجيّة المصادر، وإلى نقص في التّركيز والاتّحاد؛ فلجنة التّوجيه العامّة عجزت عن وضع مجموعة قواعد إرشاديّة لسير المسار المتعدّد الأطراف في المستقبل، كما عجزت هذه اللّجنة الّتي كانت بمثابة قيادة جماعيّة لسائر المنخرطين في المسار المتعدّد عن عدم وضع رؤية مشتركة لمستقبل منطقة الشّرق الأوسط.

في الجولات المبكّرة من المسار المتعدّد الأطراف تمّ عرض أفكار للنّقاش التّفصيليّ بشأن التّعاون المستقبليّ بين الأطراف المعنيّة لكنّ في إطار غير محكم، حيث كانت الاتّصالات والمساومات تجري في نطاق متحرّر من أي التزام. ومع زيادة الرّغبة في التّوصل إلى اتّفاقيات وتنفيذ المشاريع المقترحة في إطار المناقشات أصبح هذا النّقاش أكثر حدّة من ذي قبل. وعندما بدأ تضارب المصالح، وبرزت الخلافات بصورة حادّة أكثر ممّا كانت عليه في السّابق -

وتحديدا بين مصر وإسرئيل- بدأت نشاطات مجموعات العمل المختلفة تتأثّر بهذه الظّروف.

لقد عانت المفاوضات المتعدّدة هذه -ومنذ البداية- من تفاوت في توقّعات الأطراف إزاء ما هو مأمول من هذا المسار بعد حين، فقد رأت إسرائيل أنّ هذه المفاوضات فرصة لإنهاء عزلتها الإقليميّة، وتطوير علاقات متنوّعة مع الدّولة العربيّة لاسيّما دول الخليج وشمال إفريقيا، أمّا مصر فقد كان هدفها الحدّ من تأثير إسرائيل على دول المنطقة، خصوصاً تحدّي احتكار الدّول العبريّة السّلاح النّوويّ في المنطقة، حيث كان الصّدام بين هاتين الدّولتين أكثر بروزا، وأشدّ عمقاً في إطار مجموعة العمل الخاصّة بضبط التّسلّح والأمن الإقليميّ.

في واقع الأمر تبنّت المفاوضات هذه مساقا للتّعاون الإقليميّ وبناء السّلام في الشّرق الأوسط، وذلك على نحو براغماتيّ ومتدرّج، بدلا من أن يكون مساقاً طموحاً ومبهراً من أوّل نظرة، إذ أنّه في مناخ سياسيّ يدفع باتّجاه تحقيق نتائج فوريّة فإنّ الافتقار إلى نتائج غير محدّدة تنجم عن المفاوضات المتعدّدة الأطراف كفيل بأن يؤدّي إلى عدم الرّضى، ويغري بالدّعوة إلى مفاوضات على مستوى أعلى، وذلك مثل القمّة الاقتصاديّة لدول الشّرق الأوسط وشمال إفريقيا، والمؤتمر الآخر بشأن الأرض والتّعاون في الشّرق الأوسط.

وفي الواقع لم تعان عمليّة السّلام العربيّة الإسرائيليّة جرّاء المسار المتعدّد، وإنّما عانت من الإفراط في التّوقّعات. فضمن هذا المسار كان هناك تشابك في عدد من القضايا والنّشاطات، فضلاً عن حقيقة أنّ المفاوضات المتعدّدة لم تكن الإطار الوحيد للنّقاش وتطوير هيكليّة جديدة للتّعاون الإقليميّ، إذ أعطيت مكافأة في نهاية سنة ١٩٩٤ لأوّل قمّة اقتصاديّة بشأن الشّرق

الأوسط عقدت في الدّار البيضاء؛ بهدف أن ينخرط القطاع الخاصّ في التّنمية الاقتصاديّة الإقليميّة.

في تشرين الثّاني ١٩٩٥، افتتح الاتّحاد الأوروبيّ في برشلونة الشّراكة اليوري المتوسطيّة؛ وهي الّتي سمّيت عمليّة برشلونة، وهدفت إلى تطوير إطار جديد لعلاقات سلام وتعاون في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسّط. وعلى الرّغم من أنّ عمليّة برشلونة هذه ليست جزءاً من عمليّة السّلام، فقد ضمّت الكثير من الأعضاء المشاركين في المسار المتعدّد، وتناولت العديد من القضايا الّتي ناقشتها المفاوضات المتعدّدة الأطراف، كما أن منظّمة الأمن والتّعاون في أوروبا (OSCE)، والاتّحاد الأوروبيّ الغربيّ (WEU)، ومنظّمة حلف شمال الأطلسيّ (NATO)، أطلقت مبادرات نحو تنمية الحوار الأمنيّ مع عدّة دول جنوب المتوسّط.

وإضافة إلى الإزدواجيّة والتّضارب والمماطلة ونقص الموارد البشريّة والماليّة فقد أدّت المشاريع المتنوّعة إلى ظهور مشكلة أخرى، وهي الانطباع بظهور منافسة تتجاوز النّطاق الإقليميّ بين الولايات المتّحدة الّتي تمّعَدّها دولة مهيمنة على المسار المتعدّد الأطراف وبين الاتّحاد الأوروبيّ الّذي استثنى الولايات المتّحدة من عمليّة برشلونة، لاسيّما فيما يتعلّق بقيادة وإدارة أطر وهيكليّات التّعاون الأمنيّ الجديد في المنطقة، والّتي اعتبرت آليّات التّعاون الإقليميّ متنافسة فيما بينها بدل أن تكون مكمّلة لأطر العمل في المتعدّد، وقد أدّى هذا كلّه إلى تمييع جهود التّعاون الإقليميّ اكثر من ذي قبل.

ولعلّ أكثر مواطن الضّعف في مفاوضات المتعدّد الأطراف أنّها بدت مرتبطة كثيراً بقضيّة التّطبيع مع إسرائيل بعد أن صار بإمكان إسرائيل

أن تجلس على المائدة مع عدد واسع من الدّول العربيّة، ممّا بدا الوضع معه كمظهر من مظاهر التّطبيع الّتي احتلّت العناوين الرّئيسة، وأطلقت سلسلة من الهجمات على المسار المتعدّد على أساس أنّ إسرائيل تلقّت مكافأة بالسّلام قبل أن يتحقّق هذا السّلام في مسار التّسوية السّياسيّة. كما أنّ إسرائيل ذاتها بالغت كثيراً في إرسال وفود كبيرة، وذات مستوى رفيع إلى الجلسات الرّئيسيّة الّتي استضافتها دول الخليج والمغرب والأردنّ الأمر الّذي جعل مسار المتعدّد رهينة المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين.

كانت الفرضيّة الأساسيّة الّتي قام عليها هذا المسار أنّ القضايا الّتي ستجري مناقشتها في المفاوضات المتعدّدة سوف تركّز على تخصيص الموارد وتنفيذ مشاريع معيّنة... وكان الأمل أنّ هذه المفاوضات ستخدم في تنظيم وحشد الخبرة والموارد والمعرفة بما في ذلك الموارد البشريّة من المجتمع الدّوليّ المهتمّ بدفع مسيرة السّلام. وفي هذا المجال كانت المفاوضات المتعدّدة ناجحة، حيث شهدت المجتمع الدّوليّ وهو يضع أسس تسوية مستديمة للنّزاع العربيّ الإسرائيليّ مع تنمية اقتصاديّة في المنطقة الّتي شهدت أطول نزاع في التّاريخ الحديث.

وقد انعكس ذلك كلّه في زيادة مستوى مشاركة أطراف غير إقليميّة في المفاوضات المتعدّدة الأطراف، وبروز رغبة لدى هذه الدّول في استضافة الاجتماعات، والعمل كرعاة، وتقديم أموال لنشاطات ما بين الجلسات. وعلى الرّغم من أنّ نطاق المشاريع لم يتجاوز عتبة مراحل التّخطيط فقد ظلّت هناك حاجة ماسّة إلى وضع قائمة أولويّات لضمان رفع سقف التّوقعات بصورة مفرطة، وعدم متابعة المشروع الّذي لا يمكن تحويله بصورة كافية... وفوق ذلك كلّه يجب إيجاد سبل لدمج القطاع الخاصّ في نشاطات مجموعات العمل

القائمة في إطار المسار المتعدّد وفي إطار تطوير مشاريع ذات موضع اهتمام بين دول المنطقة.

عند انطلاق مسيرة المفاوضات المتعدّدة الأطراف لم يتمّ التّفكير بصورة كافية بالمشاريع المستنبطة في إطار هذا المسار، حتّى أنّه لم يتمّ تناول هذه المسالة المهمّة بصورة كافية في حينه، إذ إنّ تخصيص موارد ماليّة كافية وعقلنة عدد من المشاريع أمران حاسمان حتّى لا يصبح المتعدّدالأطراف مجرد دكان كلام، وسوقا لآمال ووعود زائفة، وهو أمر جعل المسيرة بأكملها مسيرة غير عملية، وتعاني جراء تخمة المساعي المتعدّدة الأطراف والمساعي المفعمة بحس النّيّة.

ومن المفارقة أنّه على الرّغم من الطبيعة الرّسميّة المتحرّرة للمتعدّد الأطراف، والحاجة إلى وجود مخطّط شامل كان ينبغي أن يكون موجوداً منذ البداية فإنّ البنية العمليّة والهيكل التّفاوضيّ اللذينِ تطوّرا بالتّدرّج خلال الأعوام الأربعة من عمر هذا المسار إلى صرح صلب بدرجة يعتدّ بها. ونتيجة لكلّ ذلك صار من الصّعب دمج أفكار ومسائل جديدة، أمّا الجهود الّتي تمّ بذلها في حينه (لعقلنة وتنسيق مختلف النّشاطات) فقد صارت حتميّة لأجندات ثنائيّة متنافسة، ولشكوك كليّة تحيط بالأهداف بعيدة المدى للمسار المتعدّدالأطراف.

كان على المؤتمر المتعدّد الأطراف أن ينشئ أمانة سرّ دائمة تضمّ موظّفين من أطراف اقليميّة للإشراف على المسيرة التّفاوضيّة بصورة أكثر فاعليّة، فقد كانت أمانة السّرّ هذه ضروريّة للمهمّات اللوجستيّة، سواء لعقد الاجتماعات أم للقيام بتوثيق خلفيّات وضمان استمراريّة المحادثات الّتي كان مقدراً لها أن تمتدّ

أعواماً وأن يتخلّلها تغيير في المفاوضين عن الأطراف المعنيّة الّتي كان عليها أن تنظر عن كثب إلى تكوين وتراكم خبرات لدى القائمين على لجان العمل المختلفة، ومن ثمّة نقل الخبرات والتّجارب المتكوّنة من لجنة عمل إلى أخرى.

خلال الأعوام الأربعة من مسيرة المتعدّد تمّت استضافة الاجتماعات من جانب مجموعة واسعة من الدّول، إلّا أنّ القيمة الرّمزيّة لاختبار مسرح الأحداث في الشّرق الأوسط كانت مؤكّدة. فقد اعتبرت رغبة المجتمع الدّوليّ - وخصوصاً العالم العربيّ في استضافة هذه المفاوضات- علامة على التزام جميع الأطراف الإقليميّة وغير الإقليميّة بهذه المسيرة، إلّا أنّ انتشار اجتماعات المتعدّد في مختلف أنحاء العالم كان فيه تبديد للموارد البشريّة والماليّة، حيث يتمّ في العادة تحديد حجم الوفود المشاركة وفقا للاعتبارات الماليّة.

لقد راجت فكرة الرّبط بين الجلسات الّتي تعقد بالتّزامن في مكان واحد، وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتّجاه قد اتّخذت في حزيران/ يونيو ١٩٩٥ مع انعقاد جلسات مجموعتيّ العمل الخاصّة بالمياه والبيئة في العاصمة الأردنيّة. ومع أن هناك تداخلاً واضحاً بين مواعيد مجموعتي العمل المذكورتين إلّا أنّ تجميع الاجتماعات متعدّدة الأطراف كان ينذر بإضعاف مجموعات العمل بدلا من زيادة فاعليتها. ولذلك فقد طوّرت مجموعات العمل الخمسة على مدى الأعوام الأربعة من عملها ديناميكيتها، وأشكال عملها، وطواقم موظفيها دون أن يغيب عن الأذهان وجود مكان واحد يسهل عقد هذه الاجتماعات ويساعدها في تطوير بؤرة وهويّة.

وبرزت حاجة إلى وعي الجمهور بمسار المفاوضات المتعدّدة الأطراف هذه من خلال زيادة الاهتمام الإعلاميّ بها، لاسيّما وأنّ أجندة هذا المسار ليس

لها الأهمّيّة الواضحة والمباشرة لمسار المفاوضات الثّنائيّة الّذي تتمّ فيه مناقشة القضايا الحاسمة في الصّراع العربيّ الإسرائيليّ.

ففي المتعدّد كان جزء كبير من المحادثات يهتمّ بالمسائل الإجرائيّة أكثر من الجوهريّة، كما أنّ كثيراً من الإنجازات القليلة المتحقّقة في حينه لم تسفر عن نتائج يمكن تعريفها أو معرفة تأثيرها المباشر في الحياة اليوميّة لشعوب المنطقة، خصوصاً أنّ معظم المسائل قيد البحث هو عمليّ وفنّيّ معقّد بطبيعته، الأمر الّذي كان يقتضي بذل جهد إضافيّ ومضاعف، لإبقاء التّغطية الإعلاميّة للمحادثات على المسار المتعدّد.

كانت المفاوضات متعدّدة الأطراف مصمّمة أساسا للسّماح للأطراف المنخرطة فيها بطرح مسائل وأفكار مختلفة دون إبداء أيّ التزام رسميّ وعلنيّ إزاء أيّ منها، فيما كانت المساومات الدّائرة في هذا المسار مساومات استكشافيّة تمهيديّة والاتّصالات حرّة نسبيّاً، ومحاضر الاجتماعات الرّسميّة لم تدوّن، كما لم يتمّ إصدار بيانات ختاميّة. أمّا البيانات الصّحفيّة الصّادرة في أعقاب اختتام المباحثات في أيّ من لجان العمل، فقد كانت بيانات مختصرة لا تتضمّن الكثير عن فحوى المحادثات، كما لم يتمّ تقديم تفصيلات كافية للرّأي العامّ عن الأجندات وعن المسائل مدار البحث، الأمر الّذي جعل من هذه المفاوضات تمريناً خفيّاً في الدّبلوماسيّة.

لقد ساهمت الطّبيعة الرّسميّة المنخفضة لاجتماع المتعدّد، وغياب التّوقّعات المحيطة بها في منح هذا المسار صفة خاصّة ومميّزة وفي تطويره بصورة ما. وبسبب تواري هذه الاجتماعات عن الأنظار وعن أضواء وسائل الإعلام فإنّ نتائجها لم تكن محكومة بفوريتها، لكن الحاجة إلى وعي جماهيريّ بأجندة

هـذه المفاوضـات، وبالتّقـدّم الّذي كان يتمّ إحـرازه وبالفوائد المحتملة مـن التّعاون المسـتقبليّ كانـت تسـير بعكـس أحد أهـمّ أهداف المسـار المتعـدّد الأطـراف، وهو إيجـاد مجموعـة إجـراءات لبنـاء الثّقـة بـين الأطـراف المتفاوضـة وبـين الجمهـور المسـتهدف مـن وراء عقـد هـذه المحادثـات على المسـار المتعدّد.

كان بنـاء الثقـة المرغـوب بـه محصـورا على مسـتوى النّخبـة بـين أعضـاء الوفـود في اللجـان المتخصّصة، وبـدت الطّبيعة نصـف السّرّيّة لاجتمـاعات اللجان ضـارّة أكـثر ممّا هي نافعة لمسـتقبل المسـار المتعدّد الأطـراف، إذ ظلّـت الحاجة إلى معلومـات متعلّقـة بفحـوى الاجتماعات على المسـار المتعـدّد حاجة ملحـة. إلّا أنّ المعلومـات نفسـها كانـت معلومـات شـحيحة وغـير مرفقة بـأيّ تحليـل لدور هذا المسـار أو تعليقـات على مسـاهمة المؤتمـر المتعـدّد بلجانـه المتخصصـة في مسـيرة عمليّـة السّـلام، فالتّقارير الصّحفيّـة المتفرّقة والمتباعدة ألقـت الضّوء على خلافات وصعوبـات، ونقلـت انطبـاعات سـلبيّة عـن القيمـة الكلّيّة لهـذه المحادثات.

وفي الواقـع فقـد كانـت مفاوضـات المتعـدّد بحاجـة إلى وضـع علامـة تجاريّة أو هويّـة مميّزة ومنفصلـة تسـمح للشّـعوب في الـشّرق الأوسـط بفهم أهـداف هذه المفاوضـات وبالتّـالي دعمهـا، وكانت معرفـة مجريات الأحـداث والتّطـوّرات داخل مجمـوعات العمل المنفصلة تحتاج إلى توسـيع لتشـمل أعدادا أوسـع مـن النّاس مثل الجمـاعات الأكاديميـة والقطـاع الخاصّ. وقـادت الحاجة إلى نتائج يمكـن تعريفها وإيجـاد مشـاريع ملموسـة منبثقـة عن هـذه المفاوضـات الكثيريـن إلى نبـذ القيمة الكائنـة في مجـرى مفاوضـات المتعـدّد، وزادت مـن الأسـئلة حـول مـدى المنفعـة المتوقّعـة مـن وراء الاسـتمرار في مسـيرة المسـار المتعـدّد الأطراف.

كانـت هنـاك دعوة لعقـد مؤتمر بشـأن الأمـن والتّعـاون في الشّرق الأوسـط

على غـرار مؤتمـر الأمـن والتّعـاون في أوروبـا (CSCE)، وفي الواقـع كانت كلّ من الأردنّ واسرائيـل قـد التزمنـا في المـادّة الرّابعـة مـن معاهدة السّـلام بينهما إنشـاء إطـار عمـل للأطـراف الإقليميّـة الّتي تحتـاج إلى التّطلّـع قدمـاً، والتّخطيط لهياكل أمنيّـة ترتيبـات تعـاون إقليميّة على أسـاس أنّ أيّ معاهـدة إقليميّـة خاصّة بالشّرق الأوسـط تأخـذ النّتائـج المحتملـة الطّويلة الأجل لمسـيرة المؤتمر المتعـدّد الأطراف، إلّا أنّ مـن غـير الحكمـة تبـني هـذا النّهـج المسـيّس في هـذه المرحلـة مـن عمليّـة السّـلام، ذلـك أنّ مثـل هذا النهج المسـيّس سـيقوّض الفوائـد المكتسـبة في حينه، ويضـع التّرتيبـات الإبداعيّـة المتحقّقـة في خطـر شـديد، بينمـا ينبـغي ألّا ترتبـك المسـيرة بالجوهـر، فـإنّ تجربة المسـار المتعـدّد تشـير إلى القيمـة وإلى ضرورة الحفاظ على نهـج متـدرّج لتنمية تعـاون إقليميّ في الشّرق الأوسـط باعتبـار أنّ إجراء تحوّل ذي مغـزى في العلاقـات العربيّـة الإسرائيليّـة بعـد نحو خمسـين سـنة مـن الصراع يتطلّـب فـترة انتقاليّـة هادفـة تسـمح للأطـراف بالتّحـرّك نحـو تصـوّرات ونماذج سـلوك تعاونيّـة، ومثـل هـذا الهـدف يمكـن تحقيقـه من خـلال خطـوّات صغيرة تتـمّ بأسـلوب برغمـاتيّ بـدلا من رفـع سـقف التّوقّعات، ووضـع التزامـات طموحة على نحو مسـبق.

لقـد تعرقلـت المفاوضـات المتعـدّدة الأطراف بغيـاب كلّ من سـوريا ولبنان، فمـن الحيـويّ أن يشـارك هذان البـلدان في هذه المسـيرة لضمـان عدم الشّـك فيها، وكان يجـب بـذل جهـد إضـافيّ لتشـجيع السّـوريين واللبنانيـين على الانضمـام إلى المسـار المتعـدّد الأطـراف دون تأخـير، ومـع أنّ مقاطعـة هذيـن البلديـن العربيين لهـذه المحادثـات لم تنجح في إخـراج المتعدّد الأطراف عن مسـاره، لكـنّ غيابهما حـصر مجـال النّقاش الجـاري، فمعظـم المسـائل المطروحـة تتعلّق بمجـالات العمل المسـتقبليّ، وهي ذات اهتمـام متسـاو بمسـتقبل ورفاهيّة البلديـن المذكورين.

ومع كلّ هذه التّحذيرات والمخاوف الّتي كانت حاضرة في الأذهان سلفا، فإنّه يمكن اختتام هذا العرض بملحوظة إيجابيّة، حيث كان المسار المتعدّد النّاجم عن مؤتمر مدريد للسّلام مساراً مشحونا بالشّكوك... وبعكس كلّ التّوقعات فقد أدّت هذه المفاوضات دوراً في نقل العلاقات بين العرب وإسرائيل، على نحو ما، الى عهد جديد يعد بالازدهار والسّلام، إذ تمّ وضع أجندة عريضة من المشاريع المحتملة الّتي ستربط الأطراف بعضها ببعض في مجموعة مشاريع مشتركة جديدة، وبالتّالي فإنّ المؤتمر المتعدّد الأطراف لم يعكس التّغييرات في المنطقة فحسب، وإنّما عزّز الاتّجاه لحلّ شامل ودائم للنّزاع، ولبروز عهد جديد من التّعاون الشّرق أوسطيّ.

غير أنّ الحقيقة الكبرى الّتي واجهها المسار المتعدّد الأطراف اتّضحت في وقت لاحق أكثر ممّا كانت عليه من قبل، وذلك عندما استقرّ في وعي الجميع عدم إمكانيّة تطبيع العلاقات العربيّة الإسرائيليّة، والقيام بمشاريع إقليميّة مشتركة في الشّرق الأوسط قبل حدوث تقدّم ملموس في المفاوضات المتعثّرة على المسار الثّنائيّ. فالمفاوضات السّوريّة الإسرائيليّة كانت قد توقّفت في وقت قصير بعد انطلاقها في مؤتمر مدريد، وكذلك هو الحال في المفاوضات اللبنانيّة الإسرائيليّة، أمّا المفاوضات الفلسطينيّة الإسرائيليّة فقد تحوّلت إلى مجرد لقاءات إعلاميّة يستخدمها الجانب الإسرائيليّ للإدّعاء أنّ هناك عمليّة سلام.

لقد انتهى مسار المؤتمر المتعدّد بعد نحو أربع سنوات من بدئه دون تحقيق إنجاز يعتدّ به، وقد كان قيام السلطة الوطنيّة بعد اتّفاق أوسلو نهاية مطاف هذا المسار لاسيّما على الصّعيد الفلسطينيّ، حيث تمّ في ذلك الوقت تكليف المرحوم فيصل الحسيني ومؤسّسة بيت الشّرق الإشراف على تلك المفاوضات، حيث

جـرى حـلّ الطّواقـم الفنيّـة، وتشـتت أعضاؤهـا، وأقيمـت الـوزارات والسّـلطات والمؤسّسـات الوطنيّـة الفلسـطينية، كمـا ألّفـت اللّجـان الفلسـطينيّة الإسرائيليّة المشـتركة للتّعامـل مـع مختلـف المسـائل، ولـم يعـد هنـاك أيّ تواصـل بـين طواقم المفاوضـات في مسـاري الثنـائيّ والمتعـدّدة واللّجـان المشـتركة وبـين مؤسّسـات السّـلطة الفلسـطينيّة... وفي واقـع الأمـر ظهـرت مرجعيّـات تفاوضيّـة جديدة.

في النّهايّـة، ينبـغي الإقـرار أنّ مـا لم تسـتطع إسرائيـل تحقيقه خـلال أعمال المفاوضـات في السّـنوات الأربـع مـن عمـر المتعـدّد الأطـراف، اسـتطاعت تحقيقه مـن خلال إنشـاء العديـد من القنـوات واللّجان والبرامـج والمشـاريع والمخطّطات، فيمـا أهمل الجانب الفلسـطينيّ مسـار المتعـدّد بالكامـل، وذلك لعدم توفّر مؤسّسـة قـادرة على إدارة جميـع شـؤون هذه المفاوضات، وتحمّل مسـؤوليّات هـذا الملفّ المهمّ بتعـاون كامـل بـين كلّ مجمـوعات العمل، وبتنسـيق مـع الدّول العربيّة المشـاركة في المؤتمـر المتعـدّد الأطراف.

وهكـذا ذهـب مسـار المتعدّد الأطـراف إلى حال سـبيله دون أن يـترك خلفه إرثـاً ملموسـاً يمكـن التّعليق عليـه. ويبـدو أنّ التّقـدّم الّذي كان يتـمّ إحرازه على مسـار المفاوضـات الثّنائيّـة بـين الفلسـطينيين والإسرائيليـين - خـلال الفـترة الزّمنيّـة المبكـرة مـن عهـد اتّفـاق أوسـلو- قـد أدّى إلى صرف الأنظـار عـن هـذا المسـار الّذي كان يـراوح في مكانـه، ومن ثمّـة التّعلّق بمسـار ثنائيّ بدا أكـثر جدّيّة، وأوسـع آمـالاً، بـل وأقـرب منالاً مـن أيّ مسـار آخـر عرفة تاريـخ الـصّراع العربيّ الإسرائيـليّ على امتـداد العقـود الزّمنيّـة الطّويلة.

صُـوَر

أبو علاء وأوري سافير في حفل توقيع إتفاق إعلان المبادئ بالأحرف الأولى، بحضور وزير خارجية النرويج «جوهان هولست» والمبعوث «تيري رود لارسن» – أوسلو ١٩٩٣/٨/١٨م

أبو علاء وأوري سافير بعد توقيع إتفاق إعلان المبادئ، بحضور وزير خارجية إسرائيل «شمعون بيرس»، ووزير خارجية النرويج «جوهان هولست» والمبعوث «تيري رود لارسن» – أوسلو ١٩٩٣/٨/١٨م

الرئيس أبو عمار ووزير خارجية النرويج «هولست»، و «تيري رود لارسن» وزوجته منى وأبوعلاء، والأخ فتحي عرفات - تونس ١٩٩٣

أبو علاء وأوري سافير، بعد توقيع إتفاق أسلو بالأحرف الأولى - النرويج ١٩٩٣

أبو علاء وأوري سافير يوقعان الإتفاق الإنتقالي المتعلق بالمعابر، بحضور الرئيس أبوعمار والرئيس المصري محمد حسني مبارك، وشمعون بيرس، فيصل الحسيني، ياسر عبد ريه، نبيل شعث في قصر القبة في القاهرة

أبو علاء وشمعون بيرس ورئيس الإتحاد السوفيتي سابقاً «غورباتشوف» في زيارة للمجلس التشريعي الفلسطيني - رام الله

الرئيس أبوعمار وأبوعلاء ونبيل شعث وشمعون بيرس ورئيس وزراء مملكة السويد « إينغفار كارلسون »

أبو علاء والأخ أبو مازن ووزيرة الخارجية الأمريكية « مادلين أولبرايت» واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية

الرئيس الأمريكي «بيل كلينتون» في استقبال الرئيس أبوعمار يرافقه كل من أبو علاء وحسن عبد الرحمن - واي ريفر - الولايات المتحدة الأمريكية

الرئيس أبوعمار و أبو علاء وأبومازن ونبيل أبوردينة، في لقاء مع المبعوث الأوروبي «موراتينوس» ومسؤول العلاقات الخارجية في الاتحاد الأوروبي « خافير سولانا»

الرئيس أبوعمار وأبوعلاء والأخ سليم الزعنون ، بإفتتاح جلسة المجلس التشريعي الفلسطيني- رام الله ٢٠٠٠

أبو علاء و وزيرة الخارجية الأمريكية « كوندليزا رايس» - رام الله ٢٠٠٧

أبو علاء وياسر عمرو مع الرئيس الأمريكي السابق « جورج بوش الأب » - واشنطن

أبو علاء والدكتور سلام فياض، مع الرئيس الأمريكي السابق « جورج دبليو بوش الأبن» في البيت الأبيض - واشنطن

الرئيس أبوعمار والرئيس الصيني « جيانغ زيمين » وأبوعلاء
في زيارة للمجلس التشريعي الفلسطيني - بيت لحم ٢٠٠٠

أبو علاء ورئيسة البرلمان الأوروبي - رام الله

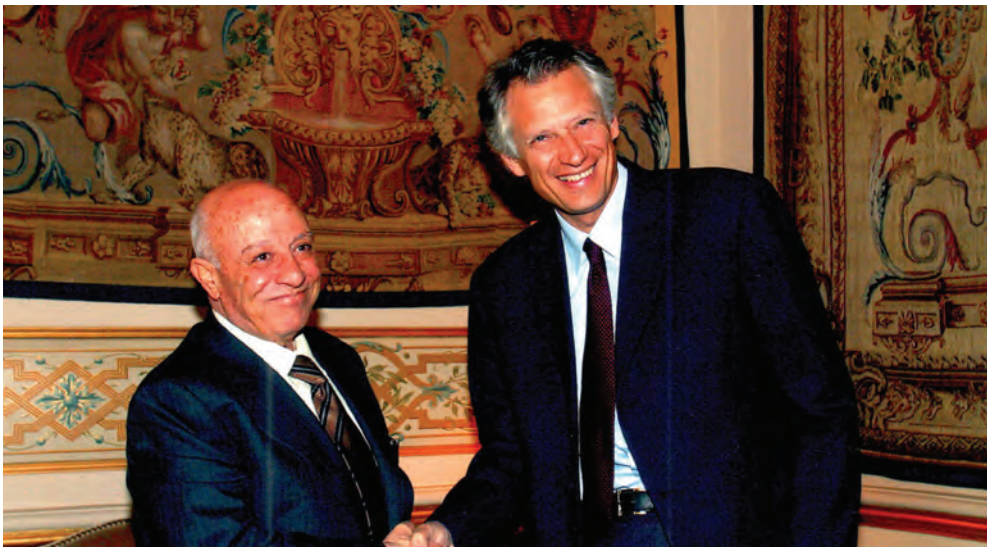

أبو علاء ورئيس وزراء فرنسا «دومنيك دوفلبان» – باريس

الرئيس أبوعمار والرئيس الأمريكي «بيل كلينتون» في زيارة للمجلس التشريعي الفلسطيني في غزة، بحضور الأخ أبوعلاء رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني، والأخ سليم الزعنون رئيس المجلس الوطني الفلسطيني

أحمد قريع (أبو علاء) ١٩٣٦م - ٢٠٢٣م

- من مواليد أبوديس / القدس.
- شخصية بارزة في العمل السياسي الفلسطيني، تفرغ تماماً لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) عام ١٩٦٨، بعد أربعة عشر عاماً قضاها في العمل المصرفي في المملكة العربية السعودية.
- أسس مؤسسة صامد (معامل أبناء شهداء فلسطين) في بيروت في أوائل السبعينيات وشغل منصب مديرها العام حتى توقفها عن العمل نهائياً في (٢٠٠٧/٢٠٠٨).
- تولّى منصب مدير عام دائرة الشؤون الاقتصادية والتخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية، حيث عمل من خلال هذه الدائرة على دعم وإنشاء العديد من المشاريع والمؤسسات الفلسطينية في الوطن مثل: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، مجلس الإسكان الفلسطيني، ومؤسسات الإقراض وغيرها.
- شغل منصب محافظ فلسطين لدى البنك الإسلامي للتنمية منذ ١٩٨٧حتى عام ١٩٩٦.
- عضوٌ في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضوٌ في المجلس الوطني الفلسطيني.
- أنتخب عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح في آب/ أغسطس عام ١٩٨٩.
- أشرف على إعداد البرنامج العام لإنماء الإقتصاد الوطني الفلسطيني للسنوات ١٩٩٤- ٢٠٠٠.
- شغل منصب المدير العام للمجلس الإقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار(بكدار).
- عُيّن وزيراً للإقتصاد والتجارة ووزيراً للصناعة في أول حكومة فلسطينية في الفترة (١٩٩٤-١٩٩٦).
- أُنتخب عضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني بعد الإنتخابات العامة الفلسطينية عام ١٩٩٦ عن دائرة محافظة القدس ممثلًا عن حركة فتح، وأُنتخب رئيساً للمجلس التشريعي الفلسطيني عام ١٩٩٦ وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ٢٠٠٣.
- تولى منصب رئيس مجلس الوزراء الفلسطيني منذ أكتوبر ٢٠٠٣ وحتى آذار ٢٠٠٦، ترأس خلالها ثلاث حكومات فلسطينية (الحكومة السابعة والحكومة الثامنة والحكومة التاسعة).
- تولى مهمة المفوض العام لمفوضية التعبئة والتنظيم في حركة فتح حتى نهاية عام ٢٠٠٩.
- أُنتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وعين رئيساً لدائرة شؤون القدس في منظمة التحرير الفلسطينية في شهر تشرين أول/أكتوبر ٢٠٠٩.
- أُنتخب أمين سر المجلس الاستشاري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني عام ٢٠١١.
- ترأس مجلس أمناء جامعة القدس ورئيس مجلس إدارة معهد القدس للدراسات والأبحاث حتى وفاته عام ٢٠٢٣.
- لعب دوراً أساسياً في عملية السلام في الشرق الأوسط حيث شغل منصب المنسق العام للوفود الفلسطينية للمفاوضات المتعددة الأطراف، وترأس الوفد الفلسطيني خلال المباحثات الفلسطينية الإسرائيلية في أوسلو/ النرويج، التي انتهت باتفاق إعلان المبادئ الذي وقّعه بالأحرف الأولى عن الجانب الفلسطيني في العشرين من آب/ أغسطس عام ١٩٩٣. وترأس الفريق الفلسطيني في المفاوضات التي أدت إلى التوقيع على اتفاقية المرحلة الانتقالية الثانية) عام ١٩٩٥، كما ترأس الجانب الفلسطيني في لجنة التوجيه لتنفيذ هذه الاتفاقية. ترأس الوفد الفلسطيني في مباحثات الوضع النهائي مع الإسرائيليين خلال مفاوضات ستوكهولم وشارك في مفاوضات كامب ديفيد عام ٢٠٠٠. وترأس فريق المفاوضات الفلسطيني في المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية في طابا عام ٢٠٠١، كما ترأس فريق المفاوضات الفلسطيني إلى مفاوضات الوضع النهائي التي انطلقت بعد مؤتمر أنابوليس للسلام في الشرق الأوسط عام ٢٠٠٧.

على دروب الفتح (٧)
فتح في زمن المفاوضات

وخلاصةالقول إنّ أوضاعنا الذّاتيّة الفلسطينيّة فضلاً عن الأوضاع المحيطة بنا من كلّ حدب وصوب كانت في أسوأ حالاتها... إن لم أقل أنّنا كنّا في أشدّ ساعات اللّيل الفلسطينيّ حلكة، ومن ثمة فقد كان خيار التّفاوض مع العدوّ التّاريخيّ- على ما يحمله هذا الخيار من مرارات، وما ينطوي عليه من مخاطر لا يمكن التّنبؤ بها سلفا- هو الخيار الموضوعيّ المتاح دون مزيد من المكابرات، وكانت تلك اللحظة لحظة مواتية للبحث عن مخرج واقعيّ من الطّريق المسدود، وهي في الواقع لحظة سياسيّة فارقة التقطتها القيادة التّاريخيّة الفلسطينيّة بكلّ براعة، وأمسكت عليها بكلتا اليدين، ومضت في تجريبها تحت شعار «وما الّذي سنخسره إذا فشل هذا الخيار غير المسبوق».

ISBN 978-9950-364-41-7

9 789950 364417

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث